BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مراصد

كراسات علمية ٣٧

التفسير النفسي للتطرف والإرهاب

تأليف

الدكتور شاكر عبد الحميد

مراصد ٣٧

كراسات علمية محكمة تعنى برصد أهم الظواهر الاجتماعية الجديدة، لا سيما في الاجتماع الديني العربي والإسلامي، تصدر عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية.

رئيس مجلس الإدارة
إسماعيل سراج الدين

رئيس التحرير
خالد عزب

سكرتارية التحرير
أمنية الجميل

التدقيق اللغوي
رانيا يونس

الإخراج الفني
خالد مصطفى

الآراء الواردة في «مراصد» تُعَبِّر عن رأي الكاتب فقط، ولا تعبر عن رأي مكتبة الإسكندرية.

التفسير النفسي للتطرف والإرهاب

تأليف

الدكتور شاكر عبد الحميد

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

عبد الحميد، شاكر، -1952

التفسير النفسي للتطرف و الإرهاب / تأليف شاكر عبد الحميد.- الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، وحدة الدراسات المستقبلية، 2017.

ص. سم. (مراصد ؛ 37)

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

تدمك 978-977-452-410-2

1. الإرهاب. 2. العنف. 3. الإرهاب -- علم نفس. أ. مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية. ب. العنوان. جـ. السلسلة.

ديوي -303.625 2017834081

ISBN: 978-977-452-410-2

رقم الإيداع: 2017/2846

© 2017 مكتبة الإسكندرية.

الاستغلال غير التجاري

تم إنتاج المعلومات الواردة في هذه الكراسة؛ للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية. ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية. وإنما نطلب الآتي فقط:

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها «مصدر» تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، وألا يُشار إلى أنه تمَّ بدعمٍ منها.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الكراسة، كلها أو جزء منها، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية. وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الكراسة، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. ١٣٨، الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر.

البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

شكـــــر

لا بد لي أن أتقدم أولاً بجزيل الشكر إلى مكتبة الإسكندرية، وعلى نحو خاص إلى الأستاذ الدكتور خالد عزب؛ رئيس قطاع الخدمات والمشروعات؛ لأنه كان صاحب فكرة تأليف هذا الكتاب، كما أنه قدم لي العديد من المراجع المهمة التي اعتمدت عليها في تأليفه. وجزيل الشكر أيضًا للأستاذة أمنية الجميل على ما قدمته لصاحب هذا الكتاب من تيسييرات، وخاصة ما يتعلق منها بتوفير بعض الدراسات المهمة ذات الصلة بموضوع الكتاب، والتي أصدرتها مكتبة الإسكندرية. وكذلك أتقدم إلى الأستاذ الدكتور أيمن عامر؛ أستاذ علم النفس بكلية الآداب، جامعة القاهرة، والأستاذ الدكتور عبد اللطيف خليفة؛ أستاذ علم النفس بكلية الآداب، جامعة القاهرة، على ما قدماه من مراجع مهمة أفادت مؤلف هذا الكتاب. وأيضًا أتقدم بشكر خاص للأعزاء الأستاذ سيد محمود الشاعر؛ رئيس تحرير جريدة القاهرة، والأستاذ صابر أحمد لما بذله من جهد في كتابة مخطوطة هذا الكتاب على الحاسب، ولأسرتي الصغيرة على ما قدمته لي من عون ومساعدة.

شاكر عبد الحميد
أغسطس ٢٠١٦

المحتويات

الفصل الأول: مفاهيم أساسية	٩
الفصل الثاني: التطرف وتقسيم العالم	٥٥
الفصل الثالث: نظريات مفسرة للتطرف	٧٧
الفصل الرابع: الإرهاب والعنف السياسي	١٠٥
الفصل الخامس: التطرف والتسلط	١٣٧
خاتمة: ثقافة الإبداع في مواجهة ثقافة التطرف والإرهاب	١٥٩
قائمة المراجع	١٦٥

الفصل الأول

مفاهيم أساسية

يستخدم مصطلح التطرف، عادة، للإشارة إلى تلك الجماعات المتشددة دينيًّا وسياسيًّا.. إلخ. ويعني التطرف حرفيًّا «دفع أي شيء، نحو حدوده أو أطرافه القصوى، وكذلك التبني لوجهات نظر أو معايير متطرفة». ويستخدم هذا المصطلح؛ كي يشير، دينيًّا أو سياسيًّا، إلى إحدى الأيديولوجيات التي تعتبر، من جانب أصحابها، أو من جانب المعارضين لها، خارج التيار العام في المجتمع. ويقصد بمصطلح «التطرف»، أن يكون أيضًا مصطلحًا ازدرائيًّا، أو محقِّرًا من شأن فرد أو جماعة، أي أن يعبر عن الرفض لها، لكنه، في بعض السياقات الأكاديمية قد يقصد به مجرد الوصف لأنواع من السلوكيات، دونما رغبة مقصودة، منذ البداية، لإدانتها أو التحقير من شأنها. ويقابل التطرف كمصطلح مصطلح (الاعتدال). هكذا يقوم بعض الأفراد بالتمييز بين المسلمين الجيدين المعتدلين والمسلمين السيئين المتطرفين، بينما يقوم آخرون بوضع المسلمين كلهم في سلة واحدة، عنوانها التطرف والإرهاب. وتشتمل الأجندة السياسية التي يدرك أصحابها أنهم متطرفون على أتباع الجناح اليميني المتطرف، وأتباع الجناح اليساري المتطرف، والراديكاليين والأصوليين، دينيًّا، وذوي النزعة المحافظة أيضًا.

والتطرف ظاهرة مركبة، وقد يصعب رؤيته، أو تحديده، ومع ذلك، فإنه يعرف، ببساطة، على أنه: «مجموعة من المعتقدات والاتجاهات والمشاعر والأفعال والاستراتيجيات ذات الطبيعة البعيدة عن الحد المعتدل أو العادي». وفي مواقف الصراع يتجلى التطرف بوصفه شكلاً حادًّا من حالات الدخول في صراع مع طرف آخر. ومع ذلك، فإن وصف أية أنشطة أو أفراد أو جماعات على أنها متطرفة، وكذلك التحديد للاعتدال، في أي سياق، غالبًا ما يكون أمرًا ذاتيًّا وسياسي الطابع أيضًا في المقام الأول[1].

محددات تعريف التطرف

ينبغي علينا أن نضع الجوانب التالية في اعتبارنا، بينما نحن نحاول أن نحدد مفهوم التطرف:

١- على نحو نمطي، فإن الفعل المتطرف ذاته قد يراه بعض الأفراد على أنه فعل عادل وأخلاقي كما في حالة المؤيدين للقتال من أجل الحرية (في فلسطين مثلاً) بينما قد يراه آخرون على

(١) "Extremism", *Wikipedia*, https://en.wikipedia.org/wiki/Extremism.

أنه شيء لا أخلاقي وضد الإنسانية (أو نوع من الإرهاب)؛ اعتمادًا على القيم والسياسات والمنظور الأخلاقي وطبيعة العلاقة الإيجابية أو السلبية مع القائم بهذا الفعل.

٢- كذلك، فإن المعنى الخاص بأخلاقية، أو لا أخلاقية، فعل من أفعال التطرف (استخدام نيلسون مانديلا مثلاً لتكنيكات حرب العصابات ضد حكومة جنوب إفريقيا العنصرية)، قد يتغير مع تغير الظروف (تغير القيادات، الرأي العام العالمي، الأزمات، التأويلات التاريخية... إلخ). هكذا يعمل السياق الحالي والتاريخي الخاص بالتطرف على تشكيل آرائنا، حوله، على نحو واضح.

٣- ينبغي أيضًا وضع الفروق في السلطة/ القوة في الاعتبار، ونحن نحدد طبيعة التطرف؛ ففي صراع ما قد يُنظر إلى الأنشطة التي يقوم بها أعضاء جماعات تنادي بالتغيير، وتمتلك قدرًا قليلاً، أو منخفضًا، من السلطة، على أنها أنشطة متطرفة مقارنة بالأنشطة نفسها عندما تقوم بها جماعات تمتلك قدرًا أكبر من السلطة، وتؤيد الحفاظ على الوضع الراهن (الأحزاب السياسية المؤيدة للحكومة الحالية، قوات الأمن أو الشرطة مثلاً... إلخ).

٤- وإضافة إلى ذلك، فقد يزداد حدوث الأفعال المتطرفة من جانب الجماعات الهامشية – وكذلك الأفراد الهامشيين – الذين يرون أن أشكال المعايير السائدة، سياسيًّا واقتصاديًّا، متميزة ضدهم وتعوق نموهم. ومع ذلك، فإن الجماعات المهيمنة، ذاتها، قد تستخدم بعض الأنشطة المتطرفة من العنف ضد المعارضين لها أيضًا.

٥- هناك علاقة وثيقة بين التطرف والعنف؛ حيث يستخدم المتطرفون العنف المادي والرمزي أيضًا، على الرغم من وجود بعض الفروق بينهما، في نوعية الوسائل العنيفة التي يستخدمونها. وكذلك في مستوى العنف الذين يفضلون استخدامه، وكذلك الأهداف التي يوجهون أفعالهم المتطرفة نحوها؛ بدايةً من محاولة تدبير البنية التحتية في بعض البلدان، أو المدن، إلى مهاجمة رجال الشرطة والجيش، واغتيال المثقفين أو القادة السياسيين، وكذلك مهاجمة المدنيين من الكبار والأطفال والنساء. وقد يكون شكل العنف المستخدم مباشرًا أو متفرقًا (كما في حالة التفجيرات المفخخة أو الأحزمة الانتحارية)، هذا بينما قد تستخدم الجماعات المهيمنة أشكال العنف المرتبطة بالمؤسسات (الاستخدام المستتر للتعذيب في أقسام الشرطة مثلاً أو الاستخدام المفرط للقوة مع المعارضين... إلخ).

٦- إن جوهر مشكلة التطرف لا يظهر فقط في المواقف والسلوكيات العنيفة التي يظهر فيها التطرف فقط (هذا على الرغم من العنف والصدمة والتفاقم للمشكلات والخسائر من الأمور المهمة هنا)، لكن مشكلة التطرف تكمن أكثر في تلك الطبيعة المنغلقة، الثابتة، وغير المتسامحة للاتجاهات المتطرفة، وكذلك حالة الجمود والمقاومة الجامدة للتغير التي تترتب عليها. وهو الأمر الذي يدفعنا إلى ضرورة مناقشة المفاهيم الأخرى المرتبطة بالتطرف، وكذلك الشروط الاجتماعية والنفسية التي يزداد ظهوره فيها. ومن بين تلك المفاهيم تلك المتعلقة بالجمود والعنف والتسلط والكراهية، وغير ذلك من المفاهيم[٢].

على الرغم من أن علم النفس السياسي قد حقق تقدمًا ما يعتد به في فهم الجوانب الأكثر شكلانية في التطرف (ارتباطه بالتسلطية، والمركزية الاثنية، والمكانة الاجتماعية – الاقتصادية) فما نعرفه من الكيفية التي يفسر بها الأفراد أنفسهم تطرفهم، وراديكاليتهم واعتدالهم هو أقل من ذلك[٣].

التصلب والجمود والتطرف

يخلط البعض أحيانًا بين مفهومي التصلب والجمود، ويرجع ذلك في جوهره كما يشير معتز عبد الله إلى أنهما يشتركان في خاصية مهمة؛ وهي مقاومة التغيير، لكن هناك فارقًا أساسيًّا بينهما أيضًا، فالتصلب يشير إلى مقاومة التغيير بالنسبة لمعتقد فردي أو مجموعة من المعتقدات، أو العادات، بينما يشير الجمود، من ناحية أخرى، إلى مقاومة التغيير بالنسبة للأنساق الكلية للمعتقد. هكذا ربط عبد الله بين التصلب والمعتقد الفردي والجمود والنسق الكلي للمعتقدات. ونحن نعتقد أن هذا التمييز، على الرغم من أهميته، تمييز يحتاج أيضًا إلى بعض المراجعة؛ وذلك لأن التصلب قد يكون سمة لجماعة معينة ولطريقتها في التفكير، وليس خاصية مميزة لفرد واحد بداخلها. وقد يكون الجمود الفردي محصلة لجمود عقائدي جمعي، وليس مجرد مجموعة عادات فردية، تعوق صاحبها عن أحداث تغيير لمواجهة المتطلبات الموضوعية. كذلك قد يكون الفصل التام بين هذين المفهومين أمرًا صعبًا، في واقع الأمر، فالجمود العقائدي يؤدي إلى تصلب فكري وحركي ووجداني،

(٢) المرجع السابق.

(٣) كريستيان تيليغا، **علم النفس السياسي: رؤية نقدية**، ترجمة أسامة الغزولي، سلسلة عالم المعرفة ٤٣٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٦): ٦٣-٦٤.

وكذلك قد يؤدي التصلب إلى الجمود. والمفهومان وجهان لعملة واحدة، وهما معًا، يرتبطان، على أنحاء شتى، بالتطرف بأشكاله المتنوعة. هكذا ينبغي أن ننظر إلى سلوكيات الناس المتطرفة وكتاباتهم وأحاديثهم وجمودهم الفكري الذي يتجلى في المقاومة للتغيير، وتصلبهم في التمسك بآرائهم، سواء على مستوى الأفراد، أو الجماعات، وخوفهم كذلك من الجديد والغريب، وغير المألوف، والمختلف بشكل عام، كأنها تجليات لمنظومة واحدة، خاصة بالتطرف، وهي منظومة تتجلى في الحياة على أنحاء شتى(٤).

أشار هكذا ميلتون روكيتش – وهو من أشهر العلماء الذين درسوا الجمود العقائدي وارتباطه بالأيديولوجيات والقيم – إلى مجموعة من المظاهر السلوكية والمعرفية المتعلقة بالأفكار والمعتقدات المنتظمة في نسق ذهني مغلق نسبيًّا. فالجمود هو طريقة منغلقة في التفكير ترتبط بأيديولوجيا بصرف النظر عن مضمونها، ونظرة تسلطية في الحياة، وعدم تحمل أو تسامح مع الأشخاص الذين يختلفون أو يعارضون المعتقدات الخاصة بأصحابها، وتسامح مع الأشخاص الذين يعتنقون معتقدات متشابهة. هكذا رادف روكيتش بين مفهومي الجمود وانغلاق الذهن وميز بين النمط منغلق الذهن Closed Mindedness (مرتفع الجمود) والنمط منفتح الذهن Open Mindedness (منخفض الجمود) وفي ضوء متصل أو بعد الاعتقاد في مقابل عدم الاعتقاد. ويرتبط التطرف والجمود العقائدي كذلك بأنماط عديدة من التحيزات التي تتجلى في صورة تعصب واضح مع أو ضد موضوع معين(٥).

النظرة الباثولوجية (المرضية) للتطرف والإرهاب

يرى عدد من الباحثين أن الارهابيين يعانون من مشكلات سيكولوجية عميقة، وأنهم عدوائيون، وجامحون، ومختلون، وأيضًا سيكوبائيون (السيكوبائي شخص متبلد المشاعر يقوم بسلوكيات عدائية ضد المجتمع ولا يستفيد من خبراته ومنغلق التفكير بعيد عن المرونة شديد التصلب). ومن الصفات الأخرى التي ألصقت بالإرهابيين أنهم يقتلون بدم بارد وأنهم ضد الحضارة والتقدم وأشرار ... إلخ. في الغالب يكون اهتمام الباحثين هنا متعلقًا بسمات الشخصيات

(٤) معتز سيد عبد الله، **الاتجاهات التعصبية**، سلسلة عالم المعرفة ١٣٧ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩): ٨١ – ٨٢.

(٥) Milton Rokeach, "Some Unresolved Issues in the Theories of Beliefs, Attitudes and Values", *Nebraska Symposium on Motivation* 27 (1980): 261-304.

واضطرابها، لكن المنحى الأكثر قبولاً هو ذلك الذي يرى أن الإرهابيين أفراد يعانون من مزيج من السيكوبائية والسيوسيوبائية Sociopathy and Psychopathy أي مزيج من السيكوبائية الاجتماعية النفسية. وقد وصل الأمر لدى أتباع هذا الرأي أن وصف كتاب التشخيص الإحصائي الرابع الخاص بجمعية الطب النفسي الأمريكية والمسمى Statistical Manual of Mental Disorder DSMV، وصنف الأفراد الذين يعانون، من مثل هذا الاضطراب، على أنهم يعانون من اضطرابات شخصية معادية للمجتمع، وأنهم يميلون إلى الانتهاك والاستيلاء على حقوق الآخرين بالقوة وأنهم يفشلون في الشعور بالتعاطف مع ضحاياهم.

هكذا صنف بعض الباحثين أمثال كوبر وبيرسي خلال سبعينيات القرن الماضي تحت الفئة التشخيصية الخاصة بالسوسيوباثية Sociopathy. وقال باحثون آخرون إن النرجسية شائعة بين الإرهابيين. ويتجلى ذلك من خلال شكل ملابسهم، وأغطية رؤوسهم، وأعلامهم، ورموزهم الخاصة، وطرائق عيشتهم، وتعبيراتهم عن أنفسهم من خلال صور خاصة يبثونها على المواقع الإلكترونية وغير ذلك من الأمور(٦).

وعلى نقيض ذلك يقول باحثون آخرون إنه لا توجد سمات خاصة تميز الإرهابيين عن غيرهم، وإن أكثر أهمية من الصفات السابقة هو ذلك المنطق السيكولوجي الذي يقومون بتكوينه، أو التبني له، وذلك من أجل تبرير تلك الأفعال التي يكونون مدفوعين سيكولوجيًّا للقيام بها. هكذا ينجذب الأفراد، في ضوء هذا الرأي، إلى الإرهاب من أجل القيام بسلوكيات عنيفة، يبررونها، من خلال ذلك المنطق الخاص الذي يقف وراء أفعالهم والذي يمتد بجذوره بعمق في تكوينهم السيكولوجي والاجتماعي ويعكس خطابهم الخاص المبررات لأفعالهم العنيفة(٧).

يقول آخرون أيضًا إنه لا يوجد ما يمكن أن نسميه «الشخصية الإرهابية»، لكن هناك تلك الاستعدادات الشخصية التي تكون موجودة لدى بعض الأفراد؛ مثل الميول إلى العدوان أو المخاطرة أو غيرها، والتي تتفاعل عبر عمليات التربية، مع الظروف البيئية والدينية، فتجعل شخصًا ما يميل إلى مثل هذا السلوك المتطرف العنيف. وقد وجدت دراسات أخرى أن شيوع الأمراض

(٦) David D. Glemore, *Monsters: Evil Beings, Mythical Beasts and All Manners of Imaginary Terrors* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2003): 175-189.

(٧) "Extremism".

العقلية والسيكوبائية واضطرابات الشخصية بين الإرهابيين لا يفوق ظهور مثل الاضطرابات لدى غيرهم من الناس[٨].

هكذا يرى بعض الباحثين أيضًا أن وصف البعض للإرهابيين بهذه الصفات السلبية إنما يمثل محاولة لإلصاق وصمات نفسية مرضية خاصة بهم، ويمثل أيضًا نوعًا من الابتعاد عن الطريق الصحيح، الذي قد يوصلنا إلى نوع من الفهم، الأكثر دقة، لهذه الظاهرة الخطيرة المنتشرة في العالم، الآن، وخاصة عندما نجد أن سلوك القتل الوحشي، العنيف، قد يقوم له أفراد لا ينتمون إلى مثل هذه الجماعات (أعمال القتل والعنف في المدارس الأمريكية مثلاً، حادث ملهى المثليين الأخير الذي وقع في شهر يونية ٢٠١٦م في الولايات المتحدة مثلاً).

إن مثل هؤلاء الأفراد قد تكون لديهم دوافع للقيام بالسلوك العنيف، وقد تكون دوافع فردية خاصة، ولا تتماثل مع تلك الدوافع الجماعية التي تحفزها معتقدات وقيم وأهداف واستراتيجيات خاصة ببعض هذه الجماعات. ويضاف إلى ذلك كله أن الجماعات الإرهابية نفسها تتسم بنوع كبير من السرية والحيطة والحذر؛ بحيث إنها تتجنب كثيرًا أن تقوم بتجنيد أفراد يعانون من اضطرابات نفسية؛ حتى لا يمثلوا خطرًا يفضح أسرارهم وخفاياهم في أية لحظة وعلى نحو غير متوقع[٩].

كذلك قال عالم الاقتصاد رونالد ونتروب إنه على الرغم من وجود اختلافات كبيرة بين الحركات المتطرفة، فيما يتعلق بالأيديولوجيات التي تتبناها، فإنها تشترك، جميعها، في عدد من الخصائص التي قال إنها متشابهة بين الأصوليين اليهود ومتطرفي حماس (وفقًا لمصطلحاته طبعًا)؛ وهي:

١- يقف هذان الطرفان في موقف معارض لأي حل وسط أو تسوية تتضمن الطرف الآخر؛ حيث يعتقد كل طرف منهما أن وجوده على الأرض، وفي الحياة، يعتمد في جوهره على فناء الطرف الآخر أو إبادته.

٢- يعتقد كل طرف منهما أنه على صواب تام فيما يتعلق بقضيته التي يتبناها ويدافع عنها.

٣- كلاهما يتبنى استخدام العنف لتحقيق أهدافه.

٤- يتسم كل طرف منهما بوجود نزعة قومية التوجه أو أممية الطابع.

(٨) المرجع السابق.

(٩) المرجع السابق.

٥- لا يتسامح أيٌّ منهما مع المخالفين له في الرأي أو المعارضين داخل جماعته.

٦- يقوم كل جانب منهما بـ «شيطنة الآخر» على أنحاء شتى.

بالطبع نحن نرى أن هذه المقارنة غير عادلة، فكيف نقارن بين المحتل ومن اُحتُلَّت أرضه ويقوم بالدفاع عنها.

وهناك تفسيرات أخرى قامت بالنظر إلى التطرف على أنه أشبه بالوباء أو الطاعون، هكذا قال أرنو جرين إن الافتقاد إلى الهوية لدى المتطرفين عامة هو محصلة لعملية التدمير الذاتي والكراهية الذاتية التي تقودهم نحو الشعور بالانتقام تجاه الحياة نفسها، وكذلك نحو القتل لإخوتهم من البشر على نحو قهري أو أشبه بالوسواس القهري المستمر. هكذا يمكن النظر إلى التطرف ليس بوضعه أيديولوجيا أو تكنيكًا أو استراتيجية بل على أنه مرض باثولوجي يتغذى على التحطيم للحياة. كذلك اعتقدت الدكتورة كاثلين تايلور أن الأصوليين المسلمين هم مرضى قابلون للشفاء. وهذه وِجَهٌ من النظر تتسم بالسطحية والتبسيطية الواضحة، كما تفتقر أيضًا للعمق، وتبتعد كثيرًا عن التفسير العلمي الصحيح؛ وذلك لأن التطرف لا يرتبط بدين دون غيره، هذا على الرغم من شيوع تلك السلوكيات المتطرفة لدى كثير من المسلمين الآن.

هناك من رأى أيضًا أن التطرف هو نوع من التصريف أو التنفيس الانفعالي للمشاعر العنيفة المتراكمة التي نتجت عن خبرات مستمرة متواصلة من الكبت، والشعور بعدم الأمن، والإذلال والمهانة، والاستياء والخسارة والغضب، مما يترتب عليه ظهور حالة يفترض أنها تقود الأفراد والجماعات نحو التبني لاستراتيجيات لحل الصراع؛ يعتقدون أنها تناسب التعبير عن مثل هذه الخبرات[١٠].

دوافع الالتحاق بالجماعات المتطرفة

من بين الجوانب، التي درسها الباحثون هنا، أيضًا، تلك الدوافع التي تحفز البعض للالتحاق بجماعة متطرفة أو غير متطرفة. وقد قالوا إن من أهم هذه الدوافع الحاجة إلى الانتماء الحميم Need for Affiliation والحاجة إلى القوة Need for Power، بالإضافة إلى ذلك فإن أصحاب المنحى المسمى التوجه الخاص بالعلاقات الشخصية التفاعلية الأساسية

(١٠) المرجع السابق.

Fundamental Interpersonal Relations Orientation (FIRO) قد قالوا إن الجماعات عامة يمكنها أن تشبع حاجات أساسية لدى الأفراد؛ ومنها الاحتواء Inclusion والضبط Control والعاطفة أو الدفء العاطفي. وقد أشار ليون فستنجر إلى أن الأفراد يلتحقون بالجماعات التي يعتقدون أنها ستزودهم بالمعايير التي تتفق مع معتقداتهم الخاصة وآرائهم واتجاهاتهم وتبعدهم على نحو واضح عن ما يسميه فستنجر بالتنافر المعرفي Cognitive Dissonance.

هناك علماء آخرون لم يقفوا عند الحد الخاص بالسمات والدوافع فقط، بل اهتموا أيضًا بالخلفيات الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية، وكذلك العوامل الاجتماعية الأخرى، والقدرة كذلك على اتخاذ القرارات وغيرها والتي تجعل الأفراد يلتحقون بجماعة أو بأخرى.

في دراسات أخرى تبين أن بعض الأفراد يلتحقون بالجماعات الإرهابية سعيًا إلى الوصول إلى معنى لا يجدونه في حياتهم، وإلى هدف يفتقدونه في دنياهم، وهكذا يصل بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن ذلك السلوك الإرهابي العنيف إنما يجسد المعنى الخاص لوجودهم في هذه الدنيا وفي الحياة الأخرى أيضًا.

ومن دراسات قام بها بومايستر قال إن وجود قدر مرتفع من الاعتبار للذات Self-esteem قد يؤدي إلى العنف والعدوان، وإن التهديد الذي يواجه هذا الشعور بالاعتبار للذات قد يواجه بالعنف والعدوان؛ فعندما قام ماستورز ودافنبوخ عام ٢٠٠٧م مثلاً بدراسة حول دوافع الالتحاق بمنظمة القاعدة وجدا أن هذه الدوافع عديدة ومتباينة، وأنها قد تكون اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو شخصية أو دينية أو ذلك كله معًا(١١).

لقد وجد هذان الباحثان أن من بين هذه الدوافع غياب الآباء، والشعور بالملل الشديد، واليأس وفقدان الهدف في الحياة، وتأثير الصحبة أو الرفاق، والرغبة في التواؤم أو الشعور بالتوافق، والخلافات مع الوالدين، والرغبة في الشهرة، وتأثير العائلة، ووجود مشكلات زواجية، وطلاق الوالدين، والأداء الأكاديمي الضعيف، وانخفاض مستوى المهنة، وانخفاض الدخل، والبحث عن المغامرة، والبحث عن كيان ومكانة، ووجود أحداث صدمية في الحياة كموت أحد الأقرباء أو الأبناء... إلخ، والرغبة في الانتقام، والجمود العقائدي والتصلب العقلي... إلخ(١٢).

(١١) المرجع السابق.

(١٢) Martha L. Cottam *et al., Introduction to Political Psychology*, (New York: Taylor and Francis, 2010): 269-270.

هكذا كانت هناك مجموعة من الدوافع الشخصية والدوافع الاجتماعية تقف وراء الالتحاق بتلك الجماعات المتطرفة، وهما نمطان من الدوافع لا يمكن الفصل بينهما، فسلوكيات أو مشاعر مثل إدمان الكحوليات، وتعاطي المخدرات، والاغتراب الثقافي، والاغتراب الاجتماعي، والبحث عن قضية يتعلق بها المرء، كلها من الأمور التي تكرر ذكرها في تلك الدراسات.

كذلك تبين أن الدوافع الاقتصادية قد تشتمل على الرغبة في القيام بسلوك إجرامي، والمعاناة من المشكلات المالية، والنقص في دافعية البحث عن عمل، والبطالة. وهناك دوافع سياسية أيضًا؛ ومنها هيمنة الإمبريالية الثقافية، ومساندة الدولة في مواجهة عدو محدد، على الرغم من أن هذه الدولة تكون في الواقع أحد حلفاء هذا العدو، ومن ثم ينقلب العداء والعدوان من التوجه نحو الخارج إلى التوجه نحو الداخل، ومعارضة السياسات الحكومية، وكذلك القمع الذي يمارَس ضد الهوية الخاصة بجماعة ما[١٣].

في عام ٢٠٠٤م قام ستيرن بمقابلات شخصية مع عدد من الأصوليين المسلمين واليهود والمسيحيين والسيخ والهندوس، وقال إن نتائج تلك المقابلات تشير إلى أن الناس يلتحقون بالجماعات الدينية المتطرفة، من ناحية؛ كي يحولوا أنفسهم إلى شكل وسلوك يرونه أفضل، وكذلك كي يجعلوا حياتهم أكثر بساطة، من ناحية أخرى، وأنهم يبدأون هذا السلوك عندما يشعرون على نحو واضح بالمهانة والإقصاء وسوء التقدير، ويتضايقون كثيرًا من نظرة الآخرين إليهم على أنهم ينتمون إلى مرتبة أدنى. ومن ثم فإنهم يتخذون هويات جماعية جديدة تقوم بأعمال فدائية أو استشهادية ولأغراض روحية يصفها الآخرون بأنها إرهابية. هكذا يقوم المتوجه روحانيًّا بالتركيز على الفعل، ويصبح الضعيف قويًّا والفقير غنيًّا والأناني مولعًا بالإيثار مستعدًّا أن يضحي بحياته معتقدًا أن موته سوف يفضي في النهاية إلى خير عام. هكذا يتحول الغضب إلى عقيدة أو يصبح هو الطاقة المعبرة عن تلك العقيدة، ويبدو أن أصحاب مثل هذه المعتقدات يدخلون في نوع من الغشية الممتعة Trance State لذلك ترتسم ابتسامات غامضة دائمًا موجهة، نحو مجهول ما، على وجوههم، ويكون العالم الذي يعيشون فيه منقسمًا بالنسبة إليهم قسمة ثنائية ضدية تقوم بين فسطاطين (كلمة أسامة بن لادن الشهيرة)؛ الأول مفعم بالخير والآخر زاخر بالشر، الأول خاص بالضحايا والآخر خاص بالجلادين القامعين. هكذا ينقسم العالم إلى أنا وآخر؛ عالم فيه من ليس

(١٣) المرجع السابق.

معي فهو ضدي، ومن هو ضدي ينبغي التخلص منه أو على الأقل إرهابه. وغالبًا ما يعتقد أعضاء هذه الجماعات أنهم على حق وأن قضيتهم عادلة وأن الله يقف في صفهم، كما أنهم يكونون على قناعة بأن أي فعل يقومون به، مهما كان عليه من ضرر أو إيذاء، هو فعل مبرر ومطلوب ومثاب أيضًا في الدنيا والآخرة، إنهم يعتقدون أنهم دائمًا على صواب، ليس سياسيًّا فقط، بل وأخلاقيًّا أيضًا[١٤].

الخصائص المميزة للمتطرفين

أخيرًا، وفي نهاية هذا الفصل نشير إلى عدد من الخصائص الديموجرافية والسلوكية المميزة للمتطرفين، ويقصد بالخصائص الديموجرافية تلك العوامل الاقتصادية والدينية والتعليمية، وأيضًا تلك الخصائص المرتبطة بالعمر والنوع (ذكر/ أنثى) والعرق والمهنة... إلخ. ومع ذلك، فإن هناك صعوبة في التعميم هنا فيما يتعلق بالخلفيات الديموجرافية للإرهابيين، فهم يأتون من طبقات اقتصادية اجتماعية مختلفة، وكذلك من جماعات عمرية، وخلفيات مهنية، وتعليمية، مختلفة، ومن الذكور والإناث، ومن بلاد وأمم مختلفة (كما في حالة القاعدة وداعش مثلاً). لكن قادة هذه الجماعات غالبًا ما ينتمون إلى طبقات اجتماعية متوسطة أو أعلى من المتوسط، وكذلك من مستويات تعليمية مرتفعة (طلاب الهندسة والطب في مصر مثلاً). ومع تطور هذه الجماعات يظهر قادة جدد لا يكونون بالضرورة من مثل هذه المستويات الاجتماعية أو الاقتصادية أو التعليمية[١٥].

ولا يكفي أن نعتمد على المؤشرات الديموجرافية وحدها في تحديد أسباب التحاق الأفراد بمثل هذه الجماعات، فلا بد من وضع الدوافع الشخصية والقيم، في الاعتبار، بدرجة كبيرة. هكذا قد تكون هناك اختلافات كبيرة بين الأفراد في خلفياتهم الديموجرافية، لكن يكون هناك قدر كبير من التشابه في معتقداتهم وقيمهم ودوافعهم. ومثلما قد يكون هناك عقل جمعي Group Mind وسلوك متجانس لديهم، تكون هناك علاقات تفاعلية شخصية مؤثرة أيضًا كما أشار تاجفيل[١٦].

(١٤) المرجع السابق: ٢٧١-٢٧٦.

(١٥) "Extremism".

(١٦) Cottam *et al., Introduction to Political Psychology*: 269-276.

وداخل مثل هذه الجماعات تذوب الهوية الشخصية Personal Identity داخل الهوية الجمعية Group Identity، فلا يكون هناك مجال للاختلاف أو التفرد أو الإبداع بل للقولبة والسمع والطاعة للأوامر والتعليمات التي تأتي من أعلى إلى أسفل، من المرشد أو الإمام أو القائد أو الزعيم... إلخ.

خصائص المتطرفين

لكن انتماء شخص ما لجماعة ما ليس معناه أن يقوم بإلغاء شخصيته تمامًا، فمثلما يتأثر هو بمعاييرها وقيمها وشروطها، قد يقوم هو أيضًا بالتأثير فيها من خلال طرحه لأفكار جديدة قد يعتبرها قادة هذه الجماعة مفيدة وذات تأثير إيجابي محتمل على وجودها واستمرارها. وقد حاول علماء أمثال زيمباردو تفسير عمليات أو ديناميات الالتحاق بالجماعات المتطرفة من خلال مصطلحات؛ مثل خلع الهوية، ونزع التفرد، وكبش الفداء، وغيرها كما أشرنا إلى ذلك سابقًا. لكننا نختتم هذا الفصل من خلال إشارتنا إلى تلك الخصائص المميزة للمتطرفين عامة؛ وكذلك للجماعات الهامشية؛ حيث يزداد احتمال ظهور التطرف من داخلها، وفي ضوء الدراسات التي قام بها الباحث السياسي والاجتماعي الأمريكي ليرد ويلكوكس.

فبعد قيامه بتحليل الخطاب والبروباجندا (الدعاية) الخاصة بعدة مئات من غلاة الجماعات السياسية والاجتماعية المتطرفة والهامشية، داخل الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها، عبر مدى سياسي واجتماعي واسع، حدد ليرد ويلكوكس وضمن ما يسمى بمشروع «خدع جرائم الكراهية» عددًا من الخصائص التي رأى أنها تصف هذه الجماعات أكثر من غيرها، وهذه الخصائص هي:

١- **الاغتيال المعنوي للشخصيات**: غالبًا ما يهاجم المتطرفون شخصية خصمهم وخصائصه الخَلْقِية والخُلُقِية أكثر من تركيزهم على الحقائق أو القضايا المثارة، إنهم يطرحون شكوكهم حول دوافعه وصفاته المؤهلة له، وتاريخه، وقيمه التي ينادي بها، أو يتبناها، وكذلك شخصيته وصحته النفسية ومظهره الخارجي، كما أنه غالبًا ما يغضب المتطرفون أو يردون بعنف عندما توجه مثل هذه الانتقادات إليهم.

٢- **إطلاق التسميات والألقاب**: يتسم المتطرفون بلجوئهم السريع إلى استخدام الأسماء والتوصيفات العرقية أو الدينية المنحرفة المفعمة بالكراهية المحقرة (مثل: معادٍ للسامية،

شيوعي، نازي، كاذب، متعصب، حقير، مخبر، أو واشٍ، أحمق، مجنون، قوَّاد... إلخ). ويحدث ذلك كله من أجل التحقير لخصومهم ومن أجل تحويل الانتباه بعيدًا أيضًا عن وضعهم الخاص الذي قد يتناقض مع سلوكهم هذا، فقد تقوم جماعة تدعي التدين والأخلاق باستخدام ألفاظ نابية محقرة لوصف خصومهم، ويكون إطلاق مثل هذه الألفاظ في رأي أصحابها كافيًا حتى لو استنكره الآخرون منهم.

٣- **إطلاق التعميمات**: يميل المتطرفون إلى إطلاق التعميمات حول أمور معينة خاصة بهم أو بخصومهم حتى لو توفرت حقائق أو شواهد فعلية قليلة حول ذلك. كما أنهم يميلون كذلك إلى الخلط بين مفهومي التشابه والتطابق، فالأشياء المتشابهة لا تكون بالضرورة، متطابقة؛ مثلاً الإنسان (أ) يشبه في شكله العام الإنسان (ب)، لكن ليس معنى هذا التشابه أنهما شخص واحد، لكن المتطرفين يقولون إنهما شخص واحد؛ لأنهما متشابهان في كونهما ينتميان إلى جنس البشر أو إلى جماعة بشرية دينية أو قومية معينة ويحدث ذلك بالنسبة للأشياء والأحداث وغيرها أيضًا، وعلى نحو يفتقر إلى المنطق، مما ينطوي كذلك على احتمالات كبيرة للوصول إلى استنتاجات زائفة

٤- **عدم توفر البراهين الكافية من الوصول إلى تأكيدات معينة**: يميل المتطرفون إلى أن يكونوا غامضين إلى حدٍّ كبير حول ما يكوّن أو يقيم الدليل أو البرهان لديهم، كما أنهم يقعون كثيرًا في أغاليط منطقية، فيفترضون مثلاً أن الأحداث السابقة تفسر الأحداث اللاحقة نتيجةً لعلاقةٍ ما يختلقونها في أذهانهم بين الماضي والحاضر، وعلى الرغم من الاختلافات الكبيرة بينهما. كما يميلون إلى إسقاط رغباتهم وأمانيهم الخاصة على الاستنتاجات التي يريدون الوصول إليها؛ وكذلك إلى المبالغة والتضخيم في قيمة أو دلالة المعلومات التي تؤكد معلوماتهم ويتجاهلون كذلك، أو يقللون من شأن، المعلومات التي تتناقض مع ما يعتقدون فيه. هكذا تكون المشاعر والمعتقدات هي التي تحركهم وليس الحقائق أو الوقائع أو العلم، فيكونون متوجهين من خلال ما يريدون له أن يوجد، وليس من خلال ما هو موجود فعلاً. وبذلك يهيمن على المتطرفين نوعان من التفكير؛ هما التفكير بالتمني Wishful Thinking، والتفكير المفعم بالخوف Fearful Thinking.

٥- **التبني للمعايير المزدوجة**: يميل المتطرفون عامة إلى الحكم على أنفسهم واهتماماتهم ومصالحهم، في ضوء مقاصدهم ومعتقداتهم فيعلون من شأنها من خلال التفضيل والتحبيذ لها، ويحكمون على الآخرين في ضوء أفعالهم؛ حيث ينظرون إليها بطريقة نقدية. إنهم يطلبون منك أن تقبل تأكيداتهم الخاصة المتعلقة بالإيمان والصدق، ولكنهم يطلبون منك أيضًا إثباتًا ودليلاً على معتقداتك أنت الخاصة، وقد يوافقون على شيء اليوم وينكرونه غدًا، والعكس بالعكس أيضًا.

٦- **الميل إلى النظر إلى خصومهم ومنتقديهم على أنهم أشرار بطبيعتهم**: يكون الخصوم، بالنسبة للمتطرفين، عبارة عن مجموعة من الأشخاص السيئين، اللاأخلاقيين، المفتقرين للإخلاص والأمانة، كما يرونهم وضعاء، ومفعمين بالكراهية، وقساة القلوب والسلوك، وغير ورعين أو متسمين بالتقوى. ويكون ذلك ليس لأنهم فقط لا يتفقون معهم في أقوالهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم، بل أيضًا لأنهم يرون الأمور بطريقة مختلفة ولديهم اهتمامات تعارض اهتماماتهم أو تدخل في منافسة معها.

٧- **الرؤية الثنائية الضدية للعالم**: يميل المتطرفون إلى رؤية العالم في ضوء المقولات المطلقة الخاصة بالخير والشر، مع وضد، وليست هناك من درجات وسطى بين هذين الضدين؛ ليست هناك نسبية في الأشياء أو في سلوكيات البشر. هكذا تكون كل الأمور أخلاقية الطابع، تقوم على أساس التصنيف للعالم والناس إلى صواب وخطأ، ويكون الصواب متعلقًا بهم، والخطأ خاصًّا بخصومهم، ويكون شعارهم الذي يتبنونه دائمًا هو «من ليس معي فهو ضدي».

٨- **التأييد لوجود درجة معينة من الرقابة أو الكبت لخصومهم ومنتقديهم**: قد يتجلى ذلك في القيام بحملات صحفية، أو إعلامية، أو غير ذلك؛ من أجل إبعاد خصومهم عن وسائل الإعلام. وقد يتجلى ذلك في وضع قوائم سوداء بهؤلاء الخصوم أو العزل السياسي والإعلامي لهم، وقد يتم تكوين «لوبي» يعمل على وضع قوانين أو تشريعات لمنعهم من الكتابة أو الظهور في وسائل الإعلام أو إلقاء محاضرات عامة أو التدريس في المدارس والجامعات، وكذلك مصادرة كتبهم في المدارس والجامعات، ومصادرة كتبهم أو رفعها من المكتبات أو معارض الكتب... إلخ.

هكذا يفضل المتطرفون أن تستمع فقط إليهم؛ لأنهم يشعرون بالتهديد ويتخذون مواقف دفاعية عندما يرد عليهم أحد ما أو يطرح رأيًا مخالفًا لرأيهم.

٩- **الميل إلى تعريف أنفسهم في ضوء تعريف عدوهم لنفسه، مَن يكرهونه ومَن يكرههم:** يكون المتطرفون في حالة من الحشد الانفعالي المتواصل المتوجه نحو خصومهم، الذين قد يكونون، هم أنفسهم – أي الخصوم – مجرد متطرفين أيضًا ينافسون متطرفين آخرين. ولأنهم يميلون إلي رؤية أعدائهم على أنهم أشرار وربما أقوياء، فإنهم يميلون، ربما لا شعوريًا، إلى محاكاتهم، والتبني لأساليبهم وحيلهم على نحو ما؛ وعلى سبيل المثال: تميل الجماعات المعادية للشيوعية وكذلك المعادية للنازية إلى السلوك على نحو يماثل سلوك أصحاب هذين المذهبين وطرائقهم في السير الجماعي وارتداء ملابس معينة (معارضو جماعة الكوكلكس كلان المعادية للسود في الولايات المتحدة مثلاً)، وإلى التبني لأساليب مماثلة للأساليب التي يتبعونها في التعبير عن أنفسهم، كما يتمثل ذلك مثلاً في استخدام طقوس وأغانٍ وأناشيد معينة للتعبير عن الانفعال وكذلك إظهار التنمر أو الاستئساد على الخصوم. وأيضًا الهتاف بألفاظ وأسماء معينة، بل والقيام بسلوكيات عنيفة. إن هذا قد يعنى أنه: إنك عندما تسلك مثل خصومك؛ فإنك تسلم إرادتك لهم، فتكون أنت وخصومك أشبه بالصور المرآوية التي توجد منها صورتان؛ يمنى ويسرى، لكنهما في الواقع صورتان متماثلتان وربما صورة واحدة.

١٠- **الميل إلى الجدل وطرح القضايا من خلال التخويف والترهيب والتهديد:** يميل المتطرفون إلى صياغة حججهم وقضاياهم بطريقة ما يكون من شأنها تخويف الآخرين وترهيبهم من أجل أن يقبلوا ما يطرحونه هم من مقدمات أولية أو عامة أو استنتاجات خاصة بقضاياهم، فمن لا يتفق معهم يكون «متحالفًا مع الشيطان» أو أنه يتعاون مع الأعداء، وهم يطلقون أحكامًا وتقييمات سلبية كثيرة لخصومهم؛ غالبًا ما تقوم على أساس أحكام أخلاقية، وأشبه بالمواعظ والتوجيهات. ويعمل مثل هذا النوع من الأسلوب المتلئ بالصراخ والصياح والبلاغة الخشنة على جعل خصومهم في حالة دفاع دائم عن النفس،

مما قد يقطع تسلسل أو استمرارية النقاش الموضوعي للقضية المطروحة، ويركز الاهتمام على الشكل الذي يتم من خلاله طرحها[١٧].

١١- **الاستخدام للشعارات والكلمات الطنانة والعبارات الرنانة والأكليشيهات التي توقف التفكير المنطقي:** يكون من الضروري، بالنسبة لكثير من المتطرفين، الاستخدام للعبارات المختصرة في التفكير والاستدلال من أجل التجنب، أو الروغان، من مواجهة عمليات الوعي والاستدلال المتعلقة بالحقائق والقضايا المضادة لهم، ويكون استخدام هذه العبارات والصيغ الموجزة الجاهزة من أجل تدعيم تعصبهم وتحيزاتهم، وكذلك من أجل تغيير حالة الوعي الخاصة بهم على نحو يعزز ثقتهم الزائفة، وإحساسهم الخاص كذلك بأنهم على صواب.

١٢- **الافتراض الخاص بتفوقهم أخلاقيًّا،** أو في جوانب أخرى على الآخرين؛ حيث يفترض كثير من المتطرفين، ويزعمون، تفوقهم العرقي أو الاثني على الآخرين، كما أنهم قد يزعمون أنهم شعب الله المختار أو أنهم من الصفوة والأخيار، بينما الأغيار غيرهم هم غالبًا من الأشرار... إلخ. هكذا تنشأ تلك الرغبات التي تغذي الحروب الكثيرة والتي قد تظهر خلالها أيضًا رغبات هؤلاء المتعصبين في التضحية بأنفسهم، وبالآخرين من أجل قضايا يعدها الآخرون زائفة.

١٣- **التفكير المتعلق بيوم الحساب أو الدينونة:** يتنبأ المتطرفون دائمًا بأن نتائج كارثية أو وخيمة ستكون هي المترتبة على اتباع الناس لقضيتهم الخاصة، أو عدم نصرتهم لهم، هكذا يكون لديهم نوع من التفكير يمكن تسميته «العقل المأزوم» أو العقل الواقع تحت وطأة أزمة وشيكة Crisis-mindedness. وقد تكون الأزمة التي يتوقعونها هي انتصار الشيوعية، وعودة الحركة النازية، وحدوث حرب نووية، أو براكين وزلازل وفيضانات أو انتقام الله، أو قرب أو مجيء يوم القيامة... إلخ.

وأيًّا ما كانت هذه الكارثة الوشيكة فإنهم يقولون إنها قد تصبح بعيدة لو تم اتباع تعاليم هؤلاء المتطرفين، وسرنا على هدي استبصاراتهم الخاصة وحكمتهم. هكذا تكون

(١٧) المرجع السابق.

أية نكسة أو هزيمة أو كارثة تحدث لأية دولة أو جماعة معادية، بالنسبة إليهم، بداية النهاية، ودليلاً على غضب الرب.

١٤- **الاعتقاد بأنه من الجيد أحيانًا القيام بأشياء سيئة من أجل قضية عادلة**: قد يكذب هؤلاء المتطرفون، ويشوهون الحقائق ويحرفونها، ويلوثون سمعة الآخرين من خصومهم ويفترون عليهم كذبًا، ويطعنونهم في شرفهم ويشهرون بهم، أو يقومون بعمليات رقابة وكبت لهم، أو يقومون بأعمال عنيفة قد تصل إلى الضرب والخطف والقتل أحيانًا، هكذا تكون الغاية تبرر الوسيلة، والأخلاق هي أخلاق الغابة، ويكون كل شيء مباحًا ما دامت القضية من وجهة نظرهم أخلاقية وعادلة.

كما قام الغرب بكل شيء من أجل هزيمة الفاشية أو الشيوعية أو أي عدو آخر، فقيمنا، كما قالوا، ينبغي أن تنتصر على قيمه، لأن قيمنا هي «الأعلى» وقيمه هي «الأدنى».

١٥- **التركيز على الاستجابات الانفعالية والاتفاق والتركيز على نحو أقل على المنطق والتحليل**: يكون لدى المتطرفين نوع ما من التوقير والتبجيل الضمني أو المسكوت عنه، لأهمية الدعاية أو البروباجندا، وهي التي يسمونها التربية أو التعليم أو التثقيف أو رفع مستوى الوعي. وللاستخدام الخاص للرموز دور كبير في تفكيرهم، وهم يميلون إلى استخدام هذا التفكير على نحو مجازي، يفتقر إلى الدقة. وللدعاية والرموز والشعارات دور مهم في تأجيج مشاعر أتباع هؤلاء المتطرفين، وفي توجيههم للقيام بسلوكيات عنيفة، تفتقر للعقل، نحو خصومهم.

١٦- **الحساسية العالية والتنبه**: يدرك المتطرفون وجود تلميحات عدائية، حتى في التعليقات العابرة التي يقولها الآخرون، فهم يتصورون أو يتخيلون وجود الرفض والمعارضة لهم في تلك الحالات التي قد تكون أمينة معهم، ومخلصة، لكنها لا تتفق معهم أيضًا، من جانب آخرين؛ إنهم يرون نوعًا من التميز والتعصب ضدهم في الإيماءات البريئة والسلوكيات الغامضة. وعلى الرغم من وجود عدد قليل من المتطرفين مصابون بالفعل بمرض البارانويا أو ذهان الاضطهاد العظيمة، فإن كثيرين من المتطرفين يسلكون من

خلال أسلوب بارانويدي يقوم على أساس توقع الشر والملاحظة والاضطهاد من جانب الجماعات الخارجية الأخرى، ووجود شعور بالتفوق والعظمة، وكلية القدرة من جانب أعضاء جماعتهم الداخلية.

١٧- **الاستخدام لمنطق ما ورائي من أجل تبرير معتقداتهم وأفعالهم:** إن بعض المتطرفين، خاصة هؤلاء المندمجين في طوائف ومذاهب أو في حركات دينية متطرفة؛ مثل الأصولية المسيحية والإسلامية، والمليشيات المسلحة النازية المتطرفة، وأعضاء المنظمات السرية والمتيافيزيقية وغيرها، يزعمون وجود منطق ما ورائي، أو ميتافيزيقي، يحكم معتقداتهم وأفعالهم، وأن حركتهم وقضيتهم تجسدان أوامر الله. هكذا قد تتم إعادة صياغة التطرف الصارم أو العنيف في ضوء سياق ديني ما؛ بحيث يكون له طابع شرعي أو مشروع لدى بعض الناس. والشيء الذي يدعو للدهشة هنا كما يقول ليرد هو أن كثيرًا من البشر يقاومون أو يرفضون ما يقومون به من سلوكيات عنيفة أو مدمرة بالتطرف الديني وذلك التطرف الموجه، أو لأنهم ينظرون إليه على أنه يمثل عقيدة دينية سامية، أو أنه يمثل مكانة تماثل مكانة البقرة المقدسة في بعض الديانات في ثقافتنا الحالية.

١٨- **مشكلات التحمل للغموض وفقدان اليقين:** تمثل الأيديولوجيات وأنظمة المعتقدات التي ينسب المتطرفون أنفسهم إليها، في حقيقة الأمر، وسيلة للوصول إلى نوع ما من اليقين في عالم أصبح مفتقرًا لليقين، إنها محاولة للحصول على نوع من الأمن المطلق في عالم أصبح يفتقر للأمن على نحو مطلق، وفي واقع أصبح الإنسان فيه غير قادر على التنبؤ بما قد يحدث له اليوم أو غدًا، عالم أصبح مأهولاً بالبشر المختلفين جدًّا في اهتماماتهم وأديانهم وأنواعهم... إلخ؛ حيث قد يوجد بينهم ألف عدو وخصم.

هكذا يعرض المتطرفون أمام أتباعهم أو يصورون هذا العالم بوصفه عالمًا مفعمًا بالشر والأعداء، وبما يتطلب منهم أن يقوموا بمغامرات عديدة فيه، حتى لو كانت عنيفة، أو كان ثمنها فقدانهم لأرواحهم، لكنه أيضًا عالم، كما يعتقدون يستحق أن ندافع من أجله عن قيمنا الزاخرة بالخير والأمل، وفي مواجهة عوالم أخرى يحتشد فيها الشرور واليأس، ولو فقد الإنسان حياته هنا، فإن هناك جنة ونعيمًا، وحياة ما بعد الموت، سيجد الإنسان فيها الخلود والأمن والسكينة واليقين والنعيم الدائم. فماذا يساوي هذا

العالم؟ هكذا تتم عمليات غسيل مخ الشباب وتجنيدهم في مثل هذه المنظمات المتطرفة، ويتحولون إلى إرهابيين، ويتم «دس السم في العسل»، والوصول بحالات الغموض وفقدان اليقين لديهم إلى حدها الأدنى، فالعالم أصبح بالنسبة إليهم بسيطًا وواضحًا ومحددًا، ويتم تنظيم سلوك الآخرين، خاصة الأعداء، ويتم تشكيل وعي في ضوء هذه الصورة المتخيلة وسلك أتباع الجماعات من خلال قواعد وقوانين يسنونها هم. ومن ثم يرون أنه كلما خضع الأعداء لهذه القوانين والقواعد، شعر المتطرفون أنهم أكثر أمنًا.

١٩- **الميل إلى استخدام ما يسمى الفكرة أو الرأي الجمعي**: يكون المتطرفون، ومنظماتهم، وثقافاتهم الفرعية، عرضة لنوع من التماسك الجمعي، القائم على أساس نظر هذه الجماعات إلى داخلها، وهي طريقة سماها إيرفنج جانيس في كتابه الرائع «ضحايا الرأي الجمعي» عام ١٩٧٢م. وينشأ هذا الميل لدى الجماعات، خاصة جماعات العنف، أو الصفوة الحاكمة؛ من أجل تحقيق الإجماع على قرار معين. ويشمل هذا النوع من الفكر، أو التفكير أو الرأي الذي يتجه إلى الوصول إلى الإجماع على ميل الأفراد إلى الانصياع إلى معايير الجماعة، والاتفاق معها؛ من أجل الحفاظ على تضامنها واتفاقها في الرأي. وقد يتم على حساب التشويه لملاحظات الأفراد حول الحقائق، فالرأي الفردي ينبغي له أن يتفق مع الرأي الجمعي مهما كان عليه هذا الأخير من خطأ أو تناقض مع الحقائق أو الشواهد المتعارضة معه، ومع تجاهل الملاحظات التي قد تطرح تساؤلات وشكوكًا حول الافتراضات والمعتقدات المشتركة الخاصة بهذه الجماعة.

هكذا يتحدث أعضاء الأجنحة اليمنية، أو اليسارية، مع بعضهم وإلى بعضهم، يقرأون الصحف والمقالات والكتب التي تعكس وجهات نظرهم فقط، بل وقد يشعرون بما يشبه الخوف المرضي، أو «الفوبيا» في مواجهة الدعاية الخاصة بالجانب الآخر المختلف معهم، أو عنهم، وينجم عن ذلك كله نوع من التدهور في العقلانية وفي التفكير الذي ينبغي أن يقوم بالاختبار للواقع، والأحكام الأخلاقية أيضًا. وقد تصبح الأوهام الشائعة حول الصواب، والتفوق الأخلاقي، والاضطهاد، وغيرها، سليمة وقوية، ويتم النظر كذلك إلى هؤلاء الذين يطرحون تحديات أمام هذه الأوهام من خلال شكوك ومشاعر عداوة بلا حدود.

هكذا قد يدفع الرأي الجمعي من هم عادة مفكرون بعيدو النظر إلى التفكير المبسط، ومن أمثلة ذلك ما حدث عندما قام الرئيس كنيدي بتأييد غزو خليج الخنازير عام ١٩٦١، وهو الغزو الذي انتهى بإخفاق تام، ويحدث مثل هذا التفكير الجمعي لدى الجماعات ذات الروابط وثيقة الصلة بصناع السياسة الواثقين من أنفسهم والمخلصين للقائد. وفي مثل تلك الظروف، فإن تلك الرغبة المهيمنة في الإجماع على رأي قد تطغى على تلك الحاجة للتروي العقلاني. من حقائق التاريخ المبهجة أن كنيدى قد تعلم درسًا من هذا الخطأ واتخذ تدابير تدل على التركيب التكاملي أو المرونة العقلية، تجنب بواسطتها ديناميات الرأي الجمعي عندما ثارت أزمة الصواريخ الكوبية، فبدلاً من ذلك الإجماع والاتفاق الجامد في الرأي تحول باهتمامه إلى محاولة حل المشكلة على نحو عقلاني(١٨).

٢٠- **الميل إلى شخصنة حالة العداء**: يتمنى المتطرفون غالبًا أن يلحق سوء حظ شخصي وكوارث بأعدائهم، كما أنهم يحتفلون عندما يحدث هذا مثلاً عندما يموت ناقد لهم، أو عدو، أو يعاني من مرض خطير، أو تقع له حادثة سيئة أو يقع في مشكلات قانونية شخصية، هكذا يبتهج المتطرفون ويحتفلون، ويقولون إنه يستحق ذلك، أو إن هذا من غضب الرب عليه ومن نعمته عليهم. فقد انطلقت الاحتفالات من جانب متطرفي الجناح اليميني من البيض، في الولايات المتحدة عندما تم اغتيال مارتن لوثر كنج المطالب بالحقوق المدنية والمساواة للسود مع البيض، وكذلك عندما نجا جورج ولاس من محاولة اغتيال، وكيف أصيب الجناح اليساري بغضب وضيق شديد. وفي الحالتين هناك كراهية لم يتم توجيهها نحو الأفكار فقط، بل نحو أفراد من بني البشر أيضًا. وإني أتذكر هنا كيف ابتهج بعض أعضاء جماعة الإخوان المسلمين في مصر وخارجها وغيرهم على مواقع التواصل الاجتماعي عندما سقطت الطائرة المصرية في البحر الأبيض في ١٩مايو ٢٠١٦، وعندما سقطت الطائرة الروسية في شرم الشيخ في ٣١ أكتوبر ٢٠١٦.

٢١- الشعور بأن النظام لا يكون جيدًا إلا عندما يكسبون هم أو يفوزون؛ فعلى سبيل المثال، لو خسر المتطرفون أحد الانتخابات، فإن ذلك قد حدث لأنه قد تم تزويرها ضدهم، وإذا

(١٨) Laird Wilcox, "Extremist Traits", *The Hoaxer Project Report*: 39-41, online e-book, http://www.lairdwilcox.com/ news/ hoaxerproject.html.

تحول الرأي العام ضدهم، فذلك لأنه حدثت عمليات غسيل مخ للناس، واذا خابت آمال أتباعهم، في شأن ما، فذلك لأنهم كانوا كباش الفداء في ذلك الشأن. هكذا فإن الحكم على الجودة أو السوء في رأيهم يكون قائمًا على أساس كيفية تأثير هذا النظام عليهم أو مدى مساعدته لهم في تحقيق رغباتهم ومعتقداتهم أو كونه يقوم بالوقوف ضدها[١٩].

على كل حال، يعتبر ما قدمناه في هذا الفصل مجرد محاولة لاستعراض النظريات المبكرة والحديثة حول التصلب والتوتر والإرهاب والعدوان، وغير ذلك من السلوكيات والعمليات التي تسهم، على أنحاء شتى، في تكوين ظاهرة التطرف التي يعاني منها العالم الآن. لكن الفهم العميق لهذه الظاهرة يقتضي أيضًا دراسة أعمق للجذور الأيديولوجية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية المتعلقة بهذه الظاهرة، وليس مجرد الوقوف عند دوافعها أو جذورها النفسية فقط أو الاجتماعية فقط كما فعلنا نحن الآن.

المعتقدات والاتجاهات والقيم

يعد التطرف والتصلب والجمود والتسلط من المفاهيم الأساسية في علم النفس الاجتماعي وعلى النفس السياسي أيضًا. وتنطوي هذه المفاهيم، في جوهرها، على مفاهيم فرعية أخرى مهمة؛ منها المعتقدات والاتجاهات والقيم والآراء. ونحاول فيما يلي أن نحدد المقصود من كل مصطلح من هذه المصطلحات.

فالاتجاهات والمعتقدات، والقيم استعدادات أو ميول تخدم وظيفة المحافظة على – والتعزيز كذلك – مفاهيم المرء، عن ذاته، والتي تشتق، في جانب كبير منها من المتطلبات أو المطالب الاجتماعية وتتركز حول القضايا الخاصة بالمحافظة على الكفاءة والفضيلة، وكلها فئات شاملة. والاتجاهات هي تحيزات، وعادةً ما يكون لدى الناس أسباب معينة، في مناسبات كثيرة، لإخفاء اتجاهاتهم، لكن الأسباب تكون أقل في حالة القيم؛ وذلك لأن القيم أكثر عمقًا وأكبر اتساعًا من الاتجاهات. إن القيم هي معايير أو مستويات مقننة بالنسبة لما يجب، وما هو ضروري، بينما الاتجاهات ليست كذلك. فالقيم هي محددات للاتجاهات أكثر من كونها مكونات لها، فالقيم تتعالى على الموضوعات أو الأشياء والمواقف. ويعتقد الفلاسفة ورجال الدين وعلماء الأنثروبولوجيا

(١٩) المرجع السابق.

والاجتماع والمؤرخون والمعالجون أن الأكثر أهمية هو فهم قيم الأشخاص أكثر من فهم اتجاهاتهم. كما أن المشكلات والمظلات الأخلاقية تتضمن أسئلة وقضايا متعلقة بالقيم، وكذلك تتضمن الصراعات بين الجماعات وداخل الفرد. هذه الأسئلة والقضايا المتعلقة بالقيم أكثر من التي تكون متعلقة بالاتجاهات. وتتخصص المؤسسات الاجتماعية المختلفة، وتهتم بغرس مجموعات معينة من القيم أكثر ونقلها من اهتمامها بفعل ذلك بالنسبة للاتجاهات[٢٠].

وأيًّا كان مضمونها، أو موضوعها، سواء كان دينيًّا، أو سياسيًّا، أو اجتماعيًّا، أو شخصيًّا، فإن المعتقدات هي أنساق معرفية انفعالية تقوم على أساس تشكيل المخ – على نحو معين – وتقوم أيضًا بالتنظيم والترتيب، وحسب الأولوية، للغة والتفكير، والانفعال، والسلوك. وتعمل المعتقدات على خفض الشعور بالغموض، وكذلك حالة عدم اليقين المتعلقَيْن بالأحداث الموجودة داخل حدود التحكم والتأثير الخاصة بصاحب الاعتقاد أو خارجها. حيث تمنح المعتقدات أصحابها النظام والاتجاه والغرض والمعنى، وذلك بالنسبة للعديد من الوقائع والتعقيدات الموجودة في الحياة اليومية العادية أو في الحياة المتخيلة. هكذا تُنسب المعاني للرموز، والأساطير، والمذاهب والسلوك، ويتم إضفاء القيمة على الحقائق المنتقاة والأفكار والمشاعر والأفعال، وغالبًا ما تقدم هذه التفسيرات نوعًا من التوجيه المحدد للسلوك[٢١].

أحيانا ما يتم تعزيز قيمة المعتقدات، كما لو كانت ممتلكات، أو حوازات، وبطرائق تشبه الطرائق التي يمتلك من خلالها الأفراد الأشياء، عالية القيمة. وربما يفسر مصطلح الاستحواذ أو التلبس هذا تلك المقاومة التي نلقاها – دون توقع – من هؤلاء المتمسكين بمعتقدات دينية معينة. وقد يصل الأمر بهم أحيانًا إلى تكفير الآخرين أو إهدار دمهم.

وقد تبين أن هناك مناطق معينة في المخ تكون مندمجة في النشاط الخاص بالأنماط المختلفة من المعتقدات، وأن هناك وصلات عصبية تكون متعلقة بالاستدلال الصحيح أو الزائف الخاص ببعض هذه المعتقدات. فالمعتقدات الدينية هي، في العادة، معتقدات صحيحة بالنسبة لمعتنقيها أو المؤمنين بها، وهي تحقق لأصحابها حالات مبهجة تتعلق بالتوازن الكيميائي للمخ. وقد يظهر العنف والعدوان أو القلق والضيق والانسحاب عندما تظهر سلوكيات، من آخرين، تحاول أن

(٢٠) جي ر. فيرمان وآخرون، **بيولوجيا السلوك الديني: الجذور التطورية للإيمان والدين**، ترجمة شاكر عبد الحميد (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥): ٢٥٤.

(٢١) المرجع السابق: ٢٥٥.

تُحدِث اختلالاً في هذا الاتزان الداخلي من خلال العرض لأفكار تناقض ما يعتقده المرء أو محاولة التشكيك فيها أو السلوك على نحو يتسم بالعداء ضدها. وقد تتواصل سلوكيات العنف هذه على النحو الذي نعرفه ونشاهده كل يوم(٢٢).

تقوم المعتقدات الدينية بتلطيف حالة المخ وجعل الإنسان يشعر أكثر بالرضا والسكينة والهدوء؛ حيث تضع المعتقدات حدودًا للمجهول وتخطط للمستقبل، وهي تجيب عن كثير من الأسئلة التي تنشأ داخل المخ والتي لا توجد إجابات محددة عنها. وتعمل المعتقدات – على نحو ملحوظ – على خفض حالات الشعور بالغموض والحيرة وفقدان اليقين المتعلقة بأمور الحياة والموت، والروح، والخلود. كما تقدم تصورًا خاصًّا بالحياة بعد الموت بوصفها ترياقًا مضادًّا لذلك المشهد البارد الخاص بالعدم، الذي يعقب الحياة. وهذا أمر لا يستطيع معظم البشر أن يتحمله، ومن ثم يتحول الزمن القصير الموجز المتاح والمميز لحياتنا، ويمتد فجأة فيتحول إلى زمن لا نهاية له، زمن يخلو من الضغوط ويصاحبه الخلود(٢٣).

يعرف روكيتش المعتقد بأنه «أي توقع يتعلق بوجود ما، أو كائن ما، أو تقييم معين، أو عادات قديمة معينة، أو قضايا آمرية ناهية، معينة، أو وقائع سببية معينة». أما الاتجاه فهو تنظيم أكثر استقرارًا للمعتقدات الوجودية التقييمية السببية، وهو عادة ما ينتظم حول موضوع أو موقف معين، ويجعل المرء يميل إلى الاستجابة بطريقة تفضيلية لهذا الموضوع أو الموقف، وبطريقة تمييزية لكل الأفراد الذين يدركهم المرء على أنهم يختلفون عنه في اتجاهاتهم نحو الموضوعات والمواقف، وبطريقة تمييزية أو فارقة أيضًا بالنسبة لمظاهر الضبط أو الضغط الاجتماعي التي يقصد منها إجبار الفرد على التعبير، بطريقة معينة، فيما يتعلق بموضوعات ومواقف اجتماعية معينة. وكل هذه الاستجابات التفضيلية، والتمييزية، أو الفارقة هي طرق أو أدوات لتحقيق القيم المنظمة اجتماعيًّا التي تشترك مع المعتقدات الآمرية – الناهية Prescriptive–proscriptive الخاصة بالأشكال المثالية للسلوك وحالات الوجود التي يجب أن يسعى نحوها، من خلال النشاطات التي تحدث خلال المواقف وعبر الموضوعات. وتكون وهذه الاستجابات للموضوعات والمواقف والأشخاص الذين يتفقون أو يختلفون معنا وكذلك لمظاهر الضبط الاجتماعي، كلها، متآلفة ومنسجمة مع بعضها.

(٢٢) المرجع السابق.
(٢٣) المرجع السابق: ٢٥٦.

وهي متآلفة أيضًا؛ لأنها تُوجه من خلال التنظيم الهيراركي للنسق المعرفي المنظم الخاص بمعتقدات الفرد واتجاهاته وقيمه. وهذا النسق المعرفي سوف يظل ثابتًا ومستقرًّا في المدى أو الحدود التي تسمح ببقاء وتعضيد مفاهيم المرء الاجتماعية عن نفسه، والتي عادةً ما تتعلق بالكفاءة Competencel، والفضيلة أو الأخلاق Morality[٢٤].

وقد قدم ميلتون روكيتش نظرية تتعلق بما أسماه «نسق المعتقدات»، وتقوم على أساس مفهوم الجمود Dogmatism في علاقته بمفهومي تفتح الذهن Open-minded وانغلاقه Closed-minded. وتمتد اتساق المعتقدات هذه عبر متصل ثنائي القطب يقع الأشخاص «منغلقو الذهن» عند أحد قطبيه، ويقع «متفتحو الذهن» عند القطب الآخر. وبين هاتين الفئتين المتطرفتين يوجد مختلف الأشخاص بدرجاتهم المتنوعة من الانغلاق والتفتح قربًا أو بعدًا عن هذين القطبين. ولا ترتبط هذه المفاهيم بأي نسق معين من المعتقدات، لكنها تنطبق على الأنساق كلها عامة، ويكون التركيز فيها على بناء المعتقدات أو شكلها أكثر من مضمونها، فهي أشبه بالأسلوب المعرفي، أي أشبه بطريقة معينة في اكتساب المعلومات الخاصة بموضوع معين، أو ظاهرة معينة، وكذلك معالجة هذه المعلومات، والتعبير عنها بأشكال محددة[٢٥].

ويشير روكيتش إلى أننا ينبغي أن نضع في اعتبارنا جوانب ثلاثة مهمة عند تناولنا لموضوع أنساق المعتقدات؛ وهي الناحية المعرفية، والأيديولوجيا، والجوانب الانفعالية من الشخصية. والانفعال له جانب معرفي، كما أن أي جانب معرفي يصاحبه انفعال، وأن الأيديولوجيا التي يتبناها المرء من خلال معتقدات معينة سوف تظهر في تفكيره وانفعالاته وسلوكه، في ضوء القبول أو الرفض للأفكار، أو الأشخاص، أو السلطات. ويتجلى ذلك في صور سلوكية؛ مثل التعصب والنفور والعدوان والتطرف وغيرها. ويعتقد روكيتش أن التعصب الخاص بالمعتقدات الظاهرة هو الأكثر عمومية، بينما يكون التعصب العنصري أو العرفي ظاهرة نوعية[٢٦].

المعتقد إذن هو «تنظيم معين لتصورات المرء، وأفكاره، ومعلوماته، حول شيء محدد، كما يشتمل على العمليات المعرفية، والرأي، والإيمان». وهكذا تكون المعتقدات أشبه بالتمثيل المعرفي للاتجاهات، وتكون القيم أشبه بالتجسيم أو التمثيل الوجداني لها. وبذلك يكون لدينا هنا

(٢٤) Rokeach, "Some Unresolved Issues in the Theories of Beliefs": 261-304.

(٢٥) المرجع السابق.

(٢٦) المرجع السابق.

محركان، أو دافعان داخليان يؤثران على هذه الاتجاهات؛ هما المعتقدات المعرفية (عقلانية كانت أم غير عقلانية) والقيم الوجدانية (والتي ترتبط بموضوعات مثل الحلال والحرام والتفضيل كذلك لأعمال فنية معينة وعدم التفضيل لغيرها ولسلوكيات معينة وأشكال معينة في الحديث وارتداء الملابس... إلخ). ولا يمكن الفصل، عمليًّا، بين التأثيرات المختلفة المتداخلة للمعتقدات والقيم على الاتجاهات ومن ثَمَّ على السلوك.

يقسم العلماء المعتقدات إلى فئتين؛ تلك التي يمكن التحقق منها وتلك التي لا يمكن التحقق منها. والتي يمكن التحقق منها هي تلك المعتقدات التي ترتبط بالعالم الطبيعي والأيديولوجيات السياسية... إلخ. أما تلك التي لا يمكن التحقق منها فهي تلك المعتقدات الدينية والميتافيزيقية بشكل عام. ولو أنه يصعب في واقع الأمر الفصل التام بين هذين النوعين من المعتقدات؛ فهما يتداخلان في الواقع على أنحاء شتى. وفي ضوء ذلك كله تم التمييز بين ثلاثة أنواع من المعتقدات؛ هي:

١- **المعتقدات الوصفية**: التي تتعلق بالصحة أو الزيف، والصواب أو الخطأ، وبالمعنى المحدد، ومنها ذلك الاعتقاد الذي هو أشبه بفكرة أو معلومة شبه راسخة بأن الشمس تشرق من الشرق.

٢- **المعتقدات التقويمية**: التي تتعلق بالحسن أو الجمال، والقبح أو النفور؛ كالاعتقاد بأن طعامًا معينًا مقبولاً ومفضلاً وطعامًا آخر ليس كذلك، أو أن عملاً فنيًّا معينًا له خصائص تجعله جميلاً أو أنه ليس كذلك.

٣- **المعتقدات الآمرية – الناهية**: والتي تتعلق بضرورة القيام بأمر معين، أو ضرورة عدم القيام به، وعلى نحو إلزامي، لا يملك المرء حياله أن يقبل أو يرفض وفقًا لرأيه الخاص. وهنا نكون أقرب إلى المعتقدات الاجتماعية والدينية؛ مثل احترام الصغير للكبير – طاعة الوالدين – الابتعاد عن سلوكيات معينة محرمة... إلخ[٢٧].

وبالطبع قد يصعب الفصل بين الفئتين الثانية والثالثة من فئات المعتقدات هذه. أما الفئة الأولى؛ فربما كانت هي الفئة الأقرب إلى فئة الأفكار العامة أو العلمية التي يعتقد المرء فيها ويصدقها. لكنها قد تكون قريبة، مع ذلك، من الفئتين الثانية والثالثة من المعتقدات (التقويمية

(٢٧) المرجع السابق.

والآمرية والناهية)، خاصة عندما يدخلها بعضنا ضمن نطاق هاتين الفئتين؛ مثلاً أن يظل بعض الناس يعتقدون أن الأرض مسطحة وليست كروية، وأنها لا تدور حول الشمس ولأسباب تتعلق بمعتقداتهم الدينية الخاصة.

الاتجاهات

يعرف الاتجاه على أنه مجموعة من الاستجابات المتسقة، فيما بينها، سواء في اتجاه القبول، أو في اتجاه الرفض، لموضوع نفسي اجتماعي معين يدور حوله الجدل أو الخلاف. هكذا يتجلى الاتجاه في المواقف التي تتطلب من المرء تحديدًا اختياراته الشخصية أو الاجتماعية أو الثقافية، قبولاً أو رفضًا. أما الأيديولوجيا، وفي ضوء تعريف ميلتون روكيتش لها، فهي إطار شامل تنتظم من خلاله معتقدات الفرد واتجاهاته، أو هي أشبه بالفلسفة التي يتبناها المرء في الحياة. هكذا يمكننا القول إن الأيديولوجيا هي فلسفة المرء العامة في الحياة، وحيث توجد المعتقدات في أعلى السلم الهرمي، الخاص بهذه الأيديولوجيا، توجد بعدها – وفي مرتبة أقل منها – القيم التي تعمل على توجيه اتجاهات المرء، في اتجاه القبول أو الرفض لموضوعات خلافية معينة. ويتجلى هذا القبول أو الرفض، من خلال تلك الآراء التي يعبر من خلالها عن اتجاهاته سلبًا أو إيجابًا. كما تعبر هذه الآراء أيضًا عن تفضيلاته الأيديولوجية والسياسية والدينية، والتي يمكن تعريفها بأنها تفضيلات ثابتة طويلة الأمد لأنماط معينة من التفكير والانفعال والسلوك[٢٨].

تتوفر لدى الماركسيين اتجاهات عديدة تتكون من معتقدات وجودية حول طبيعة المجتمعات الرأسمالية، ومعتقدات سببية تفسر لماذا تظهر الفروق بين الطبقات الاجتماعية، ولماذا تتصرف هذه الطبقات بطرق مختلفة. كما تتوفر لديهم معتقدات تقييمية تمثل ما يعتقدونه أحسن، وما يعتقدونه أسوأ، ومعتقدات آمرية ناهية تكرس جهدها لما يجب فعله. ولا يتفق أيضًا الاشتراكية وأنصار الرأسمالية وأنصار الفاشية في مثل هذه الآراء بل يختلف كلٌّ منهم مع الآخر. ويتمسك كلٌّ منهم بتنظيمات بديلة للمعتقدات الوجودية السببية التقييمية الآمرية الناهية[٢٩].

(٢٨) المرجع السابق.
(٢٩) المرجع السابق.

القيـــــــم

يرى روكيتش أن القيمة معتقد من النوع الآمر الناهي ويعرفها بأنه «معتقد ثابت نسبيًّا، ويحمل في فحواه تفضيلاً شخصيًّا، أو اجتماعيًّا، لغاية من غايات الوجود، أو لشكل من أشكال السلوك الموصلة إلى هذه الغاية». وتحتوي القيم على ثلاثة عناصر، مثلها مثل المعتقدات؛ فهي معرفية؛ من حيث الوعي بما هو جدير بالرغبة أو التفضيل، ووجدانية؛ من حيث شعور المرء، وجدانيًّا، حيالها إيجابيًّا أو سلبيًّا وهي سلوكية؛ من حيث وقوفها كمرشد أو معيار للسلوك توجهه هنا أو هناك[٣٠].

وقد أشار جيرمي بنتام (١٧٤٨ – ١٨٣٢م) إلى أن القيم الثقافية، وكذلك الأفعال الأدائية أمور يتم تعلمها من خلال التدعيم للاستجابات لدى الأفراد منذ طفولتهم أو من خلال الكف أو المنع لها. وفي ضوء ذلك المبدأ الذي أسماه مبدأ النفعية Utility Principle، تعد النفعية خاصية لأي موضوع تنتج عنه الفائدة والتميز والمتعة، والشعور بحسن الحال أو السعادة، وينتج عنه أيضًا المنع للألم والشر أو التعاسة. وقد ذكر بنتام أن الينابيع التي تفجر الأفعال لدى الناس أو تحركها عددها أربعة عشر ينبوعًا؛ وهي المتعة عامة، والرغبة الجنسية، والثروة، والسلطة، والفضول، والصداقة، والدين، والتعاطف، والمقت، والكراهية، والنفور، والمصلحة الشخصية، والآلام الخاصة بالعمل، والمعاناة الجسدية.

كذلك قام نيتشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠م) بتفسير الطابع الديناميِ للتاريخ باعتباره نوعًا من الخلق المستمر للقيم، وكذلك المحو لها، وذلك لأن البشر يخلقون (يصنعون) القيم التي تعمل على الحفاظ على الثقافات وإن على نحو مؤقت، وحتى وصولاً إلى تلك اللحظة – التي يتم استبدال هذه القيم بقيم أخرى تعمل على ظهور أو انبعاث ثقافة إنسانية جديدة.

كذلك فإنه من خلال فحص علماء الأنثروبولوجيا للأنماط الثقافية وأساليب الحياة حوَّل كلايد كلوكهون التفكير الأنثروبولوجي بعيدًا عن تلك النظرة النسبية للثقافات، ومن ثم فإنه قد كان على قناعة بأنه، وعلى الرغم من تلك الفروق الواسعة بين الثقافات في العادات والتقاليد والأعراف، فإن هناك بعض القيم الإنسانية الأساسية، المشتركة بين كل تلك الثقافات المتنوعة عبر العالم. ووصف دوركايم «الوعي الجمعي» بأنه نسق من القيم والمعتقدات التي يتم التمسك بها على

(٣٠) عبد اللطيف محمد خليفة، **ارتقاء القيم: دراسة نفسية**، سلسلة عالم المعرفة ١٦٠ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢): ٤٠.

نحو مشترك من جانب أعضاء المجتمع؛ حيث تحدد ما ينبغي أن تكون عليه العلاقات المتبادلة بينهم بداخله.

بعد ذلك اعتبر عالم الاجتماع بيكر القيم أمرًا ضروريًّا لا غنى عنه في تحليل الأحكام الخاصة بالصواب والخطأ، الخير والشر، الصالح والطالح، التفوق والدونية، النافع وغير النافع. كما اعتبره ضروريًّا في تحديد الوسائل والغايات الخاصة بالسلوك الإنساني. وقد اتفق معه بلاو في ذلك، فقال إن المحدد الأساسي للسلوك الاجتماعي هو نسق القيم الراسخ في المجتمع؛ فالقيم هي التي تحدد الهوية الجماعية، والمعايير المشتركة للأخلاق والإنجاز، ومعايير الشرعية الخاصة بالسلطة الحاكمة.

في كتاب أنماط الرجال Types of Men اعتقد عالم النفس الإنجليزي سبرانجر أن القيم تنعكس في السلوك. واقترح نسقًا تصنيفيًّا لأنماط القيم يحتوي على ست خصائص أساسية مميزة للشخصيات الإنسانية؛ وهي:

النمط النظري – النمط الاقتصادي – النمط الجمالي – النمط الاجتماعي – النمط السياسي – النمط الديني.

وقد أشار سبرانجر إلى أن الشخصية الإنسانية لا تعتمد – على نحو استثنائي – على قيمة واحدة فقط من القيم الموجهة للسلوك، فالقيم الستة تكون موجودة لدينا تمارس تأثيرها على سلوكنا، ولكن بدرجات مختلفة؛ حيث تكون هناك قيمة واحدة، هي المهينة على ما عداها على الشخصية في فترة معينة قد تطول وقد تقصر. بينما يكون تأثير القيم الخمسة الأخرى موجودًا، ولكن بدرجات مختلفة ومتفاوتة أيضًا. وعلى سبيل المثال فإن هيمنة القيمة – أو القيم – الدينية على شخص ما أو جماعة ما، ليس معناه استبعاد القيمة الاقتصادية، أو السياسية، أو الاجتماعية، أو الجمالية الأخرى، بل جعلها في خدمة تلك القيمة العليا التي تم اختيارها أو تحديدها، هكذا يوظف النشاط الاقتصادي الخاص في خدمة القيمة الدينية العامة. ويكون الفعل السياسي والأنشطة الاجتماعية موجهة في اتجاه تعزيز هذه القيمة، كما تتم الاختيارات والتفضيلات الفنية والجمالية على نحو يتسق مع هذه القيمة، ولا يتناقض معها. والأمر صحيح أيضًا في حالة هيمنة القيمة الاقتصادية أو السياسية... إلخ مع ملاحظة أن العلاقات بين هذه القيم علاقة لا تشير دائمًا في اتجاه الاتفاق والتطابق لدى أحد الأفراد أو الجماعات، بل قد يحدث صراعات بينها على أنحاء شتى؛ كأن يحدث صراع مثلاً بين القيم الدينية والقيم السياسية أو الاجتماعية أو الجمالية... إلخ.

وهناك علاقة قوية بين القيم والاتجاهات، فوفقًا لما قاله ميلتون روكيتش، يمتلك الراشدون آلاف الاتجاهات المتعلقة بالأشياء والمواقف الخاصة، لكنهم يمتلكون فقط عددًا قليلاً نسبيًّا من القيم الغائية Terminal Values والقيم الأدائية أو الوسيلية Instrumental Values .

ويعني ما سبق أن هناك تنظيمًا هيراركيًّا (متدرجًا) للاتجاهات والقيم، فيه تكون الاتجاهات أكثر عددًا والقيم أقل، لكنها قلة تعكس قدرتها على التلخيص والإيجاز (الدمج بين أكبر عدد من الاتجاهات). كذلك فإن هذه البنية الهيراركية بنية منظمة في ضوء المركزي في مقابل الطرفي أو الهامشي من هذه الاتجاهات والقيم. وهي قيم واتجاهات متسقة داخليًّا؛ بحيث أن أي تغيير في جانب واحد من جوانب نسق القيمة – الاتجاه سوف يؤثر على الجوانب الأخرى. أي بروز مركزي في هذا النسق سوف يقاوم التغيير بدرجة كبيرة، كما أن خضوع أحد جوانبها للتغير سوف يؤثر كثيرًا على الجوانب الأخرى(٣١).

ووفقًا لروكيتش أيضًا، فإن القيمة تستمد (أو تشتق) من الثقافة؛ حيث تعمل على الحفاظ على البنية الثقافية المرئية وغير المرئية وعلى التنظيم لها أيضًا، مما يعطي هذه البنية أو يضفي عليها نوعًا من المعنى والاستقرار والتماسك، وترتبط القيم بالمعتقدات. فعندما نقول، مثلاً، إن شخصًا لديه قيمة ما، فذلك معناه أن لديه معتقدًا ثابتًا نسبيًّا، فحواه أن شكلاً معينًا من أشكال السلوك، أو غاية ما من غايات الوجود، يجسدان القيم المفضلة شخصيًّا واجتماعيًّا مقارنة ببدائل أخرى من السلوك أو أهداف أخرى للحياة أو الوجود(٣٢).

ترتبط القيم الوسيلية بأشكال السلوك والقيم بالأهداف النهائية أو العليا للوجود الإنساني. هكذا تشير القيم الوسيلية إلى تلك الأشكال المفضلة من السلوك التي تشتمل على قيم إيجابية؛ مثل الأمانة، والإخلاص، والطموح، والاستغلال، والطاعة، والنزعة الخيالية، والتنافس، وقيم سلبية؛ مثل النفاق والسلبية... إلخ.

أما القيم الغائية فتشير إلى الأهداف الخاصة بحياة شخص أو جماعة يريد شخص/ جماعة إنجازها عبر حياته/ حياتها، ومن خلال سلوكه/ سلوكياتها؛ إنها تشير إلى قدر الإنسان ومصيره، بينما تشير القيم الوسيلية إلى منهجه أو أساليبه في الوصول إلى القيم الغائية. ينطبق هذا الأمر على

(٣١) Josef Clawson and Donald Vinson, "Human Values: A Historical and Interdisciplinary Analysis", Advances in Consumer Research 5 (1978): 396-402.

(٣٢) Rokeach, "Some Unresolved Issues in the Theories of Beliefs": 261-304.

الأفراد والجماعات والمؤسسات والدول... إلخ. من القيم الغائية السعادة، واحترام الذات، والحرية، والأمن الأسري، والانسجام أو التوافق الداخلي، والتميز الوظيفي أو المهني... إلخ، وتنتظم القيم جميعها في نسق عام يسمى القيم، وهو مجموعة من القيم المتسقة فيما بينها والتي تستخدم من أجل أهداف أخلاقية أو أيديولوجية أو غير ذلك من الأهداف(٣٣).

القيم والدوافع

ترتبط القيم بالدوافع، فالقيمة موضوع يسعى إليه المرء – أو الجماعة – ويهتم به؛ نظرًا لما يمثله له من قيمة مرتفعة، فتكون الأشياء ذات القيمة العالية محركة لدافعيتنا أكثر من تلك الأشياء ذات القيمة الأقل. هكذا يكون الطالب الذي يريد أن يحصل مثلاً على تقدير (أ) في الامتحانات النهائية، في كليته، في حالة دافعية أعلى تتجلى في قيمة النجاح العليا (أ) مقارنةً بذلك من ذلك الطالب الذي يعطي قيمة أقل للنجاح، ويريد فقط أن يحصل فقط على تقدير (ج) مثلاً. ويمكن تعميم هذا المثال أيضًا على النجاح في العمل والتجارة والوظائف والألعاب الرياضية والأنشطة والممارسات السياسية وغيرها، مع وعينا، بالطبع، أن الدافعية، وحدها، ليست كافية في الأحوال كافة؛ حيث توجد أيضًا القدرات والإمكانات والظروف المواتية، أو غير المواتية، والإعزاءات السببية وأنواع الدافعية الأخرى، وغير ذلك من الأمور التي سنشير إليها توًّا.

الدافعية هي القوة المحركة لأفعال الأفراد والجماعات، وتتباين هذه الأفعال أو الأنشطة بتنوع دوافع هؤلاء الأفراد، أو الجماعات، وتنوع قيمهم ومعتقداتهم وأيديولوجياتهم أيضًا، لكن هذه الدوافع، على تنوعها، تنحو أو تتوجه، غالبًا، نحو تحقيق هدف، أو مجموعة من الأهداف المعينة. وقد تكون هذه الأهداف مادية، كالحصول على المال أو المسكن أو الأرض... إلخ. وقد تكون معنوية متمثلة في المكانة والشهرة والنجاح، أو في أهداف سياسية؛ مثل رفض الظلم والفساد والاستبداد... إلخ. قد تكون الدوافع متعلقة بهذه الحياة الدنيا، أو تكون متعلقة بالعالم الآخر وبحياة ما بعد الموت. وقد تكون الدوافع متعلقة بهذين العالمين أيضًا (عالم الحياة الدنيا وعالم الآخرة). هكذا تكون الدافعية الدينية، مثلاً، بفعل القيم الدينية (وجدانية الطابع) والمعتقدات الدينية (عقلانية

(٣٣) Clawson and Vinson, "Human Values": 396-402.

أو لا عقلانية الطابع)، وكذلك السلوكيات المعبرة عن هذه القيم والمعتقدات، والتي قد تأخذ شكل اتجاهات وآراء وسلوكيات محددة.

هكذا تكون الدوافع هي المحركة، أو بالأحرى، هي الطاقة المحركة لها التي تقف وراءها قيم ومعتقدات وأيديولوجيات ورغبات أو حاجات توجهها وتحفزها، في هذه الأحوال كلها هناك رغبة ما في الإنجاز، وهناك دافعية ما للإنجاز، قد ترتفع في مستواها أو تشتد في قوتها، وقد تنخفض أو تخفت، وهناك أيضًا دافعية أو حاجة إلى القوة.

الحاجة إلى القوة

تعكس بحوث دافع القوة ما شدَّدَت عليه بحوث الإنجاز أيضًا، فالصور العقلية المرتبطة بالقوة ترتبط عادة بالصور العقلية الخاصة بالإنجاز. هكذا قام ديفيد ونتر في كتابه المسمى دافع القوة The Power Motive عام ١٩٧٣م بتحليل محتوى خطابات الولاية الأمريكية (التي يلقيها رؤساء الولايات المتحدة عند توليهم للرئاسة) التي ألقاها اثنا عشر رئيسًا بدءًا من ثيودور روزفلت إلى ريتشارد نيكسون، وقام بتتبع الصور العقلية الخاصة بالقوة والإنجاز لديهم. فوجد أن الرئيسين كيندي ورزفلت قد أظهرا أعلى درجة من الحاجة إلى القوة، بينما كانت أعلى حاجات الإنجاز من نصيب نيكسون وجونسون. وحصل الرئيس تافت على أقل الدرجات على هذين البعدين. وهكذا فإنه في حالة الرؤساء، وليس بالضرورة في حالة الناس عامة، هناك ارتباط إيجابي قوي بين الحاجة إلى الإنجاز والحاجة إلى القوة.

وكما أشار ونتر نفسه فإن هذا الارتباط ربما يعكس ذلك الاستقطاب الثنائي الذي يتميز به المجتمع الأمريكي؛ إذ يتبع الرؤساء الديمقراطيون فلسفة سياسية حزبية نشطة تنادي بالتوسع في السيطرة وتغيير المجتمع، بينما يفضل الرؤساء الجمهوريون سياسة عدم التسرع. ويميل الرؤساء ذوو الحاجات القوية إلى القوة والإنجاز إلى أن يكونوا من رجال السلطة التنفيذية الأقوياء، أما الرؤساء الذين يفتقرون لهذه الحاجات فيكونون من رجال السلطة التنفيذية الضعفاء. وقد وجد ونتر كذلك أن الرؤساء الذين تتحكم فيهم الحاجة إلى القوة، أكثر من غيرهم، هم الرؤساء الذين يزداد احتمال إدخالهم للولايات المتحدة في حرب ما[٣٤].

(٣٤) دين كيث سايمنتن، **العبقرية والإبداع والقيادة: دراسات في القياس التاريخي**، ترجمة شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة ١٧٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣): ٨٩.

دوافع الإنجاز والقوة والانتماء

وما علاقة حديثنا هذا عن دافعي الإنجاز والقوة بجوهر موضعنا الحالي المتعلق بالتطرف والإرهاب؟ ربما كانت الإجابة عن هذا التساؤل كامنة في فهمنا لتلك الأمور المتعلقة بآليات الصراع والتنافس والسيطرة، وهي أمور ترتبط بطبيعة الحياة الإنسانية، ونوضحها من خلال حديثنا عن العلاقة بين دوافع الإنجاز والقوة والانتماء.

كان ديفيد ماكيلاند عالم النفس الأمريكي (١٩١٧–١٩٩٨م) قد اقترح نظرية حول الدوافع، حاول أن يميز خلالها بين ثلاثة أنماط؛ منها رأي أنها تؤثر على الفروق بين أداءات الأفراد، داخل مواقع العمل، وقال إن هذه الدوافع الأساسية الثلاثة هي دافعية الإنجاز، ودافعية الانتماء Affiliation (شعور المرء بالحاجة إلى الارتباط والانتماء داخل جماعة اجتماعية معينة)، ودافعية القوة. وقد أشار أيضًا إلى أن الأفراد الذين يتسمون بدافعية إنجاز مرتفعة يميلون إلى اختيار المعارك، التي يدخلون فيها، على نحو متسم بالحكمة، وهم كذلك لا يندفعون أو يغامرون، حين يتبين لهم أن تحقيق الهدف أمر مستحيل، لكنهم لا يختارون أيضًا الأهداف السهلة، بل يختارون الأهداف المتوسطة، أي التي تقع في مرحلة وسطى بين السهولة والصعوبة، وهم يتحركون، خلال ذلك، ليس بحثًا عن المكافآت والجوائز الخارجية فقط، بل لأنهم يستمتعون، أو يشعرون بالرضا أيضًا خلال قيامهم بذلك.

هكذا يبدو لنا أن ماكيلاند كما لو كان قد انتبه، على نحو مبكر، أو أرهص، بما قدمه عالم النفس ديسي الذي ميز بين دافعية داخلية المنشأ Intrinsic Motivation ودافعية خارجية المنشأ Extrinsic Motivation ونوضح ذلك بمثال بسيط: إن صياد السمك الجائع، أو الذي يريد بعض المال كي يشتري مستلزماته الضرورية، قد يذهب لصيد السمك من أجل بعض الأهداف الخارجية، أي بيعه والحصول على مال أو تناوله كطعام (دافعية خارجية المنشأ)، أما بعد ذلك، وفي مواقف أخرى، فقد يجد هذا الصياد نفسه مستمتعًا بعملية الصيد نفسها (دافعية داخلية المنشأ) وبشكل يفوق رغبته في أكل السمك أو بيعه (دافعية خارجية). والأمر نفسه صحيح بالنسبة للفنان، فقد يريد أن يرسم لوحة مثلاً؛ كي يبيعها ويحصل على مال يستعين به على الحياة (دافعية خارجية)، أو أنه يكون بالفعل مستمتعًا بعملية الرسم ذاتها دون غاية خارجها (دافعية داخلية).

وما العلاقة بين هذا الأمر وموضوعنا الحالي عن التطرف؟ في واقع الأمر يعد التطرف مظهرًا سلوكيًّا يلخص ما لدى الأفراد أو الجماعات من أفكار أو رؤى أو أيديولوجيا حول العالم وحول

البشر، وكذلك حول ما ينبغي أن تكون عليه الأمور في هذا العالم وما ينبغي أن يكون عليه البشر، وما ينبغي ألا يكونوا عليه أيضًا. ومن ثم يكون التطرف أشبه بنسق عام من القيم والمعتقدات والدوافع والآراء والسلوكيات التي تكشف النزعة المحددة في النظر إلى العالم، وإلى الآخرين. وفي واقع الأمر أيضًا، تعد الدافعية الدينية أحد الدوافع الأساسية التي لم يهتم علماء النفس كثيرًا بدراستها.

كما أنها دافعية يمكن النظر إليها على أنها تشتمل على نوعين من الدوافع؛ هما خارجية المنشأ وداخلية المنشأ، أما خارجية المنشأ فتتمثل في القيام بالواجبات الدينية من أجل الحصول على أموال، أو شهرة، أو قبول في هذه الحياة الدنيا، والابتعاد، كذلك، عن النار في الآخرة. تظهر دافعية دينية خارجية في بعض الحالات كما يفعل بعض أساتذة الدراسات الدينية وبعض الدعاة ومقدمي البرامج التليفزيونية الدينية وغيرهم الآن. وقد تمثل هذه الدافعية نوعًا من التمرد ضد الظلم والاستبداد (دافعية خارجية أيضًا). وقد تكون هذه الدافعية أيضًا دافعية خارجية آخروية أو ميتافيزيقية (دخول الجنة والبعد عن النار). وقد تكون الدوافع الدينية داخلية المنشأ كذلك وتتجلى فيما قد يوفره الالتزام الديني من شعور بالرضا والسكينة والقناعة والاطمئنان، وغير ذلك من المشاعر الجميلة والمحببة. فمتى تتحول مثل هذه المشاعر إلى تطرف في السلوك؟ يحدث ذلك عندما يدرك بعض الناس التفاوت بين ما يفكرون فيه، ويعتقدونه، وما يجدونه أمامهم، في الواقع والحياة. كذلك تتحول هذه المشاعر إلى ذلك عندما تتداخل هذه الدوافع الدينية داخلية المنشأ، وتتراجع، لتحل محلها الدوافع الدينية خارجية المنشأ، وبخاصة تلك المرتبطة بأمور الدنيا والسلطة والصراع والرغبة في الاستحواذ. لكن هذا لا يكفي في ذاته، فهذه الدوافع الخارجية الدنيوية سرعان ما تختلط بالدوافع الخارجية الآخروية، فيتم وصم الآخرين بالفسق والمروق والكفر والإلحاد، في نوع من التصنيف العقائدي الجامد الذي يحول الآخر إلى عدو ينبغي الخلاص منه، عدو قد تجرد من الإنسانية وتحالف مع الشيطان، ومن ثم ينبغي التضحية به؛ كي تتحقق الدوافع التي نبغيها؛ مثل الفوز في الدنيا والآخرة، وماذا عن قول الرسول الكريم: «الكلمة الطيبة صدقة» لا أحد يتذكر ذلك في مواقف القتل.

هكذا تتحول الدوافع الداخلية إلى دوافع خارجية، وهكذا تتحول دافعية الإنجاز المتوسطة إلى دافعية إنجاز مرتفعة لا تعترف بالمستحيلات، أي أنها تتحول، هنا، من مجرد كونها دافعية إنجاز

متحكم فيها، تهدف إلى التفوق والنجاح في الدنيا (في مجال التجارة مثلاً) إلى دافعية قوة تسعى إلى السلطة على نحو لا يمكن التحكم فيه.

وهنا تتراجع مشاعر التعاون، وأفكار المنافسة الإيجابية، وتتحول إلى منافسة تقوم على أساس الصراع الذي ينبغي كسبه، أي تتحول عمليات التعاون والمشاركة إلى حلبة صراع؛ فيها منتصر وفيها مهزوم، ولا يوجد حل وسط في هذا الصراع، هناك فقط فرقة ناجية وفرق أخرى كثيرة خاسرة، من ليس معنا (من جماعتنا الداخلية) هو ضدنا، وصديق عدونا عدو لنا. وهكذا تتحقق مقولة ماكليلاند المعروفة: «دافع القوة هو أعظم الدوافع»، وتتحقق أيضًا بعض المقولات التي ذكرناها من قبل حول أن المسألة، في جوهرها، هي مجرد صراع محتدم على السلطة والمصالح ومناطق النفوذ والثروة. هكذا تتحول دوافع الإنجاز إلى دوافع قوة وانتماء ويكون التطرف الشكل الأكثر وضوحًا في التعبير عن هذه الدوافع، كلها معًا.

ويمكننا أن نقترح، الآن، الشكل التوضيحي التالي لبيان العلاقات بين هذه المفاهيم التي عرضناها من قبل:

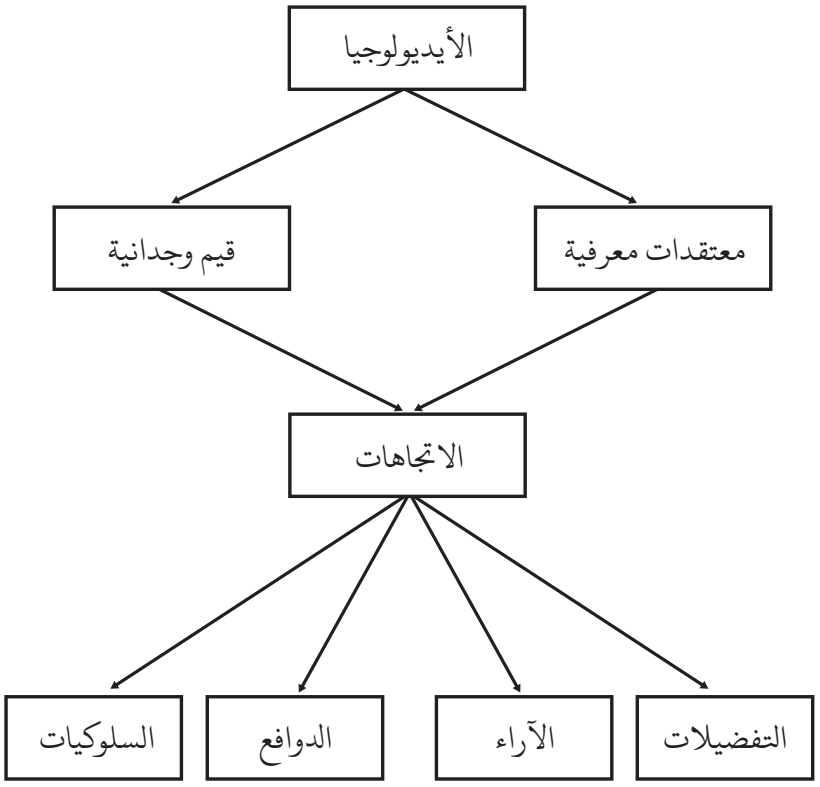

شكل رقم (١): يوضح بعض العلاقات بين مفاهيم الأيديولوجيا والمعتقدات والقيم والاتجاهات وغيرها.

للمعتقدات والقيم دور كبير في تكوين الاتجاهات المحافظة أو الراديكالية لدى الأفراد والجماعات، وما دمنا نتحدث عن التطرف؛ فإن اتجاهات؛ مثل التعصب، وانفعالات؛ مثل الكراهية والغضب والعداوة، وسلوكيات؛ مثل العنف والعدوان تكون موجودة، على أنحاء شتى، في التشكيلات الدينامية أو النهائية للسلوك الإنساني، وخاصة ما يرتبط منه بالتطرف والارهاب.

التعصب

عرف جوردون البورت؛ عالم النفس الأمريكي المعروف، التعصب بأنه «شعور ينطوي على التفضيل أو عدم التفضيل لشخص ما أو جماعة أو شيء، وهو في جوهره شعور لا يقوم على أساس الخبرة الفعلية». والتعصب هو نوع من الحكم المسبق، أو الأولي، أو نوع من التكوين لرأي ما، قبل أن يصبح المرء – أو الجماعة – واعيًا أو عارفًا بالحقائق المناسبة المتعلقة بموضوع أو جماعة معينة. هكذا تستخدم هذه الكلمة كي تشير إلى نوع من الإدراك المسبق المرتبط غالبًا بعدم التفضيل أو حتى الكراهية أو الصورة النمطية التي يصاحبها أحكام سلبية معينة نحو نوع جنس (ذكر – أنثى) أو سلالة أو لون (أبيض – أسود مثلاً)، أو طبقة اجتماعية أو انتماء سياسي، أو دين أو فريق رياضي (أهلي – زمالك... إلخ)، أو لغة أو قومية أو خصال شخصية أو ادعاءات سلوكية (طريقة في ارتداء الملابس، أطعمة أو مشروبات معينة... إلخ). وقد يحدث التحيز على نحو متطرف مع (الجماعة الداخلية) أو ضد (الجماعة الخارجية)... إلخ.

ويرتبط التعصب بالمعتقدات وقد يشتمل على اتجاهات غير مبررة عقليًّا لكنها تقاوم التغيير والتأثير الخارجي؛ لأنها تقوم، في جوهرها، على أساس عاطفي أو انفعالي، لا على أساس عقلاني، ومن ثم تكون وثيقة الصلة أيضًا بالتصلب العقلي والجمود العقائدي، كما شرحنا خلال هذا الكتاب[٣٥].

عن الكراهية

تعرف الكراهية تعريفات شتى، لكنها تشترك في مجملها في نقطة التركيز الخاصة بها؛ فالكراهية هي شعور قوي بعدم التفضيل، ونوع من الشعور الخاص بإضمار العداء لشخص، أو جماعة، أو آخر، وتشتمل الكراهية على مشاعر وأفكار وأقوال تصف شخصًا، أو جماعة، أو موضوعًا

(٣٥) عبد الله، الاتجاهات التعصبية: ٥١.

بأنه بغيض، وكريه، ومقيت، ومنفر. وقد توصف بعض وسائل الإعلام بأنها تحرض على الكراهية، أو يوصف ما يقوله شخص، أو يكتبه، بأنه مفعم بالكراهية. وهكذا تكون الكراهية، في جوهرها، نوعًا من الانفعال المفعم بالبغض، أو عدم التفضيل، وعلى نحو متطرف، لشخص ما أو جماعة ما أو موضوع ما أو هوية ما أو سلوكيات أو أفكار ما. وغالبًا ما ترتبط الكراهية بالغضب والمقت، وكذلك بمشاعر العدوان والاستعداد للعدوان أو حتى ممارسته بالفعل تجاه آخرين. وقد عرف سجموند فرويد الكراهية بأنها «حالة من حالات الأنا التي ترغب، خلالها، في تدمير المصدر المسئول عن شقائها أو حرمانها من السعادة»، وغالبًا ما يكون مصدر شقاء الأنا هو آخر أو آخرون سبق أن وصفهم سارتر بأنهم جحيم.

كما تُعَرَّف الكراهية في بعض القواميس بأنها: «انفعال عميق قوي مهيمن، عبر فترة ما، قد تطول، أو تقصر، يتعلق بالإضمار أو التعبير عن العداء، أو الجفاء، والغضب تجاه شخص أو جماعة أو موضوع». وحيث إنه يُعتقد أن الكراهية قد تستمر لفترة طويلة؛ فإن كثيرًا من علماء النفس يرون أنها نوع من أنواع الاتجاهات Attitudes أكثر من كونها مجرد حالة انفعالية مؤقتة.

في اللغة الإنجليزية يستخدم مصطلح جريمة كراهية A Hate Crime والتي قد توصف أيضًا بأنها جريمة يحركها التحيز أو التعصب، على نحو عام. يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى تلك الأفعال الإجرامية التي تغذيها الكراهية. ويقوم الأفراد بارتكاب مثل تلك الجرائم نحو ضحايا معينين؛ بسبب إدراكهم لانتماء هؤلاء الضحايا، أو عضويتهم الخاصة في جماعة اجتماعية معينة، وهي جماعة يتم تحديدها بأنها «آخر» في ضوء السلالة التي تنتمي إليها، أو الدين، أو التوجه الجنسي، أو الاضطراب العقلي، أو القومية، أو العمر، أو الأيديولوجيا أو الطبقة الاجتماعية، أو الهوية النوعية (ذكر – أنثى) أو الانتماء السياسي... إلخ، أو بسبب مجموعة من هذه المتغيرات معًا (مثلاً: مراهق أسود مسلم – أو رجل أبيض مسيحي – امرأة عجوز يهودية... إلخ).

وقد تشتمل الاعتداءات التي تدفعها الكراهية على الهجوم المادي، والتدمير للممتلكات، والتحرش، والإهانات اللفظية، أو الصور الكاريكاتيرية أو رسومات الجرافيتي أو برامج التليفزيون العدائية، وكذلك مواقع التواصل الاجتماعي واليوتيوب التي قد تزخر وتزدحم بغضًا وكراهية. هكذا قد تتوجه مثل هذه الوسائط الاعلامية أيضًا نحو الجوانب السابقة التي أشرنا إليها؛ مثل الانتماء العرقي أو السلالة (أبيض – أسود – عربي... إلخ) أو نحو الدين أو القومية... إلخ. وقد تتوجه نحو

بعض المهن أو المؤسسات (الجيش – الشرطة – القضاء – مؤسسات التعليم، الثقافة... إلخ) أو نحو المظهر الخارجي لشخص ما (الطول – الوزن – لون البشرة أو الجلد – ملامح الوجه – طريقة الحديث أو التعبير عن الأفكار... إلخ). وقد يتم التعبير عن الكراهية من خلال الكلام أو الكتابة أو الفعل أو أعمال تدعي أنها فنية أو جمالية. وقد أشار عالم النفس الأمريكي جوردون ألبورت إلى الكراهية باعتبارها أحد المكونات الأساسية في التعصب، أما من المكونات الأخرى فنجد التصنيف للآخرين إلى فئات، واللا عقلانية، والتعجل وغيرها[٣٦].

الأمر المثير للدهشة هنا أن جميع الأديان، تقريبًا، تنادي بالحب وإفشاء السلام والتسامح بين البشر، بينما كان ما قام به أتباع هذه الديانات، وعبر التاريخ، حتى الآن، هو التعبير العدواني وكذلك البغض لبعضهم، بينما يزعمون أنهم يحبون الله.

ما القلق؟

يمكن أن نُعرف القلق، وكما ذكر الدكتور أحمد عبد الخالق في كتابه «قلق الموت»، بأنه «انفعال غير سار وشعور مكرر بتهديد أو هَم مقيم، وعدم راحة أو استقرار، وهو كذلك إحساس بالتوتر والشد، وخوف دائم لا مبرر له من الناحية الموضوعية. وغالبًا ما يتعلق هذا الخوف بالمستقبل أو المجهول، كما يتضمن القلق استجابة مفرطة لمواقف لا تعني خطرًا حقيقيًّا؛ حيث لا تخرج في الواقع عن إطار الحياة العادية، ولكن الفرد الذي يعاني من القلق يستجيب لها – غالبًا – كما لو كانت ضرورات ملحة، أو مواقف تصعب مواجهتها». يبدو أن هذا التعريف يُقصد من ورائه تعريف القلق بمعناه العام، وليس ذلك القلق الذي نتحدث عنه الآن المرتبط بالأزمات والصدمات[٣٧].

ويعرف القلق أيضًا بأنه «حالة غير سارة من الاضطراب الداخلي غالبًا ما تكون مصحوبة بسلوك عصبي مصحوب بالحركة غير المستقرة وشكاوى بدنية وأرق، وقد يصاحبه حالات من المشاعر السلبية المرتبطة بالرهبة والخوف من وقوع أحداث غير سارة قد تصل لدى البعض إلى القلق من الموت المفاجئ في الشارع أو حتى في أثناء النوم»[٣٨].

(٣٦) "Hatred", *Wikipedia*, https://en.wikipedia.org/wiki/Hatred.

(٣٧) أحمد محمد عبد الخالق، **قلق الموت**، عالم المعرفة ١١١ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٧): ٢٧.

(٣٨) المرجع السابق.

يختلف القلق عن الخوف؛ فالخوف يكون متعلقًا بمصدر تهديد واقعي أو مدرَك على نحو مباشر، وقد يبالغ المرء في مخاوفه من أشياء لا يخشاها غيره (الخوف من القطط مثلاً)، أما القلق فيتعلق بالتوقع لحدوث خطر أو تهديد في المستقبل. الخوف محدد أما القلق فغير محدد، الخوف قد يتوقف، أما القلق فهو أكثر استمرارية وأثره أشد وقعًا، ومن ثم يرتبط القلق، أكثر من الخوف، بالتطرف والإرهاب. كما أن هذه الحالات ترتبط كلها، وفيما بينها بما يسمى غياب اليقين Uncertainty.

غياب اليقين

يتواصل الناس مع بعضهم على نحو فعال، كما تقول بعض النظريات الاجتماعية الحديثة، عندما يحدث لديهم توازن في المواقف الاجتماعية، بين القلق وغياب اليقين، وكي ينجح الأفراد والمجتمعات لا بد من حدوث انخفاض واضح في هذه العلاقة التفاعلية الخطرة بين القلق وغياب اليقين، ذلك الذي قد يلعب الدور الأكبر في المستوى الخاص بالقلق لدى الأفراد والجماعات.

وينشأ غياب اليقين نتيجة محاولات الناس التنبؤ باتجاهات وقيم ومشاعر معتقدات وسلوكيات الآخرين، خلال المواقف الاجتماعية. وهؤلاء الآخرون قد يكونون هم الأقارب والجيران وأفراد الأسرة وزملاء العمل وقادة الفكر والثقافة والحكومة والمسئولون عن تسيير الأوضاع في الدول والجماعات الأخرى المختلفة عن جماعة ما سياسيًّا أو دينيًّا... إلخ. ويؤدي غياب المعلومات والمؤشرات أو الهاديات المعرفية التي يمكن من خلالها التنبؤ بسلوك أية فئة من الفئات السابقة إلى حدوث القلق بأشكاله وتجلياته المتنوعة.

هكذا تؤدي السلوكيات الغامضة أو المتناقضة أو غير المتوقعة من بعض السياسيين أو المسئولين... إلخ، إلى حدوث ما يسمى بـ«حالة التوقعات المحبطة»، وهي من الحالات التي ترفع بدورها من مستوى القلق أيضًا، وقد تؤدي إلى سلوكيات أو مشاعر الاكتئاب واللامبالاة والسخرية وغيرها.

هكذا يتحول ذلك الجانب الأليف من السلطة الذي أحاطته، في البداية، توقعات إيجابية إلى جانب غريب تحيط به مشاعر سلبية ومخاوف وقلق، خاصة عندما تكون مصادر القوة لا تزال في يده، وتتحول الرسائل التي كان يتوقع منه أن يرسلها واضحة مشجعة باعثة على الشعور بالأمن إلى

مجرد رسائل غامضة متناقضة محبطة غير متوقعة، أو أنه قد يمتنع عن بث رسائل الثقة والطمأنينة.

ويستخدم مصطلح «غياب اليقين» في علوم كثيرة؛ منها الفلسفة والفيزياء والاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع... إلخ، ويتم حسابه عند القيام بتوقعات لقيم مستقبلية أو عند تقدير قيمة مجهولة. كما يحدث عندما نتعامل مع بيئة أو مواقف غير معلومة بشكل كامل، وأيضًا نتيجة الجهل والكسل والتناقض والغموض. وقد يؤدي إلى العنف أو اللامبالاة أو الجمود أو السخرية، لكنه، يقينًا وفي كل الحالات، يؤدي إلى القلق والشعور بالفقدان للتوجه والهدف.

وهناك اعتقاد شبه عام بأن «الأيديولوجيات اليمينية أكثر ملاءمة لاختزال اللا يقين من الأيديولوجيات اليسارية». وقد قام دوسج وآخرون بدراسة عن عمليات التحول إلى الراديكالية (الأصولية) بين الشباب الهولندي المسلم، وقد توصلوا إلى أن أربعة متغيرات اجتماعية نفسية لها دور مهم في ذلك؛ وهي اللا يقين الشخصي، وتصور غياب العدالة، وتصور خطر محدق بالجماعة، وشعور بالقطيعة الاجتماعية[٣٩].

الخوف وفقدان اليقين

ميز فرويد بين الخوف الذي ينشأ عن خطر موجود والقلق الذي ينشأ عن التوقع لخطر محتمل. كما أنه اتهم القلق بالمسئولية عن كل أنواع العصاب وأحد المصادر الأساسية للخوف والقلق. وفقدان اليقين هو مصدر يتعلق بتلك الأحداث أو الوقائع المتفاوتة أي تلك الوقائع التي تماثل وقائع مألوفة أخرى لكن لا يتم تمثلها في الموقف الجديد. على نحو مباشر قد تجعلنا رؤية وجه بعين واحدة نشعر بالخوف؛ لأنه أشبه بتحويل متفاوت أو مختلف عن ذلك الوجه الذي عرفناه وألفناه ويشبه الوجه الإنساني، ونحن نطلق على ذلك المخلوق اسم الوحش أو المسخ. وعندما وضعت بعض الحيوانات والأطفال في بيئة جديدة، فإنهم غالبًا ما تجمدوا ساكنين في أماكنهم أو تراجعوا إلى الخلف في تلك الأماكن غير المألوفة بالنسبة لهم. يعتقد الفلاحون من سكان التبت أن الخوف الذي ينشأ عن طرق واقعة متفاوتة خوف شديد الخطورة؛ لأنه يمكنه أن يدفع الروح لمغادرة الجسد، وينتج عنه كسل وسُبات أو نوع غير سوي وفقدان للطاقة[٤٠].

(٣٩) تيليغا، علم النفس السياسي: ٧٤.

(٤٠) جيروم كاجان، **ثلاث أفكار مغرية**، ترجمة شاكر عبد الحميد (تحت النشر): ٥٣.

لا يكون الخوف من غير المألوف موجودًا عند الولادة؛ وذلك لأن الأطفال حديثي الولادة لا يكونون قد توفر لديهم بعد معرفة مكتسبة، ومن ثم لا تكون لديهم توقعات محددة حول ما هو طبيعي. ويظهر الخوف من غير المألوف لدى الجراء (صغار الكلاب) عندما تبلغ أعمارهم من ستة إلى سبعة أسابيع، ولدى الطيور في الفترة من يومين حتى أربعة أيام، ولدى البشر ما بين سبعة إلى عشرة شهور عقب الولادة. ولعل هذا هو السبب في ظهور الخوف من الغرباء والخوف من الانفصال عن القائمين برعاية الأطفال عند نهاية السنة الأولى من أعمارهم. وأحيانًا، وكما في حالة الخوف من الثعابين، يحتاج الأمر إلى أقل قدر من الخبرة من أجل خلق حالة الخوف؛ وذلك لأن التكوين العام للثعابين وشكل حركتها يتسمان بكونهما غير عاديين وغير مألوفين، ومن ثم فإنهما ينطويان على تفاوت معين مع ما هو عادي أو مألوف[٤١].

ولهذه القدرة على اكتشاف التفاوت مزايا تطورية واضحة؛ وذلك لأن عمليات المضاهاة التي تنم عن عدم التطابق بين الماضي والحاضر، غالبًا ما تلمح أو تعطي معلومات سريعة موثوقًا فيها إذا توفرت فرصة ما للحصول على مكاسب مرغبة أو الهروب من مخاطر متوقعة. وقد تكون المعلومات الجديدة ذات القيمة العالية حول الواقع أو البيئة أو العالم أمرًا مطلوبًا غالبًا، وذلك عندما يتم اكتشاف هذا الأمر. هكذا تحاول الأيديولوجيا، أيًّا كانت أن تقدم يقينًا أو بديلاً يمكنه أن يحل محل كل تلك الحالات الموجودة في الحياة والتي تجسد نوعًا من التفاوت واللا يقين[٤٢].

تنشأ حالات فقدان اليقين – وقد استخدم بنجامين فرنكلين مصطلح عدم الاستقرار، أو عدم الراحة، بدلاً منها – في ظل الأحداث غير المتوقعة أو غير المألوفة، والتي لا تفهم بسرعة، أو على نحو مباشر. هكذا تراجع، مثلاً، ذلك اليقين المرتبط بتلك الحالات الخاصة بوجود الأم الدائم في البيت، أو وجود الأصدقاء المخلصين والساسة أو الموظفين الجديرين بالثقة، وغير ذلك من الأمور التي كانت موجودة أكثر في الماضي. هكذا أصبح الشباب البالغون في كثير من بقاع العالم لا يعرفون بمن يثقون، وخاصة عندما ينتقلون إلى مدن جديدة ويكون على مقربة منهم جيران لم يقابلوهم من قبل. وكذلك تزايدت حالات فقدان اليقين مع تلك التهديدات المتزايدة بالحروب العالمية، والتدمير النووي، والعنف المنتشر في الشوارع، وتلوث الماء والهواء والطعام. وكلها أمور قد

(٤١) المرجع السابق.
(٤٢) المرجع السابق.

جعلت تلك الحالة الهاجعة من الفقدان لليقين تنشط، على نحو أكثر إلحاحًا، من ذي قبل. وكما يشير جيروم كاجان[٤٣].

والخوف هو أحد الانفعالات الأساسية الكبرى، والتي تشمل السرور، والغضب، والحزن وغيرها من الانفعالات. ويشير الخوف – عامة – إلى أخطار واقعية مدركة أو متخيلة، وهو يختلف عن القلق، الذي ربما يظهر بشكل غير متناسب مع التهديد أو الخطر الفعلي المتضمن في موقف ما. وقد يظهر الخوف نتيجة للتعرض لمواقف محدثة للصدمة، أو نتيجة ملاحظتنا أشخاصًا آخرين يتعرضون لمواقف مخيفة، ويكشفون عن مشاعرهم الخاصة بالخوف. وقد يحدث الخوف نتيجة تلقينا معلومات مثيرة له، ويؤدي التعرض المتكرر أو الطويل الأمد للخوف إلى حدوث اضطرابات انفعالية كثيرة.

ويصاحب القلق – في العادة – مجموعة من التغيرات الفسيولوجية التي تحدث في الجهاز العصبي المستقل، وفي الغدد الصماء أيضًا. ومن هذه التغيرات زيادة ضربات القلب، وزيادة سرعة التنفس، وارتجاف العضلات وتوترها، وزيادة العرق، وجفاف الحلق. كما تتحول كميات كبيرة من الدم إلى تلك الأعضاء الجسمية التي يكون علينا أن نستخدمها في مواجهة مصادر الخوف. وهنا تظهر استجابات «المواجهة أو الهرب»، وقد يؤدي هذا التحويل المفاجئ للدم من قشرة المخ إلى تلك الأعضاء إلى الشعور المفاجئ بالتعب الشديد والإعياء، وأحيانًا الإغماء.

ويظهر الخوف لدى الأطفال البشريين في الشهر السابع، على نحو واضح، ويكون الخوف لديهم أكثر قوة من مثيله لدى الكبار. وهناك مخاوف يقال عنها إنها فطرية، أي يولد بها الإنسان، تظهر لدى الأطفال والكبار، ومنها الخوف من الأصوات العالية المفاجئة، والخوف من الألم ووقوع الضرر البدني، وهناك كذلك الخوف من السقوط المفاجئ، كما يحدث مثلاً عندما نحمل طفلاً فوق أيدينا ونوهمه – بالحركة – أننا سنسقطه أرضًا، فإذا به يرتجف ويضم يديه وقدميه إلى حركة انكماش واضحة، وهناك أيضًا الخوف من الثعابين والحيوانات الضارية، والخوف من الظلام، وكذلك المخاوف المرضية المسماة «الفوبيا»، والتي لا تتناسب استجابة الخوف فيها مع الموقف أو الشيء المثير لانفعال الخوف؛ مثل الخوف من الأماكن المرتفعة، والخوف من الماء (كما كانت حال الشاعر ابن الرومي)، والخوف من الأماكن الضيقة، والخوف من الظلام، والخوف من مواجهة

(٤٣) المرجع السابق.

الجمهور والحديث أمامه، والذي يسمى في عالم الدراما خشية خشبة المسرح Stage Fright، والخوف من ركوب الطائرات وغيرها.

والخوف يكون، عادةً، مصحوبًا بالافتقار إلى الشعور بالأمن والأمان، مع حالة معرفية يسودها الشك والالتباس، وربما عدم القدرة على تمثيل الموقف المخيف الغريب؛ ومن ثم فقدان اليقين. ويرتبط الخوف كذلك بمشاعر أخرى شقيقة له ومصاحبة له؛ مثل الفزع، والذعر، والرعب.

وعن المواجهة مع ذلك الشعور الغامض المخيف عامة، والسياسي منه خاصة، وما يحدثه من خواء، قال المفكر المعاصر فرنسوا ليوتار وكأنه كان يتحدث عن التطرف والإرهاب وكما يعيشه العالم الآن: «ليس هناك، هنا، في هذه المواجهة، سوى الرعب، الرعب المتعلق بالفقدان، فقدان الضوء ورعب الظلام، فقدان الآخرين ورعب الوحدة، فقدان اللغة ورعب الصمت، فقدان الموضوعات ورعب الخواء، فقدان الحياة ورعب الموت. ما هو مخيف هنا، هو أن ما يحدث لا يحدث، بل إنه يتوقف عن الحدوث أيضًا»(٤٤).

وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه «الفروق في اللغة» تمييزًا مهمًّا بين الخوف والرهبة، وهو تمييز مهم في وصف طبيعة الانفعالات المرتبطة بالإرهاب؛ وحيث «الخوف توقع الضرر المشكوك في وقوعه، ومن يتيقن الضرر لم يكن خائفًا له، والفرق بين الخوف والرهبة، أن الرهبة طول الخوف واستمراره، ومن ثم قيل للراهب راهب لأنه يديم الخوف. والفرق بين الخوف والفزع والهلع، أن الفزع مفاجأة الخوف عند هجوم غارة، أو صوت مخيف، وما أشبه ذلك، وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل، أما الهلع فهو أسوأ من الجزع، وقيل الهلوع على ما فسره الله في قوله تعالى عن الإنسان (خُلق هلوعًا إذا مسه الشر جزوعًا وإذا مسه الخير منوعًا) ولا يسمى هلوعًا حتى تجتمع فيه هذه الخصال»(٤٥).

هكذا يكون الخوف هو المظلة العامة التي تنضوي تحتها المفاهيم الفرعية الأخرى الصغرى الشقيقة لهذا المفهوم الكبير؛ حيث تحت الخوف يأتي مفهوم القلق الذي يعبر عن الانزعاج أو الضيق. وقد يرتبط بالخوف أو الترقب والانتظار لشيء يوشك على الحدوث، ثم يأتي بعد ذلك مفهوم الذعر، وهو مفهوم يجمع بين الخوف والفزع، وهو – أي الذعر – انفعال أقرب إلى الخوف الشديد

(٤٤) شاكر عبد الحميد، **الغرابة: المفهوم وتجلياته في الأدب**، عالم المعرفة ٣٨٤ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٢): ٣٥.
(٤٥) المرجع السابق: ٩٠-٩٤.

والتراجع والانسحاب بالجسد إلى الوراء، يعقبه تقدم وفضول لاستكشاف الأمر الذي سبب ذلك الذعر، ويصعب الفصل بين الفزع والذعر. فالفزع فيه ذعر، وفيه طلب للغوث والعون والمساعدة، ثم إن الخوف والفزع يجتمعان معًا ليظهر الرعب. والرعب والروع والهول والذعر انفعالات متداخلة، لكن الرعب أشد من الرّوع والهول، ويكون الذعر العام أقرب إلى الخوف الشديد العام الذي يستكشف موضوعه، ويكتشفه، وعندما يحدده، يظهر الرعب. كما أن الرهبة والإرهاب هي إحداث الخوف لدى الآخرين أو ترويعهم على نحو يتجاوز الخوف، شدة وديمومة.

يتعلق الرعب Horror بشيء محدد مخيف جدًّا، في حين يتعلق الذعر Terror بحالة عامة شديدة وغامضة نسبيًّا من الخوف والرهبة والهول والروع، والخوف والفزع Panic مفاهيم متداخلة. وقد يكون سبب الفزع أكثر وضوحًا من سبب الذعر، فأنا قد أصاب بالفزع من كابوس مخيف يجعلني أنهض، على نحو مفاجئ، مفزوعًا من النوم، ثم عندما أستيقظ أكون مذعورًا من هذا الكابوس، معتقدًا أن خوفي يرتبط بشيء في الغرفة التي أنام فيها، وقد لا أدرك أن ما عانيته هو كابوس مخيف؛ ولذلك أظل بعد يقظتي – ولفترة ما – مذعورًا، خائفًا من تلك الحالة الغامضة التي هيمنت عليَّ، فأيقظتني مفزوعًا من نومي، وأظل فترة – أيضًا – خائفًا من النوم، خائفًا من أن يعود ذلك الكابوس. هنا فزع مفاجئ، وذعر مستمر، والانفعالان متداخلان؛ بحيث إنه قد يصعب التمييز بينهما، لكن الفزع مفاجئ ولا إرادي ولا واعٍ، ويسبق الذعر، الذي هو أقل مفاجأة وأكثر استمرارية؛ لأنه تالٍ للفزع ويعقبه، كما أنه مصحوب بدرجة ما من الإرادة والوعي التي قد تجعل الإنسان يبتعد عن ذلك الشيء أو الموقف الذي وَلَّد لديه الفزع أولاً، ثم أصابه بالذعر ثانيًا وهيمن عليه.

في أوقات معينة من اليوم، خاصة الليل، ومن الفصول والسنة، تكتسب بعض الأماكن دلالاتها المخيفة الأكثر تأثيرًا حسب موقعها في العالم؛ فمثلا تُعد البقاع أو الأماكن المعزولة التي تسودها فصول الشتاء في بلاد الشمال الأوروبي، وخاصة في هزيع الليل الأخير، هي العناصر المؤثرة في انفعال الخوف هنا. لكنَّ هناك أوقاتًا أيضًا تكون هيمنة الخوف فيها أشد، بصرف النظر عن الموقع؛ شمال الأرض أو جنوبها؛ ألا وهي الأزمنة الانتقالية، المراحل الانتقالية في حياة الفرد، وفي حياة الأمم والشعوب؛ مثلاً مرحلة المراهقة وحدوث تغيرات جسمية ونفسية كثيرة لدى المراهقين، أو مرحلة الشيخوخة بوصفها فترة انتقالية بين الحياة والموت، أو فترات الاضطرابات السياسية

والثورات والانقلابات، وانتقال المجتمعات من حالة إلى حالة أخرى، أو وجودها في حالة من الشك والغموض، واضطراب الرؤية الواضحة، أو غيابها بالنسبة للمستقبل، أو انتقال العالم مثلاً من مرحلة سقوط الاتحاد السوفيتي، إلى ظهور التطرف الإسلامي، وأزمات اللاجئين، وغير ذلك من الأمور. ويحدث هذا الاضطراب أيضًا نتيجةً للغموض، وحالات عدم التحديد، والفقدان لليقين، وعدم وضوح الحدود، أو التبين المرتبط بهذه التحولات والانتقالات. ومن ثم فإنها تكاد تكون الأقرب إلى حدوث حالة «الانهيار في التمثيل»، تلك التي تحدث عنها بعض الفلاسفة؛ مثل كانط وليوتار، والتي تصف العجز عن تكوين المعنى المنطقي العقلاني عن وصف ما يحدث في الواقع. إنها الأوقات التي تسود فيها حالة الفقدان للتوجه أو التبصر، وتزداد فيها أيضًا حالات اختلال الشعور بالذات أو الواقع.

ربما كان الخوف من المستقبل القادم الغامض هو ما يهيمن على كثير من العقول والأفئدة في العالم الآن، فدعونا نتغلب على ذلك الخوف بالأمل والحوار والتسامح والتفهم والحب والإعلاء للقيم والمثل العليا الخالدة النبيلة، التي تجمع ولا تفرق، وتقوي ولا تضعف.

على كل حال، يعتبر ما قدمناه في هذا الفصل مجرد محاولة لاستعراض النظريات المبكرة والحديثة حول التصلب والتوتر والإرهاب والعدوان، وغير ذلك من السلوكيات والعمليات التي تسهم، على أنحاء شتى، في تكوين ظاهرة التطرف، وكما يعاني منها العالم الآن. لكن الفهم العميق لهذه الظاهرة يقتضي أيضًا دراسة أعمق للجذور الأيديولوجية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية المتعلقة بهذه الظاهرة، وليس مجرد الوقوف عند دوافعها أو جذورها النفسية فقط أو الاجتماعية فقط كما فعلنا نحن الآن.

الفصل الثاني

التطرف وتقسيم العالم

ينظم الأفراد بيئاتهم معرفيًّا ويقومون بتبسيطها، ويقومون أيضًا بمعالجة المعلومات حول البيئة في ضوء الطريقة التي يفهمونها بها، وهم يبحثون عن أسباب سلوك الآخرين بطريقة أو بأخرى، ويعزون أسبابًا يرفضونها أو يفضلونها لسلوكهم ولسلوك الآخرين. ونحن نتقبل المعلومات أو الصور والتصورات حول الآخرين التي تتفق مع معرفتنا السابقة ونرفض، ما لا يتفق معها، على أنه غير حقيقي، غير مناسب. وغالبًا ما يكون هناك تعميمات وتحيزات وأفكار مسبقة كتلك التي تقول إن كل السياسيين فاسدون وإن جميع من يصل إلى السلطة لا بد أنه متعاون مع أجهزة الدولة العميقة. هكذا يكون الأفراد أنساقًا معرفية تتسم بالتبسيطية تساعدهم في التحرك في البيئة، والتحرك خلالها على نحو أبسط وأقل غموضًا. هكذا يقبلون ما هو متفق مع نسقهم المعرفي والقيمي، ويرفضون أو يتجاهلون ما عداه على أنه أقل أهمية أو جدير بالرفض[1].

لقد اهتم علم النفس الاجتماعي منذ السنوات المبكرة من القرن العشرين بالطرائق التي تتشكل من خلالها الاتجاهات والمعتقدات تجاه الآخرين وكيف تتجلى هذه الاتجاهات والمعتقدات في السلوك.

هكذا تم طرح الأفكار المتعلقة بموضوع الصورة النمطية الجامدة، وهكذا تم تطويرها، لكن التطور الأكبر في هذه الأفكار قد حدث مع تلك الثورة المعرفية التي حدثت خلال ستينيات القرن العشرين. فقد مكنت هذه الثورة المعرفية علم النفس من أن يذهب إلى ما وراء الوقوف فقط عند مستوى الوصف العام للعمليات المعرفية المسئولة عن السلوك، إلى القيام بالفحص الأكثر دقة للبنيات الخاصة بهذه العمليات كما تحدث داخل المخ. هكذا بدأ العلماء ينظرون إلى التفكير على أنه يتكون من سلسلة من العمليات الخاصة بمعالجة المعلومات والتوليد للمعلومات، ومن ثم تم الدمج، على نحو أدق بين المكونات الخاصة باهتمامات الأشخاص بالآخرين، وأنماط تفاعلاتهم معهم (إيجابية – سلبية... إلخ). وتكوينهم لصور عقلية عقلانية أو غير عقلانية عنهم، وكذلك تكوينهم لصور عقلية خاصة حول ذاتهم وحول الآخرين. وتم دراسة ذلك كله من خلال مناهج بحث وأدوات جديدة لم تكن متاحة قبل أن تحدث تلك التطورات في علوم الكمبيوتر وتقنيات معالجة المعلومات وغيرها.

(١) Cottam *et al., Introduction to Political Psychology:* 43.

هكذا أيضًا، تم التوظيف لمفاهيم مهمة؛ بعضها قديم؛ مثل الإدراك والتصنيف إلى فئات Categorization، وبعضها حديث نسبيًّا؛ مثل العزو Attribution من أجل الفهم للسلوك الاجتماعي الذي يقوم في جوهره على أساس التفاعل بين الفرد والجماعة أو بين جماعة وجماعة – أو جماعات أخرى[٢].

المعرفة ونسق الرؤية

هكذا يرتبط النسق المعرفي للأفراد بطرائقهم في رؤية العالم وإدراكه، ويمكنهم هذا النسق، من إدراك هذا العالم الذي يعيشون فيه على نحو منظم وأبسط، ومريح، وله معناه، لكن هؤلاء الأفراد لا يعيشون أيضًا بمفردهم في الحياة أو الواقع أو المجتمع. فثمة جماعات أخرى لها أنماط تفكير وأنساق قيمة مختلفة، وما لم يتفق الجميع على العيش المشترك وعدم تدخل أيٍّ منهم في حياة الآخرين أو التطفل عليها فإن الصراع بينهم وكذلك التحيزات والعنف قد تبدأ وتتفاقم وقد يبتلع ذلك الأخضر واليابس معًا[٣].

هكذا قال عالم النفس المعروف جوردون البورت «إن البشر لابد أن يفكروا من خلال الفئات التصنيفية، وعندما تتشكل هذه الفئات أو تتكون، فإنها تكون الأساس الذي تقوم عليه عمليات التحيز أو التعصب»[٤].

تتكون الفئات التصنيفية، من خلال الخبرة والتربية، وتدور حول الذات والآخر والحياة والموت، وهكذا يكوِّن الناس في عقولهم فئات تصنيفية تشتمل على تلك الخصائص التي تميزهم، وتلك التي تميز، أو تسم الآخرين أيضًا. ووفقًا لما قاله بعض العلماء، فإن هذه الفئات التصنيفية لا بد أن تشتمل على مبدأين أساسيين؛ هما أولاً: أنهما ينبغي أن تزود الشخص القائم بالإدراك بقدر كبير من المعلومات التي يحصل عليها من خلال بذل قدر قليل من الجهد العقلي، فهي تكون ميسرة لعملية التفكير والتصنيف للناس وخصائصهم لديه. ثانيًا: أن تكون هذه الفئات التصنيفية متفقة مع الجوانب الاجتماعية والفيزيقية المادية الخاصة بالواقع الذي يعيشون فيه. فلو كنت تعيش في منطقة موجودة في مدينة مزدحمة بالسكان، ويرتفع فيها معدل الجريمة، فإنك سوف

(٢) المرجع السابق: ٤٤.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق: ٤٣.

تحتاج إلى فئات تصنيفية مختلفة لفهم الناس والتعامل معهم، مقارنة بهؤلاء الذين يعيشون في منطقة ريفية، أو مدينية، ينخفض فيها معدل الجريمة ويعيش فيها عدد أقل من الناس[٥].

البدايات الأولى لعمليات التصنيف

في الدراسات المبكرة التي قام بها فانتز على الأطفال، قارن بين تفضيلهم لشكلين مرسومين على أوراق؛ الأول (أ) عبارة عن شكل تخطيطي عام لوجه إنساني، والثاني (ب) يحتوي على العناصر نفسها الموجودة في الشكل الأول، ولكن مع إعادة تنظيمها بطريقة غير مألوفة. وقد وجد أن الأطفال يفضلون الشكل الذي يشبه الوجه الحقيقي (أ) على شكل الوجه مختلط المعالم (ب). كما أنهم فضلوا هذين الشكلين على الشكل الثالث (ج) الذي هو شكل بيضاوي يشبه الرأس الإنساني، لكنه من دون ملامح منظمة أو مختلطة.

وكما يوضح ذلك الشكل التالي:

(أ) (ب) (ج)

شكل رقم (١): يوضح إدراك الأطفال للوجوه المألوفة والأشكال غير المألوفة.

وقد استنتج فانتز من هذه النتائج أن هناك معنى فطريًّا غير متعلم يكون موجودًا لدى الأطفال في إدراكهم للأشكال، بحيث إنهم يفضلون الشكل المألوف أولاً القريب، عن شكل الوجه الإنساني مختلط المعالم، وذلك الثاني، عن شكل الرأس الخالي من المعالم، أو الذي يوجه بالفراغ، أو الذي يوحي أنه كانت هناك معالم فيه ثم اختفت أو أنها اختفت وقد تعود[٦].

(٥) المرجع السابق.

(٦) Gregory A. Kimble, Norman Garmezy and Edward Zigler, *Principles of General Psychology*, 5th ed. (New York: Wiley, 1980): 283.

في دراسات أخرى تأكدت هذه النتائج، وأصبحت تسمى فرض التفاوت Discrepancy Hypothesis.

مع زيادة ارتقاء الأطفال يزداد استمتاعهم باللعب، وتصبح تفضيلاتهم الجمالية أكثر تركيبًا، ونشاهد زيادة في حب استطلاعهم وفضولهم المعرفي بشكل عام، وزيادة في عمليات التمايز والتكامل والتركيب في أجهزتهم الإدراكية والمعرفية والوجدانية وعلاقتهم الاجتماعية، ويتناقص خوفهم من الجديد، ويقل تفضيلهم للأشكال والخبرات البسيطة والمألوفة؛ لأنها تثير حالة من الفتور والملل لديهم، ويفضلون أكثر الخبرات والأشكال والخبرات المركبة؛ لأنهما تستثير لديهم الفضول المعرفي والرغبة في الاستكشاف والدهشة، هكذا تزداد لديهم القدرة على التلاعب بالعناصر والمفاهيم والانفتاح على الخبرة مع نقص واضح في التصلب وزيادة في المرونة(٧).

التمثيل النموذجي

على كل حال، قد ترتبط فكرة تفضيل المألوف من الأشكال والخبرات والمعلومات مع ما أسماه مارتنديل بالتمثيل النموذجي Typical Representation؛ فالقطة ذات الذيل والسيقان الأربعة تكون مفضلة لديهم عن القطة ذات السيقان الثلاثة فقط؛ لأن الأولى تنطبق عليها فكرة التمثيل النموذجي أكثر من الثانية. ومع ذلك، فإنه وفي دراسات أخرى تبين أن الخبرة لها دور مهم في تغير عمليات التفصيل؛ حيث يفضل ذوو الخبرة الأكثر ثراءً وتكثيفًا المثيرات المتسمة بالغموض والتركيب والجدة؛ لأنها تستثير فضولهم وخيالهم أكثر من المثيرات والخبرات البسيطة والمألوفة التي يفضلها الأكثر اهتمامًا بالمعني المحدد والتمثيل النموذجي (أو النمطي)، وهكذا فإن العلاقة بين الألفة والتفضيل هي علاقة مركبة(٨).

هكذا يقوم الناس بتصنيف عالمهم في ضوء فئات تنتمي إلى العالم الطبيعي؛ مثل الحيوانات كالكلاب والقطط والخيول والطيور... إلخ، وتكون فئة الطيور لديهم مختلفة عن فئة الحيوانات، وداخل فئة الحيوانات تكون هناك حيوانات مفترسة؛ كالأسود والنمور، وحيوانات مدجنة؛ كالحمير والقطط. عندما لا تتفق بعض مكونات الفئة مع الوصف العام لها كما في حالة طائر البطريق مثلاً،

(٧) Carl R. Rogers, "Towards a Theory of Creativity", *Creativity* (London: Penguin Books, 1973): 137-152.

(٨) شاكر عبد الحميد، **التفضيل الجمالي: دراسة في سيكولوجية التذوق الفني**، عالم المعرفة ٢٦٧ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠١): ٢١٢.

وهو طائر لكنه لا يطير، فإنه يظل يصنف ضمن فئة الطيور؛ لأنه يمشي مثلها على قدميه ولديه جناحان ومنقار... إلخ.

أما بالنسبة للعالم الإنساني فإننا نضعه في فئة خاصة تميزه عن الحيوانات والطيور والقرد... إلخ وداخل فئة البشر نضع الأفراد في جماعات، حسب ألوانهم أو أعراقهم أو أصولهم أو أنواعهم، فيكون لدينا الأبيض والأسود والقوقازي والعربي والصيني والذكر والأنثى والصغير والكبير ... إلخ. وكذلك نجد ذوي الأصول العرقية المختلفة (مثل الزنوج، والقوقازيين وسكان جنوب شرق آسيا) والجماعات العرقية ذي الأصول الجنوبية اللاتينية والذين من أصول إسبانية والأمريكيين من أصل إيطالي... إلخ). وأيضًا في ضوء دياناتهم (اليهود، المسيحيون، المسلمون، الهندوس ..الخ) أي أننا ننظم العالم الاجتماعي أيضًا في ضوء فئات تصنيفية اجتماعية، كما أننا نكوِّن صورًا وافتراضات معرفية أو عقلية حول هذه الفئات وحول أنفسنا وحول المواقف التي نوجد فيها[٩].

أحيانًا نكون على صواب، وأحيانًا نكون على خطأ، وأولى خطوات القيام بالإدراك لشخص آخر هو أن نصنفه، أو نصنف الموقف الذي يوجد فيه، على نحو يتفق مع فئة معرفية مألوفة عنه، أو عن من يماثلونه من البشر. وبمجرد ما إن يتم تصنيف شخص ما على أنه يشغل، أو يقوم بدور معين (ضابط بوليس أو أستاذ جامعي أو فنان تشكيلي أو ممثل مثلاً) وفي ضوء بعض الخصال الخاصة المميزة له (الزي الذي يرتديه، النظارات الطبية، الكتب التي يحملها، أن تكون لحيته طويلة أو قصيرة.. إلخ) فإنك ستضعه في فئة معرفية موجودة لديك؛ كي تواصل، بعد ذلك، تفاعلك معه أو إدراكك له أو فهمك لما يقوم به من أفعال. ثم إنك تقوم، خلال ذلك وبعده، بتوجيه معتقداتك وقيمك واتجاهاتك في شكل تفضيلي، أو عدم تفضيلي أو بشكل محايد، تجاهه.

لقد كان علم النفس الاجتماعي، منذ بداياته المبكرة في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، شديد الاهتمام بعمليات التشكيل الخاصة للصور النمطية الجامدة وكذلك الوظائف التي تقوم بها هذه الصور في تفكيرنا وسلوكنا تجاه الآخرين.

والصور النمطية الجامدة هي تعميمات نقوم بها حول «ناس آخرين»، وهي تقوم في جوهرها على خصائص مميزة معينة نحن نعتقد أنها موجودة لدى جميع هؤلاء الناس أو الجماعات. وعادةً ما تبدأ هذه التنميطات للبشر من خلال بعض الخصائص المرئية والتي يتبعها الاستخدام لعدد كبير

(٩) Cottam *et al., Introduction to Political Psychology*: 43-44.

من الاستنتاجات التي تتجاوز ما هو مرئي وكذلك ما هو حقيقي، على سبيل المثال: فإن أنثى بيضاء متوسطة العمر تنتمي إلى الطبقة المتوسطة ومن خلفية ريفية قد تدرك رجلاً ذا بشرة غير بيضاء، قصير الشعر أطول من المتوسط، يمشي عبر مخيم، أو تراه من بعيد على أنه شخص أسود، ثم تتصرف نحوه في ضوء الصور النمطية الجامدة الموجودة لديها عن السود، مثلاً أنه يتوجه نحو الملعب كي يلعب كرة السلة، وقد تخشاه إذا حل الظلام وتبتعد عنه بسرعة... إلخ.

هكذا تتحرك عملية التصنيف عبر مستويين:

١- من الخصائص المرئية للفرد الواحد (اللون، البنية، الشعر القصير، طول القامة) إلى الخصائص المتعلقة بجماعة ما (الرجال سود البشرة) .

٢- من تلك الجماعة إلى الخصائص المميزة للأفراد داخل هذه الجماعة (يلعبون كرة السلة، يستمعون لموسيقى الراب أو يعزفونها، يتسمون بالعنف ، أو عدم النظافة... إلخ).

هكذا تتطلب الصور النمطية أقل عددًا من الشواهد؛ كي يقوم الذين يستخدمونها بالوصول إلى مدى واسع من الاستنتاجات التي يقومون بتفعيلها، أو تنشيطها، في عقولهم من لون الجلد – طول الشعر – طول القامة إلى التذوق للموسيقى والألعاب الرياضية والسلوكيات الأخرى). ولأن هذه الاستنتاجات تتعلق بخصائص نعتقد أنها موجودة لدى مجموعة بعينها، فإننا نقوم بعزل هذه المجموعة عن غيرها من المجموعات الأخرى. هكذا تقوم الصور النمطية الجامدة بوضع الأساس الراسخ للمعتقدات حول الجماعات الأخرى وسلوكياتها. ولكن كيف نقوم بتكوين هذه المعتقدات؟

لقد تبين أن هذه الصور النمطية نشاط منتشر بين البشر ولا يمكن تجنبه، ومن ثم فإنه ينبغي أن يوجه بطريقة صحيحة ومرنة وتكيفية، تخضع للتعلم ولتدفق المعلومات ولتغيير الاتجاهات. ولكن هذا الأمر ليس بالسهل اليسير، خاصة عندما تتدخل عوامل سياسية وتاريخية، واقتصادية، تجعل من ترسيخ مضمون هذه الاتجاهات أمرًا لا مفر منه، على الأقل حتى تقل حدة الصراعات بين الجماعات، ويكون هناك قدر من الفهم والتفهم والتفاهم المتبادل بينها.

وقد تبين كذلك أن وجود فرد ما ضمن جماعة، بحكم المولد في الحياة، خاصة عندما توضع في الاعتبار متغيرات معينة؛ مثل اللون (أسود – أبيض) أو الدين (مسيحي – مسلم) أو المركز الاجتماعي (فقير – غني) أو النوع (أنثى – ذكر) قد يضعه في فئة تصنيفية سلبية لا تتفق مع ميوله وأفكاره الصحيحة. هكذا تبدو الصور النمطية في أحيان كثيرة كأنها صور غير أخلاقية وغير

عادلة[١٠]. هكذا يتم الآن مثلًا تصنيف معظم من يطلقون لحاهم أو يرتدون جلبابًا في كثير من بلاد الغرب والشرق على أنهم إرهابيون ومتعصبون، ويتم إلصاق تهمة الإرهاب أيضًا بالمسلمين، وكأن ما تمارسه الولايات المتحدة وكثير من الدول الغربية وما مارسته ضد الشعوب العربية ودول العالم الثالث من حروب وحصار ليس تطرفًا أو إرهابًا!

مع الثورة المعرفية تزايد إدراك أن الأفكار النمطية هي نوع من التصنيف للمدركات حول الجماعات الأخرى، وأنه تصنيف يشبه تصنيفنا لأية بيانات إدراكية أخرى. إنه نوع من المعالجة للمعلومات الاجتماعية، نوع من التبسيط للمعلومات والتصنيف لها وفقًا لما هو مناسب لاهتماماتنا وحاجاتنا وأغراضنا، نوع من التعميمات السريعة التي تساعدنا على مواصلة الحياة على الرغم من أنها قد تؤدي بنا في بعض الحالات إلى تدمير حياتنا وحياة الآخرين أيضًا. هكذا تكون الأفكار النمطية أشبه بالمخططات العقلية العامة الجامدة، غير المكتملة، والتي تتشكل في بداياتها لدى الأطفال، على نحو معين. لكن الخبرات تقوم بتعديلها وتحويل تفاصيلها وإثرائها، كي تصبح أكثر دقة وتعبيرًا عن الواقع الحقيقي، ثم يزداد ثراء هذه المخططات كلها وتتحول إلى تمثيلات عقلية، فما معنى هذه المخططات وأيضًا معنى التمثيلات.

النموذج المعرفي في التصنيف

إن المخطط ليس مجرد صورة عقلية Image ولا صورة فوتوغرافية Photographic لواقعة معينة، لكنه تمثيل مجرد للأبعاد الأساسية المميزة للواقعة. إنه يحتفظ بجوانبها الأساسية، في نمط فريد، فتشتمل مخططات الأطفال (لمشاهد التي يرونها أو يرسمونها) على معلومات عامة وأساسية حول الموضوعات كلها الموجودة في المشهد، وكذلك حول الخصائص الأساسية المميزة لهذه الموضوعات، وأيضًا الأوضاع والاتجاهات النسبية لهذه الموضوعات.

إن ظهور وجه ذي لحية، الآن، في صورة فوتوغرافية، أو صورة مرسومة، قد يكفي لأن تنشط، في الذهن، تلك المخططات المرتبطة بالخوف والإرهاب؛ فإذا صاحب هذه اللحية شيء آخر؛ كالجلباب الأبيض، أو مكونات أخرى، كالعمامة أو الجلباب، لتزايد تنشيط هذه المخططات، على نحو أكبر. أما إذا صاحب اللحية والجلباب اسم لصاحبهما؛ مثل محمد أو علي أو محمود... إلخ؛ لكان

(١٠) المرجع السابق.

التنشيط الخاص بهذه المخططات أقوى وأقوى. أما إذا ظهر صاحب هذه الخصائص في مطار، أو مطعم، في بعض البلدان الأوروبية، فربما حدث ما لا تحمد عقباه ضده... إلخ.

لقد استخدم مصطلح «المخطط» بشكل أو بآخر، في كتابات فلاسفة سابقين؛ أمثال كانط الذي تحدث عن الصورة التخطيطية الترانسندنتالية Transcendental Schema (التصور الوسيط بين الظاهرة المدركة بالحواس والمعاني الكلية)، وبرجسون في حديثه عن الصورة الديناميكية Dynamique Schema (الصورة الذهنية الموجهة الفعالة) وفلاسفة آخرون. وتعني عمليات التمثيل لدى بياجيه تكوين المخططات، التي هي بالنسبة له أبنية أو بنيات Structures متحققة أو فعلية تشمل الاحتمالات المختلفة المتضمنة في الشكل البنائي الكلي، وللبنية. ومن ثم فللمخطط لدى بياجيه خصائص مميزة، إنه نظام من التحولات System of Transformation، وإنه ذو طبيعة كلية Totality، وإنه قادر على الانتظام أو التنظيم الذاتي – Self Regulation الذي يصل إلى حالة المحافظة الذاتية Self Maintenance أو الإغلاق الذاتي Closure[١١]. هكذا نستخدم، في كثير من تعاملاتنا مع الآخرين، داخل مجتمعاتنا وخارجها، مخططات أو تمثيلات ناقصة حولهم، أي صورًا عامة غامضة غير محددة أو غير متسمة بالدقة أيضًا.

عندما يتم تصنيف أحد الأفراد أو الجماعات في فئة معينة؛ يتم تنظيم المعلومات المتوفرة حوله في ضوء ما يسمى بالمخطط المعرفي Schema، أي التشغيل العام للمعلومات للعامة حول هذا الشخص أو الموقف واتخاذ قرار أو طرح رأي أو تكوين اتجاه حوله[١٢].

يعرف علماء النفس «المخطط المعرفي» بأنه «البنية المعرفية التي تمثل المعرفة حول مفهوم أو موقف أو شخص أو جماعة وخاصة ما يتعلق منها بخصائها المميزة وكذلك العلاقات بين هذه الخصائص وبعضها البعض». وقد تشتمل الصور النمطية على بعض الخصائص الجسمية والوجدانية والبصرية والسلوكية كأن يتم النظر إلى الألمان جميعهم على أنهم يتسمون بطول القامة أو أنهم جميعهم شقر الشعر ويتسمون بالتصلب وعدم المرونة في التفكير أو أن المصريين يتسمون كلهم فعلاً بحس الفكاهة وخفة الدم وهذا ليس حقيقيًّا بالفعل.

(١١) شاكر عبد الحميد، **الطفولة والإبداع**، مج. ٢، سلسلة الدراسات العلمية الموسمية المتخصصة ١٠ (الكويت: الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، ١٩٨٩): ٥٢-٥٣.

(١٢) Cottam *et al., Introduction to Political Psychology*: 44.

هكذا يوجد لدى كلٍّ منا صور نمطية جامدة، أو إنه، على الأقل، تُعرَف بعض هذه الصور عن الآخرين، من ذلك، تمثيلاً لا حصرًا، تلك الصور النمطية الجامدة حول اليهود (التي تسمى الآن معاداة السامية) والتي تقوم على أساس افتراض فحواه أن جماعة خاصة هم اليهود هي أقلية عالية الإنجاز والبراعة في كسب المال بصرف النظر عن الوسيلة وكما في حالة (التاجر «شيلوك» في مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير مثلاً)، وأنهم متفوقون في الثروة والموهبة، وأنهم قادرون على التخطيط للمؤامرات التي تعمل على زيادة ثرواتهم ونفوذهم، وأن كل ما يحدث في البلاد العربية من دمار وتخريب وحروب وقتل، بل إن تلك الحروب التي تقوم بين السنة والشيعة وراءها اليهود أو إسرائيل، وأنهم يوجهون الولايات المتحدة كيفما يشاءون، وكذلك أنهم متحفظون باردون، مغلقون على أنفسهم وينظرون إلى أنفسهم على أنهم قادرون دائمًا على التفوق على الآخرين[١٣]. وهناك صور نمطية أخرى مماثلة كتلك الخاصة بالباكستانيين والهنود والآرمنيين والعرب... إلخ. وهناك صور نمطية أيضًا حتى داخل المجتمع الواحد؛ كتلك الموجودة لدى البيض عن الزنوج، والعكس بالعكس في الولايات المتحدة، وأيضًا تلك التي تعتبر الألمان أكثر الشعوب جدًّا واجتهادًا... إلخ.

يقول النموذج المعرفي في التصنيف إن أية فئة تصنيفية (رجال – نساء – أبيض – أسود... إلخ) هي فئة تمثيلية أو ممثلة Representative، وإنه يتم تمثيلها أيضًا من خلال نموذج أصلي Prototype تكون هناك تباينات واختلافات أخرى كثيرة عنه داخل الفئة. لكن تظل السمات المميزة الأساسية واحدة. فالفروق هنا تكون في الدرجة وليس النوع، فمثلاً، تعد فئة الرجال هي فئة واحدة تنطبق على الرجال كلهم، مع وجود تنوع كبير يتعلق بتعدد الجنسيات والأعمار بداخلها. لكن هذه الفئة سرعان ما تضيق عندما يوضع معها فئة تصنيفية أخرى تتعلق بالجنسية أو الانتماء؛ مثل عربي = رجل عربي، وفئة ثالثة تتعلق بالدين مسلم = رجل عربي مسلم، ثم بالعمر = رجل عربي مسلم شاب، وبالزي أو الشكل العام = رجل عربي مسلم شاب يطلق لحيته ويرتدي جلبابًا؛ هنا تضيق الفئة التصنيفية في أذهان من يقوم بالتصنيف وإلى حد الاقتراب بهذه الصورة من الصورة النمطية الجامدة الخاصة بالإرهاب والتطرف والتي تتم تغذيتها، على أنحاء شتى، من خلال الإعلام والبروباجندا والتربية، وكذلك الممارسات الخاطئة والعنيفة التي يقوم بها بعض المسلمين عبر العالم الآن.

(١٣) شاكر عبد الحميد، **الفكاهة والضحك: رؤية جديدة**، عالم المعرفة ٢٨٩ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٣): ٢٢٢-٢٢٣.

يتم تكوين الفئات التصنيفية من خلال التأكيد المتتابع على التشابهات الموجودة بين الأفراد الموجودين داخل إحدى الجماعات والجماعات المماثلة لها أو التي يندرجون ضمن إطارها، وكذلك من خلال التأكيد أو التوكيد على الفروق بينها وبين الجماعات الأخرى المختلفة عنها. هكذا ينشأ التحيز والتعصب، وهكذا تتكون الجماعات الداخلية والجماعات الخارجية؛ وذلك لأن من يقوم بتأكيد التشابهات بين أفراد الجماعة لا يكونون بالضرورة من خارجها، بل قد يكونون، وكما يحدث كثيرًا، من داخلها، أي من هؤلاء الذين ينتمون إليها، ويفخرون أيضًا بهذا الانتماء بحكم الدين أو العرق أو المكان على الرغم من أن فخرهم أو شعورهم بالتميز أو التفوق هذا، قد يتحول إلى عنف وتطرف وعدوان تجاه الآخرين المختلفين عنهم... إلخ.

هكذا تكون الجماعة الداخلية هي الجماعة التي ينتمي إليها الأفراد؛ بينما الجماعة أو الجماعات الخارجية هي تلك التي لا ينتمون إليها، وتكون الصور النمطية هناك عبارة عن فئتين عامتين؛ هما تلك التي تفضل الجماعة الداخلية وتصفها بصفات إيجابية كثيرة، وتلك التي لا تفضل الجماعات الخارجية أو تزدريها وتصفها بصفات سلبية كثيرة.

ومن الأمور المثيرة للاهتمام هنا أن أفراد الجماعات الداخلية قد يعتقدون بوجود فروق بينهم في كثير من الصفات لكنها تظل فروقًا لا تؤدي إلى الصراع أو الصدام، فهناك تباين ولكن ضمن حدود التوافق والاتفاق والسلام، بينما يتم النظر إلى الجماعات الخارجية على أنها متجانسة أو متماثلة؛ من حيث إنها دائمًا سيئة، ودائمًا شريرة، وتتحين الفرصة دائمًا لإيذاء الجماعة الداخلية والايقاع بها والاستيلاء على ممتلكاتها. هكذا تنشأ فكرة أو مشاعر «التجرد من الإنسانية» التي أشار إليها زيمباردو، وكذلك كل تلك الأفكار التي سادت تاريخ البشرية حول شيطنة الآخر.

يجعل النضج العقلي المتزايد للمراهقين من الممكن بالنسبة لبعض الملامح الأكثر تجريدًا؛ كالدين والطبقة الاجتماعية أن تصبح هي الأساس لعضوية فئة تصنيفية معينة؛ حيث يتوحد العديد من المراهقين المسلمين والمسيحيين في سراييفو مع الدين الخاص بعائلاتهم، هذا على الرغم من أن عددا قليلاً من الملامح البدنية – وقد لا توجد – هو الذي يميز بينهم. كذلك يعتقد بعض الشباب الأمريكي الملون والذين يتوحدون مع فئاتهم العرقية، وبخاصة من ولد منهم في الولايات المتحدة، أن البيض هم أشخاص فاسدون أخلاقيًا؛ وذلك بسبب تعصبهم وجشعهم وكذلك نفاقهم، ومن

ثم لا ينبغي أبدًا الاقتداء بهم. ولا يستطيع المراهقون الذي تعرضوا للحرب، والكساد الاقتصادي والثورة أن يهربوا من محاولتهم لفهم حالات عدم الاتساق بين فهمهم للماضي وكذلك الحاضر... إلخ[١٤].

هكذا تكون الصور النمطية أشبه بفئة تصنيفية موجزة تمكن الناس من معرفة الآخرين على نحو عام، ويفتقر للدقة ولا يفتقر للجمود. وهي تمثل نوعًا من التفكير الذي يتم على نحو سريع ودون تأمل أو تبصر، ومن ثم فهي تكون في الغالب مفعمة بالتحيزات، ومن ثم تكون صورًا نمطية، ومتحيزة، ومتعصبة، ومتطرفة، وجامدة.

الصور النمطية الجامدة

الصور النمطية الجامدة Stereotypes هي مجموعة من التصورات العقلية الثابتة نسبيًّا والمتسمة بالتبسيطية حول جماعة أو طبقة أو شعب معين، ومن خلالها يجري تأكيد بعض الخصائص المميزة السلبية وغير المفضلة، وغالبًا ما تشتمل هذه الصور النمطية على تحيزات ومعتقدات غير دقيقة[١٥].

وهذه الصور النمطية هي أيضًا معتقدات جماعية مشتركة تكون لدى بعض الناس (جماعة أو جماعات معينة) حول أناس آخرين (جماعة أو جماعات أخرى). ويتم التقاط هذه الصور النمطية من داخل الأسرة، والمدرسة، ووسائل الإعلام والفولكلور والأصدقاء، وتدعم الفكاهة والنكتة والأمثال الشعبية والمعتقدات الدينية والسياسية مثل هذه الصور النمطية. ففي حالة الفكاهة مثلاً يتم تزويد المستمعين لها أو المشاهدين (لفيلم كوميدي أو مسرحية أو كاريكاتير... إلخ) بفهم معين لهذا الدافع من السلوك أو ذاك لدى الجماعة التي توجه إليها الفكاهة، فمثلاً النكات التي تروى حول أهالي إسكتلندا تفسر بطريقة ضمنية لماذا يتصرفون هكذا، وكذلك التي تُروى حول الصعايدة في مصر، وتصفهم بالغباء أو التصلب أو الغفلة أو العناد، وغالبًا ما تشتمل النكات على تحقيق للتوقعات على نحو مبالغ فيه؛ حيث يكون لدينا التوقع لمستوى معين من الغباء أو العناد في

(١٤) كاجان، **ثلاثة أفكار مغرية**: ٢١٩.

(١٥) Cottam *et al., Introduction to Political Psychology*: 45.

موقف توجد فيه فئة بشرية معينة من خلال الصور النمطية عن هذه الجماعة أو تلك، لكنهم في النكتة طبعًا، يفاجئوننا بسلوكيات تفوق التوقعات[١٦].

هكذا تتسم الصور النمطية بالتبسيطية (تصنيف الناس في أضداد؛ مثل أبيض، أسود، عدو، صديق، رجل، امرأة، وطني، خائن... إلخ). وتتسم كذلك بالجمود والثبات، والمقاومة للتغيير، وكذلك بالابتعاد عن الصور الحقيقية لبعض الجماعات كما هي موجودة في الواقع. فالصعيد الآن، في مصر ليس هو الصعيد في الماضي، والصعايدة منذ أيام جمال عبد الناصر تولد لديهم طموح كبير وآمال وتوقعات وحراك اجتماعي، فاحتل بعضهم مراكز كبيرة داخل مصر وخارجها، وصار منهم أطباء ومهندسون وعلماء وأساتذة جامعات ورؤساء جمهورية ووزراء، لكن الصور النمطية ما تزال كما هي. وليس هذا الموضع المناسب لعرض الجذور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي جعلت النكات عن الصعايدة تظهر هكذا وتنتشر. ومع ذلك فإن بعضهم ما يزال يربط بين هذه النكات والأصول الخاصة بالتطرف والإرهاب في مصر خاصة ما يتعلق منها بتكوين الجماعة الإسلامية في جامعة أسيوط وأحداثها الدامية، وكذلك ما تلاها من أحداث كثيرة بعد ذلك بلغت ذروتها بعد إزاحة الإخوان عن الحكم عام ٢٠١٣م.

وهناك أيضًا صور نمطية جامدة حول المسلمين، لدى مفكرين كبار؛ ومنهم برنارد لويس، مثلاً، ذلك الذي رأى أن المسلمين قد عانوا من تراجع وهزائم طوال أكثر من قرنين ثم عجزوا عن دخول الحداثة باستثناءات قليلة (تركيا مثلاً)، ولهذا يتنازعهم شعوران: الإعجاب بالغرب، والحق عليه بسبب تقدمه وتخلفهم. ومن ثم فإن الأصولية الحالية المعادية للغرب وللولايات المتحدة بالذات هي جزء من حالة الغضب والخيبة والاستعصاء على تقبل قيم الحداثة والديمقراطية. بل إن لويس يرى أيضًا في كتابه «أزمة الإسلام» أن «الإرهاب الإسلامي يُفسر بكونه موقفًا عصابيًّا حادًّا إزاء حداثة مستحيلة تقتضي في العمق الانفصال عن المرجعية الإسلامية. ومعضلة الإسلام كما يراها هي في الامتزاج بين الدين والسلطة، فالإسلام – لديه – مشروع سياسي»[١٧].

كذلك رأى بعض مفكري الغرب أن الهجمات التي شنها المسلمون عليهم خاصة بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م هي بسبب الحقد على قيمهم المختلفة؛ كالحرية والتسامح والازدهار والتعددية الدينية

(١٦) Arthur S. Reber, *The Penguin Dictionary of Psychology* (Middlesex, England: Penguin Books, 1987).

(١٧) معتز الخطيب، **الإسلام والإرهاب في الفكر الغربي: النماذج التفسيرية وخلفياتها** (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية، ٢٠١٢): ٣٧.

والانتخابات العامة، وحسب الفرضية الثقافية في التفسير. كما تشرحها شيرين هنتر: «فإن الأسباب الكامنة وراء فشل العالم الإسلامي في تحقيق التحديث والتحول الديمقراطي يجب البحث عنها في المميزات الأساسية للإسلام؛ ومن أبرزها: كراهية التفكير العقلاني، وهو الشرط الأساسي لأي شكل من أشكال التحديث، وأولوية العقدية على الاقتناع، وأولوية المجتمع على الفرد، والتداخل بين الأملاك الخاصة والعامة والدنيوية والروحية»(١٨).

والصور الموجودة عن الإسلام والمسلمين حاليًّا، في الغرب، ليست صورًا جديدةً، أو طارئة بل هي صور قديمة يعاد بعثها، عند الضرورة، من جديد وإحدى أبرز الصورة النمطية عن الإسلام، التي بلورها الوعي أو المتخيل المسيحي في الزمن الوسيط: «إنه عقيدة ابتدعها محمد، وهي تتسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، إنها دين الجبر، والانحلال الخلقي، والتساهل مع الملذات والشهوات الحسية، إنها ديانة العنف والقسوة، شعارها السيف والحرب والقتال. وهذه الصفات هي ما يمثل النقيض المباشر للمسيحية، فالمسلم يتقدم إلى مساحة الإدراك المسيحي الأوروبي باعتباره رجلاً محاربًا شرسًا متوحشًا، يقوم بكل أنواع النهب والتنكيل، خالقًا بذلك وراءه تعاسة وشقاء لا يوصفان بحركة ميل قوي للقتل»(١٩).

الدين والتصنيف للبشر

وتمثل التجمعات والجماعات الدينية، مثلها مثل غيرها من التجمعات، أنساقًا مشتركة من المعتقدات والقيم والسلوكيات التي يتم اتباعها بوصفها معالم مميزة لمن هم داخل الجماعة أو الجماعات الداخلية In-group، وتقوم هذه المعالم بقسمة البشر إلى «نحن» و«الآخرين» أو «هم». وإذا كان ذلك صحيحًا، فإن تلك العبارة التي يتم الاستشهاد بها غالبًا لجون كارديتال نيومان والتي تقول: «آه، كيف يمكن أن يكره بعضنا بعضًا هكذا تحت زعم محبتنا كلنا لله» عبارة جديرة بالتذكر. لكن هذه العبارة تظل مغلوطة إلى حدٍّ ما أيضًا، وكما يشير جي. ر. فيرمان فـ«نحن» لا نكره أنفسنا أو بعضنا بعضًا... بل نكره ذلك «الآخر»، ذلك الموجود هناك، أي تلك الجماعة الخارجية Out-group الأخرى التي تحوي بداخلها احتمالات أن تصبح موضوعًا للكراهية الخاصة بنا، أو بجماعتنا الداخلية. «كيف يمكن أن نكره الآخرين تحت زعم محبتنا لله؟» إنها العبارة التي كان

(١٨) المرجع السابق: ٣٨.
(١٩) المرجع السابق.

لها رنين كثيرًا ما ترددت أصداؤه عبر التاريخ، إننا نكرهم لأننا نعتقد أنهم يكرهوننا، أو أنهم يدبرون المؤامرات لنا ويريدون الاستيلاء على مقدراتنا، وهم أيضًا يعادون معتقداتنا وأساليبنا في الحياة. هكذا ينبغي أن نكرههم وأن ندافع عن أنفسنا ولو من خلال الذهاب إليهم وقتلهم، فما تلك الكراهية، ما معناها ومضمونها السيكولوجي؟[٢٠].

نتيجةً لانقسام العالم لدى كثيرين إلى جماعات داخلية وجماعات خارجية تحدث عمليات الاستقطاب Polarization أو قسمة العالم قسمة ثنائية ضدية إلى «نحن» و«هم» أو الأنا الداخلي والآخر الخارجي، والخارجي هنا قد يكون موجودًا مع الأنا الداخلي في الموطن نفسه والوطن نفسه، لكنه يكون هنا موطنًا مجزءًا، ووطنًا منقسمًا. وقد يتم تقسيم الجماعات الخارجية، على الرغم من اختلافها، عن الجماعات الداخلية إلى جماعات إيجابية؛ لأنها تتحالف معنا، على الرغم من اختلافنا عنها، في الدين وإلى جماعات سلبية لا تتحالف معنا، أو تقف ضدنا. هكذا تتم عمليات التقييم للذات من الجماعة الداخلية، على نحو إيجابي، دائمًا كما تتم عمليات التقييم للجماعات الخارجية، على نحو أكثر إيجابية، لو كانت تتحالف معنا، وعلى نحو أكثر سلبية إذا كانت تقف ضدنا. هكذا تكون عمليات تصنيف البشر في فئات؛ مع وضد، أو داخلية أو خارجية... إلخ وسيلة للوصول إلى نوع من النظام والمعنى المتعلق بالمعلومات الإدراكية الخاصة بالذات وبالآخرين، وأيًّا ما كان عليه هذا النظام من خطأ، وهذا المعنى من تبسيطية وتأثيرات سلبية كثيرة[٢١].

شيطنة الآخر المختلف

ومنذ العصور القديمة كان العدو، دائمًا، هو الآخر، ذلك الذي عندما تكون له عادات غذائية مختلفة، فإن الناس يتأففون من رائحته، وهكذا لا يتقبل الغربيون تناول الصينيين للكلاب طعامًا لهم. ويجد الإنجليز أكل الفرنسيين للضفادع غير مستساغ، وقل الأمر نفسه عن أكل المسيحيين للحم الخنزير أو عن تناول بعض الشعوب العربية للجراد أو الأرانب... إلخ.

لقد كان العدو الأول، في المسيحية، هو الشيطان، ذلك الذي كان يصور من خلال قبح مظهره وشناعة أفعاله، وينحدر من أصل يهودي، ثم كان العدو الثاني هم أصحاب الديانات الأخرى والذي أطلق عليهم لقب الهراطقة، وكذلك جرى وصف المنشقين عن الكنيسة بأنهم ذو أعراف

(٢٠) فيرمان وآخرون، **بيولوجيا السلوك الديني**: ٢٥٤.

(٢١) المرجع السابق: ٢٥٥.

وتقاليد شيطانية وقد كان المسلمون والعرب ضمن هذه الطائفة التي يتجسد من خلالها هذا العدو المخيف، الآخر (الجماعة الخارجية). وقد غذت هذه الصور وغيرها تلك الحروب الدموية التي شنها الغرب المسيحي، على المسلمين، في بلادهم، والتي سميت بالحروب الصليبية. كما تداخلت وقامت أيضًا بتغذية عملية الغزو الأمريكي للعراق واحتلاله عام ٢٠٠٣م، وتمثلت في صيحة إيفا ماريا أو عاشت مريم التي أطلقها الجنرال شوارتسكوف قائد تلك العمليات في بدايتها. لقد قام العالم الحديث أيضًا بتمثيل الإعداد الديني أو القومي في صور جروتسكية مسخية أو بملامح شريرة شيطانية، وقد كانت هذه الصور النمطية نقطة الميلاد والخاصة بالكاريكاتير السياسي أيضًا.

وقد نشط ذلك أيضًا خلال فترة الإصلاح التي قام بها البروستانت والكاثوليك، وكذلك صورت طائفة النبلاء خلال الثورة الفرنسية على أنهم من آكلي لحوم البشر. وفي الحروب كلها كان العدو يصور بصورة مسخية تجمع بين مسخ الملامح وشناعة الأفعال والتي ظهرت أولاً على أنها تندرج ضمن النظام الكلي للكون (الخير والشر والنور والظلام، الله والشيطان) ثم أصبح يتم إسقاطها على الآخر المختلف في الدين أو المذهب أو الانتماء العرقي أو الوطني. هكذا صور العرب في التراث الأدبي والاجتماعي الغربي على أنهم خونة، غدارون شهوانيون، والهنود على أنهم متعصبون دينيًّا يفتقرون إلى النظافة، والصينيون على أنهم ماكرون أشرار، والألمان والإنجليز على أنهم باردون، والفرنسيون على أنهم محبون للفن والأدب وبارعون في الحب... إلخ. وما يزال هذا التراث موجودًا في كثير من الأفلام السينمائية وكثير من مسلسلات الكوميكس وألعاب الفيديو ومواقع التواصل الاجتماعي. بل إن هذه الصور النمطية ما تزال حاضرة بقوة حتى داخل الدين الواحد؛ حيث توجد صور نمطية سلبية كثيرة لدى المسلمين السنة حول المسلمين الشيعة والعكس بالعكس. هذا على الرغم من أن ما يجمع أصحاب هذين المذهبين وهو جوهر الدين الحقيقي يفوق كثيرًا ما يفرق بينهم. لكنها أيضًا الصور النمطية التي تمت تغذيتها عبر السنين ومن خلال الاستعادة للذكريات والأحداث القديمة والطائفية التي تؤجج العداوات وتطلق الحروب وتحقق للأعداء أهدافهم وعن بعد.

لقد صور أصحاب الاتجاهات الاشتراكية من خلال البروباجندا الغربية وبعض الشرقية أيضًا على أنهم منحلون أخلاقيًّا، وملحدون، وأنهم الآخر الذي ينبغي محاربته حتى لو كان ذلك من خلال حرب باردة، ثم وعندما قام الاتحاد السوفيتي بغزو أفغانستان واحتلالها تعاونت الكنيسة

الغربية، وعلى رأسها الفاتيكان ومعها الولايات المتحدة وأتباعها من المسلمين الذين سموا أنفسهم بالمجاهدين، وأسهموا معًا في هزيمة الاتحاد السوفيتي وسقوطه وتفككه في بدايات تسعينيات القرن العشرين.

ولأنه لا يمكن العيش دون عدو حقيقي أو متوهم؛ حل المسلمون مكان الاتحاد السوفيتي في التصور الغربي للعدو، وأصبح يطلق عليهم لقب «الإرهابيون». وما تزال عملية التصنيف هذه مستمرة ومتواصلة، وتغذيها كذلك تلك الأعمال الإرهابية التي يقوم بها بعض من يدعون أنهم مسلمون والإسلام الحقيقي منهم براء(٢٢).

عودة المكبوت

كما ذكرت جوليا كريستيفا في كتابها «غرباء عن أنفسنا» ١٩٩١م أن مشاعر الغرابة الموحشة أو الوحشة الغريبة، إنما هي مثال على ذلك النوع من القلق، والذي يمكن بيان أن العنصر المخيف فيه إنما يتعلق بشيء كان مكبوتًا، ولكنه يعاود الظهور الآن. وبما أن الكبت التام أمر نادر، فإن العودة للمكبوت أو لذلك الذي كان خفيًّا موجودًا تحت السطح، لكنه غير ظاهر، إنما تكون عودة مرتبطة بالقلق، بالالتباس والحيرة وفقدان اليقين. هكذا مثل ظهور الإسلام السياسي، في صورة عنيفة، بعد هيمنته على مصر بعد ثورة ٢٥ يناير، وكذلك ما صاحب هذه الظهور من تغير في أشكال الكلام والسلوك والأزياء والملامح (اللحية الطويلة أو القصيرة) وغيرها؛ نوعًا من العودة للمكبوت، عودة هزت استقرار البيت (الوطن)، وجلبت معها مشاعر القلق والخوف والذعر، وإنما لمشاعر لا تزال مستمرة على أنحاء شتى ومستويات متعددة، مع هذه الانفجارات التي تحدث كل يوم في مواقع عدة وبخسائر متزايدة.

قلق يتجلى على أنحاء شتى

بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م، كانت هناك مشاعر ملفتة بالبهجة والتفاؤل والثقة والأمل وتزايد اليقين، ثم أصبح المشهد السياسي في مصر، بل في المنطقة العربية، بعد ذلك مشهدًا شديد التعقيد، حيث هيمنت عليه الحيرة وساده الشك، وغلب عليه الالتباس وفقدان اليقين، هكذا افتقر المصريون يومًا بعد يوم إلى القدرة على التنبؤ بما سيحدث خلال الشهور، بل الأيام، المقبلة، وزادت

(٢٢) Umberto Eco, *On Ugliness*, translated by Alastair McEwen (New York: Rizzoli, 2007): 185-190.

هذه الحيرة بعد الانتخابات الرئاسية الأولى التي خاض غمارها ١٣ مرشحًا، بعضهم لم يكن يتذكر الناس أسماءهم، وبعضهم لم يحصل على أصوات تعادل عدد التوكيلات التي حصل عليها كي يتقدم للترشح. وهكذا استمر الأمر حتى وصلنا إلى جولة الإعادة بين أحمد شفيق ومحمد مرسي، وما حدث بعد ذلك يعرفه الجميع، لكن ما حدث بعد ذلك كان البداية أيضًا لشعور متزايد أصبح مهيمنًا بالقلق عند كثير من المصريين، وقد صاحبته أيضًا حالات من الشعور باختلال الواقع واختلال الشعور بالذات، وكذلك انخفاض واضح في الشعور بالأمن وتزايد واضح في الإحساس بالتهديد، مع اختلال أيضًا في مستويات الشعور بالثقة أو اليقين.

بعد ثورة ٢٥ يناير أصبح الدين ظاهرة سياسية شديدة الحضور، فأصبح هناك أحزاب دينية وصحف وقنوات «دينية سياسية»... إلخ. وهكذا تحول الدين الذي كان ينبغي أن يكون مألوفًا وأليفًا ومرتبطًا بالألفة والتسامح والرحابة والحضور والمحبة، تحول إلى ظاهرة مبالغ فيها، وزادت عن حدها حتى انقلبت إلى ضدها، أصبحت غير مألوفة ولا أليفة، بل غريبة ومخيفة وفوق عادية. تراجعت اليوتوبيا وتحولت إلى ديستوبيا (المدينة الفاسدة)، أصبحنا واقعين في براثن أنواع من الترهيب والتخويف والتهديد باسم الدين (انظر ما كان يحدث على القنوات الفضائية المسماة الدينية).

لم يكن هناك أي اهتمام بالعلم أو الفن أو الاقتصاد أو التعليم أو الإبداع يماثل ذلك الاهتمام والحضور للدين وللحركات والأحزاب الدينية وللصراعات الدينية المدنية. في هذا الإطار حوصرت المحكمة الدستورية؛ كي لا تصدر أحكامًا تتعارض مع مصالحهم، وحوصرت مدينة الإنتاج الإعلامي؛ لأن بعض القنوات الخاصة ومذيعيها يناقشون أمورًا لا تتفق مع مصالحهم، وكذا محاولة الاصطدام بالجيش والشرطة والقضاء والإعلام والتيارات المدنية ومقارّ الأحزاب المدنية... إلخ.

هذا الانقسام في المجتمع المصري حدث، كما نعرف جميعًا، بشكل تدريجي عقب الثورة، منذ استفتاء مارس الشهير مرورًا بتشكيل اللجنة التأسيسية الأولى للدستور وما قدمته من نصوص قسمت الشعب إلى مجموعة نعم ومجموعة لا، أو فريق الجنة وفريق النار، والدور الذي لعبه شيوخ الفضائيات وبعض أئمة المساجد وغيرهم في ذلك معروف، ثم تواصل الانقسام ما بين إسلاميين وليبراليين ومدنيين وعلمانيين... إلخ، ما بين كبار وصغار، ثوار وفلول... إلخ.

لقد أصبح كل جانب من جوانب حياتنا غريبًا، لم يعد مألوفًا، كل شيء، في البيت، والعائلة والصداقة، والحب، والعمل، وعلاقات العمل، والآباء والأبناء، والأسواق، والاقتصاد والبنوك والشوارع ووسائل المواصلات. وكل تلك الأشياء التي ينبغي أن نشعر معها بالألفة، راحت تفقد تدريجيًّا ألفتها الأولى، فقدت البهجة، فقدت الانتماء إليها، أصبحنا غرباء عنها، وأصبحت غريبة عنا.

وقد أسهم ذلك كله في تزايد مشاعر القلق في المجتمع المصري مع ما يصاحبها من مشاعر وأفكار متعلقة باختلال الشعور بالواقع وبالذات وفقدان لليقين، جراء ذلك الاستخدام المزدوج للدين. فهو مرة يستخدم للحض على السلوك القويم والرحمة والتكافل والتسامح وغير ذلك من القيم الإيجابية، لكنه يستخدم أيضًا، من أجل التحريض على كراهية الآخر ومن أجل تحقير المرأة وازدراء المختلف عنهم في الدين أو الفكر أو الزي أو السلوك، مع ميل أيضًا للكذب والسرية والغموض والضغط العدائي (بالكلام) أو العدواني (بالسلوك البدني أو القنابل أو الأسلحة) على الآخرين. وهكذا تحولت الوظيفة الأساسية للدين فصارت متعلقة بالتخويف والترهيب والتعذيب والتقتيل، هكذا سقط كثير من المصريين قتلى أو جرحى، وسقط كثيرون منهم في براثن ما يسمى في علم النفس بـ«التنافر المعرفي». أعرف أن شيئًا ما يضرني وأقوم به، وأعرف أن كثيرين يخدعوننا وأتظاهر بتصديقهم، وهذه دون شك أمور تعمل كلها على تزايد مشاعر التوتر والقلق والخوف، والأهم من ذلك كله «فقدان اليقين».

لقد فقدنا ذلك الشعور الجماعي بـ «النحن»، وفقدنا كذلك الشعور الجميل بأن الأنا الفردية تذوب في الروح الجمعية، فقدنا اليقين؛ لأننا ما زلنا نشعر بأن المجتمع، وبعد ثورتين، لم يصبح أفضل، بل أصبح أسوأ، كما يقول كثيرون. ها نحن هنا نواجه ونصطدم بالتكرار ذاته، الفعل ذاته، القول ذاته، نشاهد قنوات التليفزيون فنجد الإعلاميين وكذلك الفنانين والمثقفين... إلخ ذاتهم الذين هيمنوا على الشاشات في عصر مبارك، ما زالوا يهيمنون عليها حتى الآن، وإني لأنظر إلى كثيرين منهم الآن فلا أصدقهم، إني لأشعر بهم الآن كما لو كانوا يرتبطون أيضًا بظاهرة عودة الماضي، عودة المكبوت التي تحدث عنها فرويد وكريستيفا وغيرهما، وذكرناها سابقًا. لكن هذا الماضي لم يكن مكبوتًا، بل كان معلنًا واضحًا صريحًا، لكنه، عبر الزمن، تكون وتغير والأمثلة يعرفها الجميع. ويبدو كثير منهم و«كما لو» كان قد أصبح دمية متكلمة، حي وميت في الوقت نفسه،

هو الشخص نفسه لكنه يحاول أن يظهر أنه اختلف، وما هو بمختلف، لكنه يتجمل، إصبع روج أحمر فوق جثة، تكرار دون ملل أو كلل، لا أحد يصدقهم أو يثق بهم، اليقين الذي اعتقده البعض مصاحبًا لهم، تحول إلى لا مبالاة وأحيانًا سخرية، قلق على قلق، يشفي الله من قلقه من يشاء وينقذ.

في رأينا أن الماضي لا يعود بعد غياب فيحدث الشعور بالغرابة بالمعنى الذي تحدث عنه فرويد، في رأينا الماضي كان موجودًا في أعماق الحاضر دائمًا، وعندما يتغير الحاضر وينقضي قد يصبح الماضي مضاعفًا، قد يكتسب قوة إضافية نتيجة ضعف الحاضر. الماضي لا يعود يا دكتور فرويد، الماضي موجود في الحاضر، وكل ما في الأمر هو أنه يسقط القناع عن وجهه، أو أن الغطاء الذي كان موجودا فوقه يسقط لأي سبب من الأسباب، الماضي لا يعود، نحن لم نغادر الماضي، نحن أسرى الماضي، الماضي موجود في لغتنا وكلامنا وطرائق سلوكنا، في علاقتنا بالأحياء والموتى.

الماضي موجود أشبه بالخلية السرطانية النائمة، التي تنتهز فرصة الضعف الذي يعتري حصانة الجسم والاختلال الذي يصيب مناعته، فتظهر، وتتكاثر وتتغول وتتوغل، وتحاول الهيمنة على الحاضر والمستقبل، هنا الماضي قرين الموت، والماضي عدو للحياة لا صديق لها.

إنه القلق الطليق الذي يأتي ويذهب، وقد يصحبه الخوف المستمر أو الذعر والانشغال الدائم لكنه غير المتوجه نحو بالمستقبل أو العمل والحياة والناس مع الشعور بالانفصال بين ما يفكر فيه العقل وما يشعر به الجسد، وشعور أحيانًا بأن العقل تضمره سلاسل من الأفكار المترابطة أو المتناثرة، وأحيانا شعور بأن كل ما يوجد في العقل وفي الوجود خواء. كما تبدو محتويات التفكير ذاتها غريبة ومخيفة أيضًا، مع الشعور بالوحدة، وكذلك الوعي الشديد بأن المرء وحده، حتى لو كان يعيش بين زحام من البشر، وكذلك الخوف من عدم القدرة على التحكم في سلوكه أو تفكيره أو انفعاله، ومن ثم قد يلجأ إلى العزلة أو الصمت أو الاستغراق في الذات أو الحفلات وقد يبحث عن معنى، يجده في الانتماء إلى جماعة ما، قد تكون متطرفة أو إرهابية، لكنها توفر له معنى وكيانًا ربما لم يجدهما داخل ذلك المجتمع الكبير، وقد يزداد حماسة لها ومن ثم تضحيته من أجله بما له، إن وجد، أو حياته، وهي موجودة، وقد يصل به الأمر إلى الاستهانة بحياته وبحياة الآخرين أيضًا. رأيت مساء ليلة الجمعة الخامس من أغسطس ٢٠١٦م لقاءً على قناة العربية مع أحد المنضمين إلى إحدى تلك الجماعات الإسلامية المتطرفة وهو حزب التحرير الإسلامي، وقد مر بخبرات كثيرة من خلال فترة التحاقه بهذا الحزب لفت نظري من بينها ما ذكره عن أنه في إحدى المرات بينما كان طالبًا في

الجامعة حدثت منافسة في بداية مباراة في لعبة البلياردو بين شاب مسلم وشاب مسيحي حول من يبدأ اللعبة، وقد ذكر كل واحد منهما أنه الأفضل ومن ثم ينبغي عليه أن يبدأ اللعبة، وتطور الأمر إلى الحد الذي تم عنده قتل الشاب المسيحي فأصبح جثة هامدة؛ بسبب فكرة متطرفة جامدة عنيفة حول من هو الأفضل والأعلى وبين الدني والأقل. ذلك الشاب، واسمه عيد حسين أو أيد حسين وكان يحكي في البرنامج، قد ميَّز بين الطبيعة الإسلامية السمحة الجميلة والروح الإسلاموية التي تتخذ العنف والتطرف ذريعة والإرهاب وسيلة في تحقيق غاياتها، فتسيء إلى الإسلام والمسلمين.

الفصل الثالث

نظريات مفسرة للتطرف

في كتاباته المبكرة عن «الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي» وعن «التطرف كأسلوب للاستجابة» ربط مصطفى سويف بين التطرف ومفهومي التصلب Rigiditiy والمرونة Flexibility، واعتبر التصلب أساس الجمود، والتوتر، ومن ثم التطرف في الاستجابات. أما المرونة فهي في رأيه، أساس التكامل الاجتماعي وجوهر الإبداع. ويعرف التصلب في الدراسات النفسية بأنه «العجز النسبي عن تغيير الشخص لسلوكه أو اتجاهاته عندما تتطلب الظروف الموضوعية ذلك والتمسك بطرائق غير ملائمة للسلوك والشعور»[1].

والتطرف في تصور سويف قد يكون بالقبول (ويسميه التطرف الموجب)، وقد يكون بالرفض (ويسميه التطرف السلبي). فمثلاً إذا طُلب من شخص تحديد أهم السمات التي يشترطها في تكوين صداقة مع شخص آخر، فإنه سيضع بعض السمات التي ينبغي وجودها ولا يقبل ما دونها (تطرف موجب)، ويحدد أيضًا سمات يرفضها تمامًا (تطرف سالب ويكون التطرف هو شدة القبول أو شدة الرفض).

ونستعرض، عبر هذا الفصل، النظريات السيكولوجية والاجتماعية، المبكرة منها والحديثة، التي حاولت تفسير ظاهرة التطرف، ومن خلال التركيز على أبعاد تتعلق بعمليات التنشئة الاجتماعية التي تسهم في ظهور اتجاهات متطرفة لدى بعض الأفراد وكذلك تلك الخصائص النفسية المميزة لهم وغير ذلك من العمليات. ونبدأ بالحديث عن تلك الجهود المبكرة التي قام بها في مصر أستاذ علم النفس الرائد الدكتور مصطفى سويف، ومن خلال ربطه البارع بين التصلب والتطرف والتوتر والهامشية وغير ذلك من المتغيرات.

أولاً: التطرف كأسلوب للاستجابة

وقد رجع سويف من أجل تحديد مفهوم التطرف إلى كتابات علماء سابقين؛ أمثال كورت ليفين وهارولد أندرسون وليبت وهوايت وهولنجورث وغيرهم. وقد أشارت هذه الدراسات إلى عدد من المعلومات المهمة التي نلخصها على النحو التالي:

١- تشير دراسات الطفولة والارتقاء إلى حدوث حالة من الارتقاء أو اللا تمايز أو السلوك الكتلي العام والتي يبدأ بها سلوك الطفل في أيامه الأولى، سواء من حيث المظاهر الحركية

(١) مصطفى سويف، **التطرف كأسلوب للاستجابة**، دراسات في الشخصية (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨): ٢٥-٢٦.

والصوتية والانفعالية. ويقصد بذلك أن السلوك هنا يكون سلوكًا عامًّا فمثلاً عندما يريد الطفل أن يمسك بشيء فإنه يميل بجسده كله محاولاً الإمساك به ولا يعتمد على يده أو أصابعه فقط كي يقوم بذلك، وكما يحدث خلال مراحل الاتقاء التالية أنه نوع التفكير العام أو المتعلق بالميل إلى إطلاق التعميمات لدى المتطرفين بعد ذلك. وكان التطرف هنا نوعًا من عدم النضج الانفعالي والعقلي على الرغم من النمو الجسمي العام الذي يحدث[٢].

٢- بعد ذلك ينتقل الطفل من حالة اللا تمايز أو تعميم الاستجابة هذه إلى التمايز والتمييز، ومن السلوك الكتلي إلى السلوك النوعي المحدد. ويرجع ذلك إلى تزايد خبراته وتراكم معلوماته ونمو مدركاته وأفكاره.

٣- فالطفل بعد أن كان يستجيب لاقتراب الأم منه، حتى أواخر الشهر الثالث من عمره، بالابتسام والسرور، تبدأ عليه مظاهر الانزعاج ثم البكاء إذا ما عبس وجه أمه أو صاحت مؤنبة إياه (إذا بلل ملابسه مثلاً).

٤- هكذا يبدأ الطفل في التمييز بين المثيرات ويبدأ في تنويع استجاباته في ضوء تباين هذه المثيرات، وهي عملية ستحتاج إلى وقت طويل بعد ذلك حتى تكتمل على المستوى الحركي والاجتماعي واللغوي والانفعالي... إلخ مع تزايد نموه وتنوع البيئات التي يتفاعل معها، وكذلك تنوع المواقف التي يتعرض لها. هكذا يكون من علامات النضج الانفعالي أن ينوع الشخص في استجاباته الوجدانية فيفرح بدرجات ويغضب بدرجات بعكس الشخص غير الناضج كما تقول هولنجورث الذي يستجيب بطريقة الكل أو لا شيء All or Nothing، فلا يتحرك من طرف إلى طرف بالتدريج، بل ينتقل من هذا الطرف إلى ذلك، فجأة أو باندفاع، فيكون متطرفًا في انفعالاته، ومن ثم، أيضًا، في أحكامه.

٥- كذلك يستطيع الشخص الناضج أن يؤجل بعض استجاباته بعكس الشخص غير الناضج الذي يتسم بالاندفاع شبه الآلي، وذلك لأن من علامات النضج الانفعالي القدرة على تحمل التوترات النفسية الناجمة عن إحباط بعض الدوافع أو تأجيلها أو تجاهل التعبير عنها أو الإشباع لها. هكذا تتولد لدى الشخص الناضج أو تتكون لديه القدرة على اكتساب مهارات الانتفاء أو الاختيار العقلي والوجداني والسلوكي، إلى أنه يستطيع أن

(٢) المرجع السابق.

يجعل استجاباته متدرجة لا متطرفة ويستطيع أن يؤجلها لا أن يندفع من خلال التوتر الموقفي نحو التعبير المباشر عنها[٣].

٦- هنا يظهر مفهوم الاستجابات البديلة كتعبير مبكر عن مفهوم المرونة، فالشخص الناضج يقوم بالتدرج في استجاباته، وتكون كل درجة من درجات هذا التدرج، وكأنها أشبه ببديل أقل حدة أو شدة من ذلك البديل النهائي الذي هو التطرف، وفي الوقت نفسه فإن هذا الشخص الناضج يستطيع أيضًا أن يؤجل التعبير مؤقتًا، أو نهائيًّا، عن هذه الحالة الانفعالية التي تشعره بالتوتر أن يبحث من بدائل أخرى لها، أي استجابات أخرى أكثر تكيفية. وقد يكون من بينها الابتعاد عن الموقف المثير للتوتر والانفعال والتطرف، اللامبالاة، الضحك، الخيال، اللعب، الإبداع، تغيير الموقف الذي أثار الانفعال، الاعتذار، التسامح... إلخ.

٧- عندما قام كيرت ليفين، وهو واحد من أشهر علماء النفس الذين ينتمون إلى مدرسة الجشطلت الألمانية بدراسات على التصلب والضعف العقلي وطرح أفكاره حول التدرج والتصلب والتوتر والتشبع، وقد كان يعني بالتشبع أن الشخص ضعيف العقل عندما يندمج في عمل معين، فإنه يصل بعد ذلك بسرعة إلى نقطة يرفض بعدها الاستمرار في العمل، على الرغم من بساطة هذا العمل فعندما أجرى ليفين تجاربه هذه على الأسوياء وقارن بينهم وبين ضعاف العقول، وجد أن الأسوياء لديهم قدرة على مواصلة العمل بدرجة أكبر، أما ضعاف العقول، فيتوقفون عن العمل مرات عدة، لكنهم، ويا للغرابة! لا تضعف رغبتهم في إكماله إطلاقًا، حتى عندما حاول الباحث تشجيعهم على القيام بأعمال أخرى شبيهة بالعمل الأصلي. لقد كان الدافع لديهم يفوق نظيره لدى الأسوياء؛ من حيث الشدة، لكنه لم يكن يفوق نظيره لدى الأسوياء؛ من حيث القابلية للتعديل أو التغيير، أو المرونة، أو التنوع أو التوجه نحو قيمة بديلة أو عمل بديل. هكذا بدا ليفين يطرح مفهوم التصلب ومفاهيم التوتر وسلوك أما.. أو مفهوم المطاوعة Plasticity، وغير ذلك من المفاهيم التي استخدمها سويف وكذلك تلاميذه في دراسات أخرى كثيرة بعد ذلك[٤].

(٣) المرجع السابق: ٥-٦.

(٤) المرجع السابق: ١٤-١٥.

٨- هكذا توصل كيرت ليفين إلى أن ضعيف العقل يتفوق على السوي من حيث درجة تجمد الشكل الذي تنتظم عليه الشخصية أو السلوك لديه أو درجة تحجره وعدم قابليته للانتظام في أي شكل جديد. وهكذا يكون ليفين قد ابتعد أيضًا عن القيام بحصر أو تقييد مفهوم التصلب داخل مفهوم العقل أو الذكاء. فلم يعد «التصلب» بعد هذه الدراسات سمة مقصورة على ضعاف العقول، بل أصبح سمة لكل شخصية جامدة تقاوم التغيير ولا ترى أمامها إلا بديلاً واحدًا لا غيره «إما هذا.. أو ذاك» لكنها لا تستطيع أن ترى أن «هذا وذاك» قد يجتمعان داخل عقل الإنسان وفي وجدانه وفي حياته مثلما يجتمع اللونان الأبيض والأسود في لوحة واحدة، وقد توجد معهما ألوان أخرى دونما تنافر أو صراع. ولعل هذا المفهوم هو المفهوم الذي انبجست عنه أو منه بعد ذلك تلك الأفكار الخاصة التي طرحها العلماء حول الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية، حول «نحن وهم» والأنا والآخر على أنحاء شتى سنشير إليها.

٩- كان ليفين يقوم بدراسته وتجاربه في ثلاثينيات القرن العشرين، لكن تأثيرات هذه الدراسات والتجارب قد امتدت بعد ذلك إلى مجالات الشخصية والإبداع والذاكرة وغير ذلك من المجالات.

١٠- كذلك لم ينظر ليفين إلى التصلب على أنه حالة تميز ضعاف العقول عن الأسوياء تمييزًا تامًّا؛ بل قال إن الأطفال الأسوياء يسلكون أحيانًا أسلوبًا متصلبًا تمامًا في المواقف التي يفقدون فيها اطمئنانهم، أو التي يشعرون خلالها بالضغوط والحاجة إلى مساعدة الآخرين لهم، وإنهم في ظل التوتر والضغوط قد يسلكون ذلك السلوك المتصلب على نحو (يفتقر للمرونة)، وإن هذا التصلب يدل على عجزهم عن الوصول إلى حالة من الاستبصار Insight، أي حالة من إعادة التنظيم للموقف الإدراكي (الاجتماعي أو الانفعالي... إلخ) على نحو ايجابي، وإنه كلما زاد مستوى التوتر زاد مستوى التصلب، فالعلاقة الارتباطية بينهما علاقة موجبة خطية (بالمعنى الإحصائي)[٥].

١١- من دراسات أخرى قام بها هارولد أندرسون تبين أن السلوك المتكامل اجتماعيًّا يتسم بالتفاعل الإيجابي والتعاون والتنوع والمرونة ووجود مواضع التقاء مشتركة، أما السلوك

(٥) المرجع السابق: ١٥.

غير المتكامل، أو غير الناضج، فيتسم بالسيطرة، أحادية الاتجاه (من الأعلى المسيطر إلى الأدنى التابع) وكذلك التصلب الذي يقوم بتعطيل الفروق والاختلاف بين أطراف التفاعل، ويؤكد وجهة نظر واحدة مسيطرة مهيمنة، أيًّا ما كانت عليه من خطأ. وهكذا تكاد تكون السيطرة قرينة التصلب ويكاد يكون التفاعل قرينًا للمرونة ويكون التصلب هكذا سمة الشخصية التي تسعى إلى السيطرة الاجتماعية ومن ثم تقوم بتقليل فرص التنوع والمرونة والتلقائية وتعمل على إثارة الصراعات والاستجابات المتطرفة؛ وذلك لأن هذه النزعة التسلطية هي في ذاتها نزعة متطرفة أيضًا.

١٢- يرتبط التصلب كما قلنا بالتوتر، ويزداد التوتر عندما يزداد شعور الفرد أو الجماعة بالتهديد؛ وذلك لأن هذا التهديد يعمل على حدوث حالة من الاختلال الشديد في التوازن النفسي والاجتماعي، أو البيولوجي، الخاص بالفرد، أو الجماعة. ويكون التصلب أو الرفض للبدائل وتضييق الحدود بين الأفكار، مؤديًا إلى التركيز على فكرة واحدة أو مجموعة من الأفكار المهيمنة التي تصب في اتجاه واحد، إما أن تكون أو لا تكون. تلك هي القضية، هكذا تتراجع المرونة وتشحب ويتصدر التصلب وما يصاحبه من استجابات بالغة التوتر والتطرف الموقف، وقد تتحول إلى عنف وعدوان وإرهاب يتجلى على أنحاء شتى.

١٣- في دراسات أخرى تبين لسويف أن الاستجابات المتطرفة تزداد كلما زاد شعور الفرد أو الجماعة بالهامشية، تلك التي عرفها بأنها خاصية للأشخاص الذين قضت ظروفهم أن يعيشوا في مجتمعين أو حضارتين ليسا مختلفين فحسب بل ومتعارضَين أيضًا، وكذلك كلما كان الموقف الذي يوجد فيه الفرد أو الجماعة مثيرًا للتوتر أو يكتنفه الغموض. هكذا يؤدي التوتر إلى النفور من الغموض (أو العجز عن التحمل له) وقد أشارت أبحاث عديدة إلى ارتباط النفور من الغموض بالتصلب والجمود (مقاومة التغيير)[٦].

الجدير بالذكر أن سويف قد اعتمد في تعريفه للهامشية على تعريف ستونكويست في كتابه «الإنسان الهامشي» الذي صدر عام ١٩٣٧م. وأنا أعتقد أن ستونكويست نفسه قد اعتمد بدوره هنا إلى حدٍّ ما، على تعريف جورج سيميل للغريب، وكما ظهر في مقاله

(٦) المرجع السابق: ٤٢-٤٣.

المعنون بـ «المكان والتنظيم المكاني للمجتمع» عام ١٩٠٨م فالغريب لديه هو شخص يكون له موضعه المحدد في نطاق الجماعة، لكنه لا يكون منتميًا إليها على نحو محدد، شخص موجود على حدود الجماعة، على هامش الجماعة. وعلى الرغم من وجود علاقات طيبة بينه وبين الجماعة، فإنه ينظر إليه على أنه غريب في أعين أصحابها، يسمح له بحرية الحركة، لكنها حرية محددة(٧).

١٤- في دراساته حول الجماعات الهامشية والتطرف قام سويف بالتركيز على دراسة الدراسات المتطرفة لدي أربع جماعات متقابلة؛ هي المراهقون في مقابل الراشدين – المسيحيون في مقابل المسلمين – الإناث في مقابل الذكور – ثم أبناء الطبقة الدنيا في مقابل أعضاء الطبقة العليا. وذلك من خلال فرضية كانت موجودة لديه فحواها أن المراهقين والمسيحين والإناث وأبناء الطبقة الدنيا هم فئات هامشية على نحو ما، ومن ثم يتوقع أن يكونوا أكثر توترًا وأكثر ميلاً للتطرف في الاستجابة. وقد كان التصور الذي طرحه قد أخذ الشكل التالي:

الهامشية	اختلال الشعور بالطمأنينة	التوتر	النفور من الغموض	تطرف الاستجابة
١	٢	٣	٤	٥

شكل رقم (١): يبين الصلة بين بعض المفاهيم الأساسية والتطرف(٨).

وبعد تطبيق مقياس تطرف الاستجابة الذي أعده سويف نفسه قام بتطبيقه على الفئات السابقة كلها وتحققت معظم توقعاته بشكل عام؛ حيث تبين بعض النقاط؛ وهي:

أ- المراهقون من الذكور والإناث والمسلمين والمسيحين أكثر ميلاً للتطرف في استجاباتهم من الراشدين عمومًا.

ب- الراشدون المسيحيون أكثر ميلاً للتطرف من الراشدين المسلمين.

(٧) Georg Simmel, "The Stranger", *The Sociology of Georg Simmel*, translated and edited by Kurt H. Wolff, Free Press Paperback 92892 (New York: The Free Press, 1908): 402-408.

(٨) سويف، **التطرف كأسلوب للاستجابة**: ٤٦.

ج- على عكس ذلك كانت النتيجة بالنسبة للمراهقين؛ فالمراهقون المسلمون كانوا أكثر ميلاً للتطرف من المراهقين المسيحيين.

د- الاستجابات المتطرفة عند الإناث أعلى منها عند الذكور، بشكل عام، ما عدا تلك الحالة الخاصة بالمراهقين المسلمين؛ فهم أكثر ميلاً للتطرف من الإناث المسلمات، وكذلك من المراهقين المسيحيين، كما سبق أن ذكرنا. وهذه نتيجة جديرة بالتأمل خاصة ونحن نعرض الآن ونناقش دراسات أجريت في ستينيات القرن الماضي وعلى عينات من الأفراد معظمهم ينتمون إلى الطبقة الوسطى التي تعيش في المدينة، ومن طلاب المدارس والجامعات والموظفين وأعضاء النوادي. وقد جرت تحت نهر الحياة في مصر حيوات كثيرة منذ ذلك التاريخ، معظمها مياه عكرة والقليل منها رائق كما يعرف المتابعون لتاريخ مصر عن العقود الستة الأخيرة.

هـ - وأخيرًا فقد أوضح الدكتور سويف أن المراهقين من أبناء الطبقة الدنيا أكثر ميلاً للتطرف في الاستجابة من المراهقين من أبناء الطبقة المتوسطة العليا[٩].

١٥- هكذا تبين دراسات سويف الرائدة هذه أن الهامشية، كما تتجلى بشكل عام، على المستوى العمري (المراهقون) والديني (المسيحيون) والنوعي (الإناث) والاقتصادي (أبناء الطبقة الدنيا الفقيرة) قد تمثل بيئة صالحة لظهور التطرف، لكننا نجد هناك استثناءات أيضًا جديرة بالتأمل، فالذكور المراهقون المسلمون أكثر ميلاً إلى التطرف من الذكور المراهقين المسيحيين. ينبغي أن نذكر هنا أن سويف لم يضمن دراساته عينة مناسبة من أبناء الطبقة المرتفعة اقتصاديًّا، وكذلك، وهذا هو المهم في رأينا، أن مثل هذه الدراسات إنما تقيس الاستعداد للتطرف وليس التطرف الفعلي الذي عايشناه وعانينا منه خلال العقود الأخيرة في مصر ولا يزال العالم يعاني منه الآن على أنحاء شتى.

إن مثل هذه الدراسات إنما تقدم لنا مؤشرات استعدادية وليست سلوكيات فعلية، أي تعطينا ميولاً استجابية وليس أفعالاً عملية فعلية. لكنها على كل حال مؤشرات وميول تكشف عن ضرورة أن نضع «الهامشية» بمكوناتها المختلفة في الاعتبار عندما نتصدى لتفسير ظاهرة التطرف وارتباطها بالإحباط والعدوان والإرهاب. فالهامشية بيئة مولدة للإحباط، كما أن الشعور

(٩) المرجع السابق: ٤٧.

بالإقصاء والإبعاد عن السلطة ومركز اتخاذ القرار والهامشية الاقتصادية والمعنوية وغيرها، نوع من التجاهل والإهمال والنظرة الفوقية/ الدونية تمثل كلها تربة خصبة تولد بدونها توترًا وإحباطًا وسلوكيات متطرفة عديدة.

الضحك والتصلب

١٦- الجدير بالذكر أنه في الوقت الذي كان كيرت ليفن يكتب فيه عن التصلب والمرونة والآلية في ألمانيا كان هنري برجسون قد نشر أيضًا كتابه عن «الضحك، بحث في دلالة المضحك» عام ١٩٢٤م. وقد طرح خلاله فرض الآلية الذي فسر من خلاله كل سلوك مضحك، والآلية قريبة هنا من التصلب. فنحن نضحك، كما قال، من تصلب ما هو حي، وفي تلبس الحياة بإهاب الجماد، نحن نضحك عندما نشاهد صلابة آلية؛ حيث ينبغي أن توجد مرونة إنسانية يقظة، ونضحك من كل تصلب وجمود في الجسد أو الطبع أو الفكر ونضحك من أوضاع الجسم الإنساني وحركاته وإشاراته؛ حيث يذكرنا هذا الجسم بمجرد آلة تتحرك[١٠].

وقد كان برجسون يتحدث عن الضحك في المسرح وفي الحياة، فقال إنه لا يحدث إلا في ظل التفاعل الاجتماعي، ودوره الجوهري تصحيح العيوب الاجتماعية المرتبطة بالآلية والجمود والتصلب ونقصان المرونة والانعزال والغرور، وتهديد الآخرين وإخافتهم... إلخ. فالضحك، لدى برجسون، ضحك جماعة، جماعة تضحك؛ كي تتجاوز كل موقف جامد أو مفعم بالتوتر، ومن ثم تكون الفكاهة والضحك وسيلة لعبور ذلك الموقف وهذا التوتر.

قد يكون المضحك في الشخص نفسه، وطريقة كلامه، أو طريقة حركته أو تفكيره أو تفاعله مع الآخرين، أو تظاهره بالحكمة، وكأنه يقول ما لم يقل من قبله، أو أنه مبعوث العناية الآلية لهداية البشر الضالين البعيدين عن الطريق القويم.

يقول برجسون: «تصور شخصًا لا مرونة في عقله وحواسه، يرى ما ليس بموجود بعد، ويسمع بالأصوات ما ليس له حضور بعد، ويقول ما لم يوافق المقام. إن الضحك في هذه الحالة يكون

(١٠) هنري برجسون، **الضحك: بحث في دلالة المضحك**، ترجمة سامي الدروبي، وعبد الله عبد الدايم، ط. ٣ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣): ١٦.

موجودًا في الشخص نفسه، فالشخص هو الذي يقدم له كل شيء، المادة والصورة، العلة والمناسبة، وذلك هو الذاهل»[١١].

وقد أصبح فرض «الآلية» الذي يتم تفسير كل سلوك مضحك بواسطته بمثابة اللحن الدال لدى برجسون، لكنه أضاف إلى ذلك قوله إن التوتر والمرونة هما القوتان المتكاملتان اللتان تستخدمهما الحياة، فإذا أعوزا الجسد كانت كل أنواع الكوارث وكانت العاهات والأمراض، وإذا أعوزا الفكر كانت شتى درجات الفقر النفسي وشتى أشكال الجنون، وإذا أعوزا الطبع أخيرًا، كان فقدان التلاؤم مع الحياة الاجتماعية هو أصل الشقاء وسبيل الجريمة في بعض الأحيان[١٢].

إن التصلب في الجسد والفكر والطبع من الأمور المهددة التي يتوجس منها المجتمع خيفة؛ وذلك لأنه يرى فيها، كما قال برجسون «إيذانًا بنشاط يغفو وينعزل، ويميل إلى الابتعاد عن المركز المشترك الذي يدور حوله المجتمع». وهكذا يكون التصلب في الجسد والفكر والطبع، في رأي برجسون، البداية الحقيقية للانعزال والبعد عن التفاعل مع الناس، للتمركز حول الذات ونفي الآخر أو تجاهله. وماذا يكون جواب المجتمع على هذا التصلب وهذا الانعزال والابتعاد عن المركز، وتلك الجهامة؟ يقول برجسون: «إنه يستجيب لهذه المظاهر كلها من خلال حركة بسيطة، وما الضحك في الواقع إلا شيء من هذا القبيل، فهو بالخوف الذي يوحى به أو السخرية التي يعرضها، يقمع الابتعاد عن المركز، ويجعل الفاعليات الثانوية التي تخشى أن تنعزل وتنام دائمة اليقظة متبادلة الصلة، ويبعث اللين في كل ما يبقى على سطح المجتمع من تصلب آلي»[١٣].

يبدو أن برجسون، ومن خلال فلسفته الشاملة حول الوثبة الحيوية والتطور الخلاق، لم يكن قد أدرك بعد أن التصلب قد لا يكون قابلاً للعلاج من خلال الفكاهة والضحك وحدهما؛ وذلك لأننا وجدنا مجتمعات كثيرة عبر الإنسانية تحرم الضحك، وتعتبره أداة من أدوات الشيطان، وتفضل الجهامة والعبوس عليه؛ وذلك لأنه يحرر العقل والوجدان، وقد يحرر السلوك أيضًا؛ فتزداد مطالبات الناس بالحرية وتتزايد سخريتهم من السلطة، أيًّا كانت، وكما أوضح إمبرتو إيكو ذلك في روايته المعروفة بـ «اسم الوردة». وما الضحك إلا تعبير من تجليات المرونة الهاربة من كل تصلب وكل جهامة، بينما التصلب يقيد هذه المكونات كلها ويجعل الإنسان أشبه بالآلة يسهل قياده، ولذلك

(١١) المرجع السابق: ١٨.
(١٢) المرجع السابق: ١٧.
(١٣) المرجع السابق: ٢١.

فقد تنبه باحثون ومفكرون آخرون إلى تلك النتائج بالغة السلبية للجمود والتصلب والتطرف على حياة الأفراد والجماعات وعلى مستقبل الإنسانية وحضارتها عامة، فبدأوا يدرسون علاقة التطرف بالعنف والإرهاب والعدوان والحروب، وانتبهوا كذلك إلى أهمية الإبداع ودوره في تقدم الأمم والشعوب، ومن دراستهم للإبداع تنبهوا إلى أهمية المرونة. المرونة التي هي جوهر الإبداع والفن كما تنبه إلى ذلك ليفين وبرجسون وسويف وغيرهم على نحو مبكر.

١٧- أجرى سويف أيضًا سلسلة من الدراسات عن الفروق في الاستجابات المتطرفة بين الأسوياء والجانحين وكذلك عن علاقة هذه الاستجابات بالعصابية والذهان أو المرض العقلي والانطواء والانبساط وبين الريف والحضر. كما أنه قد عرض لدراسات له ولآخرين، اشتملت على مقارنات بين عينات من الإنجليز والألمان أو المصريين والسوريين والأردنيين وغير ذلك من الدراسات المهمة، لكنها التي قد تخرج بنا، إلى حدٍّ ما، عن الهدف الذي نتوجه اليه في هذا الكتاب.

١٨- هناك أيضًا دراسات أخرى قامت بها صفاء الأعسر؛ منها دراسة عنوانها «دراسة تجريبية للفروق بين الجنسين في الجمود» عام ١٩٦٤م هدفت إلى التحقق من أن التصلب سمة عامة تظهر في المواقف المختلفة ولا يتوقف ظهورها على موقف معين. وقد تأكد لها ذلك من دراستها؛ حيث تبين أن الميل إلى إصدار استجابات متطرفة يمثل جانبًا من عامل مركب هو التصلب، وهي نتيجة اقترب منها علماء آخرون؛ أمثال برنجلمان وسويف وايزنك وفرغلى فراج وغيرهم في أكثر من بحث(١٤).

١٩- كذلك تبين من بعض هذه الدراسات أن التطرف يشتمل مكونين أساسيين؛ هما العامل الشكلي، ويتعلق بالخصائص الشكلية للمنبهات أو المواقف أو الموضوعات أو الصور التي يتم قبولها بشدة أو يتم رفضها بشدة، بينما يتعلق المكون الآخر بالمضمون الاجتماعي الذي يتم قبوله بشدة أو الذي يتم رفضه بشدة أيضًا(١٥).

ولسوف يأخذ مفهوم الشكل معنى آخر في دراسات مليتون روكيتش عن الجمود، في بداية خمسينيات القرن الماضي، وما بعدها؛ حيث يصبح التسلط، لديه، بنية وشكلاً، خارجيًّا، عامًّا، بصرف النظر عن مضمونه أو عن المواقف التي يظهر فيها. فبالإضافة إلى تطرف اليمين وتطرف

(١٤) سويف، **التطرف كأسلوب للاستجابة**: ٥١-٥٤.

اليسار؛ هناك أيضًا تطرف المركز أو الحشود، والذي يتجلى في الفاشية والنزعات القومية الأخرى، وأن الالتحاق بالجماعات المتطرفة إنما ينشأ في رأيه؛ بسبب تأثير ناتج عن تلك المعتقدات الخاصة حول مدى التقبل للعدو، أو الذين لا يتقبلون أهداف الجماعة، وتمثيلاً لا حصرًا، توجد في باكستان معتقدات حول إمكانية قبول العدوان ضد اليهود، ومن ثم فإنه قد يمكننا ومن خلال هذا المعتقدات التنبؤ بطبيعة هؤلاء الأشخاص الذين سيلتحقون بجماعات معادية للسامية. وللفروق الثقافية دورها الكبير في مدى التقبل للعدوان نحو جماعات معينة، كما أنها تفسر حدوث التطرف تجاه أهداف معينة. وحيث إن بعض هذه المعتقدات قد يمكن تغييرها من خلال التدخل المناسب؛ فإنه قد يمكن، عن طريق هذا، تخفيض مدى انتشار التطرف وعدم تشجيعه، إضافة إلى تحسين الظروف الاقتصادية والتعليمية والتربوية والعدالة الاجتماعية للناس بشكل عام في أي مكان.

ولا يقف التطرف بمفرده كخاصية مستقلة؛ فهناك مدى طيفي كبير من السلوكيات والمفاهيم التي قد يعمل التطرف، أو ينشط، من خلالها. ويمتد هذا المدى من الاهتمام المعتدل بقضايا دينية أو سياسية معينة إلى الاستحواذ والهوس، إلى التعصب الأعمى والتطرف وغير ذلك من السلوكيات.

ثانيًا: نظرية الهوية الاجتماعية

وفقًا لما قاله تاجفيل عام ١٩٧٢م، فإن الهوية الاجتماعية هي ذلك الجانب من مفهوم الذات الموجود لدى الشخص والذي يستمد وجوده من عضويته في جماعة (أو جماعات) اجتماعية إضافة إلى القيمة والدلالة الوجدانية الخاصة بمثل هذه العضوية[١٥].

وتقول نظرية الهوية الاجتماعية Social Identity Theory إننا نصنف أنفسنا باعتبارنا أفرادًا ينتمون إلى جماعات. ويتم تصنيف الجماعات التي ننتمي إليها على أنها جماعات داخلية In-groups، أما الجماعات الأخرى التي لا ننتمي إليها فيتم تصنيفها على أنها جماعات خارجية Out-groups. وتتكئ نظرية الهوية الاجتماعية على المبادئ الخاصة بالمقارنة بين الجماعات. فعندما تقارن جماعة نفسها بجماعة خارجية معينة أخرى أو تشعر بنوع من التهديد لهويتها يكون أمام أفرادها ثلاثة اختيارات أساسية؛ هي:

(١٥) Cottam *et al., Introduction to Political Psychology*: 269-270.

١- أن يتركوا هذه الجماعة المعرضة للتهديد ويقوموا بالالتحاق بجماعة أخرى ذات منزلة اجتماعية أعلى، ويسمى هذا بالحرك الاجتماعي Social Mobility.

٢- أن يقوموا بتغيير الأساس الذي تتم المقارنة في ضوئه، ويسمى هذا بالإبداع الاجتماعي Social Creativity.

٣- أنهم قد يسعون من أجل المنافسة مع الجماعات الأخرى المناوئة لجماعتهم أو ذات المنزلة الأعلى من منزلتها، ويسمى هذا بالتنافس Competition. ومن الممكن أن تؤدي المنافسة إلى الصراع ويؤدي الصراع إلى تنامي العداوة Hostility (المشاعر العدائية) تجاه الجماعات الخارجية الأخرى لكن دون القيام بسلوكيات عدوانية تجاهها. وقد تؤدي هذه المشاعر العدائية إلى القيام بأفعال أو سلوكيات عدوانية فعلية Aggressive بكل ما تشتمل عليه هذه السلوكيات من تدمير وحرق وخطف وتفجيرات وألفاظ مهينة ومحقرة من تلك الجماعات الأخرى أيضًا.

وقد يفسر ما سبق السبب في تحول بعض الجماعات إلى الإرهاب (أو الإرعاب)، فالجماعات التي تتحول إلى الإرهاب تجد نفسها، عادة، مهددة بواسطة تلك المنزلة أو المكانة الخاصة بجماعة أو جماعات أخرى أعلى منها أو متفوقة عليها أو تحصل على مزايا لا تحصل هي عليها، وترى أنها جديرة بها. ومن ثم قد تؤدي تلك المقارنات وما ينجم عنها من مشاعر بالإحباط والظلم وغياب الحق والحقيقة إلى مثل تلك السلوكيات العدوانية الموجهة من خلال دوافع سياسية والتي يطلق عليها غالبًا اسم «الإرهاب».

لكن الإرهاب بهذا المعنى، قد يكون أمرًا تقوم به جماعة ما تشعر أنها أقل حظًّا وأكثر حرمانًا تجاه من تشعر أنهم سلبوها حقوقها، وهذا المعنى لا يكفي وحده لتفسير ذلك الإرهاب العابر للحدود والذي حدث مثلاً في فرنسا وبلجيكا وغيرهما من قبل جماعات من المهاجرين المسلمين أو اللاجئين الذين ذهبوا إلى تلك البلدان بعد تفجر الأزمة السورية في عام ٢٠١٢م[١٦].

تفترض نظرية الهوية الاجتماعية أيضًا أن الأفراد يكونون مدفوعين لتطوير هوية اجتماعية إيجابية، وأن ذلك يتم من خلال عمليات، يقومون بها، لترسيخ ذلك التميز الإيجابي الخاص بالجماعة؛ حيث يريد هؤلاء الناس أن يعتقدوا أن لديهم خصائص إيجابية وأنهم يتوحدون

(١٦) المرجع السابق: ٤٨.

بأنفسهم مع جماعات يعتبرونها جماعاتهم الداخلية، فإنه ولأنه ليست الجماعات، كلها، هي التي يمكن النظر إليها على أنها إيجابية، يقوم الأفراد بالمعالجة لمعتقداتهم أو تكوين صور حولها من أجل أن تظل محتفظة بصورة ذات إيجابية. وحتى هؤلاء الأفراد الموجودين في الجماعات المسيطرة قد تكون لديهم مشكلات فيما يتعلق بصورة الذات المتعلقة بجماعاتهم، خاصة عندما يعتبرون مزايا هذه الجماعة غير مبررة أو غير موجودة حتى يتصوروها.

وقد أشارت دراسات عديدة إلى أن البشر قادرون على تكوين أو تعديل الصور النمطية الاجتماعية من أجل التعامل على نحو مناسب مع صورة الذات الخاصة بهم. هكذا قد يتم تعديل هذه الصور كي تبرر حالات غياب العدل الاجتماعي، ويتم القبول بهذا الغياب أو لأسباب دينية تتعلق بالفروق بين الناس، أو الرفض له لأسباب اقتصادية وسياسية تتعلق بضرورة الكفاح من أجل العدالة الاجتماعية[١٧].

ثالثًا: نظرية الصورة Image Theory

ويقول أصحاب هذه النظرية إنه بينما يستطيع الفرد أن يحتفظ بداخله بالعديد من الصور المختلفة الخاصة بجماعته الداخلية، وكذلك الجماعات الخارجية التي يشعر بالعداء تجاهها، فإن صورة واحدة تكون هي المسيطرة عليه وتسمى الصورة المهيمنة أو الصورة المسيطرة، إنها تلك الصورة التي تعتمد في تكوينها على نوع ما من الإدراك بأن جماعة ما أخرى؛ جماعة تمتلك القوة والثروة وربما الثقافة على نحو استثنائي وظالم، وأن ذلك لم يحدث إلا لأن الجماعة الأخرى قد امتصت ثروات ومقدرات خاصة بنا. هكذا قد تكشف الصورة الخاصة بتلك العلاقات الموجودة بين الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية عن وجود نوع من الظلم أو الغياب للعدالة أو المساواة أو الشرعية، وعن أنه يتم تغيير مثل هذه العلاقة من خلال بعض الأفعال العنيفة التي تسمى في الغالب بالإرهاب. والإرهاب هنا مصطلح يعبر عن وجهة نظر الجماعات الأكثر منزلة أو مكانة وثروة، فما تقوم به تلك الجماعة أو الجماعات المناوئة إنما يمثل تهديدًا لمكانتها المتفوقة وخطرًا على وجودها أيضًا[١٨].

(١٧) المرجع السابق: ٤٩.

(١٨) المرجع السابق: ٢٧٠.

رابعًا: نظرية العزو Attribution Theory

تهتم هذه النظرية بدراسة كيفية إدراك الفرد – أو الجماعة أو الجماعات – الأسباب التي يرجع إليها سلوكه، هل هي أسباب داخلية أم خارجية؟ مثلاً هل يعود النجاح أو الفشل في العمل، أو الامتحان، أو الحياة، لأسباب داخلية تتعلق بتركيز الطالب واجتهاده ومثابرته وإرادته، أم لأسباب خارجية اجتماعية؛ مثل المحسوبية والعلاقات والمجاملة او المؤامرات التي حيكت ضده أو، كذلك، إنه يرجع إلى أسباب خارجية، توجد خارج هذا العالم (الحظ أو القدر أو النصيب... إلخ). وفي ضوء اعتقاده المرء أن الأسباب التي أدت إلى نتيجة معينة في سلوكه هي أسباب داخلية (تتعلق به) أو خارجية (تتعلق بأسباب أخرى تقع خارجه) أو أنها عبارة عن مزيج من (أ) و(ب)، في ضوء ذلك كله تكون مشاعره واتجاهاته وسلوكياته تجاه ذاته وتجاه الآخرين[١٩].

ويعتبر فريتز هايدر العالم الأول الذي ارتبط اسمه بهذه النظرية، وذلك عندما قدم تصورًا حاول أن يفسر، من خلاله، تلك الشروح أو التفسيرات الشخصية التي يرجع إليها الأفراد – أو الجماعات – نجاحهم أو فشلهم، ومن خلال التركيز على القوى البيئية أو الخارجية (الحظ – القدر – صعوبة المهمة أو العمل – تدخل الآخرين – المؤامرات... إلخ)، أو من خلال التركيز على الأسباب والدوافع الداخلية والإرادة، والمثابرة... إلخ، والنتيجة النهائية للسلوك.

وقد طرأت تطورات كثيرة، على هذه النظرية، على يد علماء آخرين؛ أمثال جونز وديفيد وكيلي وديسي وغيرهم. ولسنا في حاجة الآن إلى أن نستعرض هنا هذه التطورات بالتفصيل، أما ما تعتقده أنه ينبغي الإشارة إليه، في سياق مبحثنا الحالي، فهو تلك الإضافة التي قدمها علماء؛ أمثال ماكيلاند وونتر إلى هذه النظرية، وذلك من خلال حديثهم عن دافعية الإنجاز Achievement Motivation ودافعية التمكن أو الإتقان Competence Motivation، وكذلك الدافع إلى القوة Power Motivation؛ وذلك لأن هذه الدوافع يبدو أن لها دورًا مهمًّا في عمليات الصراع والمنافسة والوصول إلى السلطة. وبالمعنى السياسي تحديدًا هنا، فالأكثر إنجازًا وتمكنًا وقوة قد يكون هو الأقدر على التغلب في تلك الصراعات التي تكون الغاية فيها هي المبررة للوسيلة، أو

(١٩) أدريان فورنهام، «مركز التحكم وأسلوب العزو»، في **المرجع في الفروق الفردية في السلوك الاجتماعي**، ترجمة عبد اللطيف خليفة، وعبد المنعم شحاته محمود (تحت النشر): ٣٧٤.

بالأحرى قد تكون الغاية هي الوسيلة، وتكون الوسيلة هي الاستراتيجية وتكون الاستراتيجية معبرة عن الأيديولوجيا، وتكون الأيديولوجيا هي المحددة للمعتقدات والقيم والتفضيلات والاتجاهات والسلوكيات كما سبق أن شرحنا.

وقد وصلت بحوث العزو السببي، في النهاية، عند بعض الباحثين إلى استخدام مفهوم جديد هو مركز الضبط أو مركز التحكم Locus of Control ، ويقصد بهذا المفهوم التمييز بين نوعين من الأفراد أو الجماعات؛ أولهما يعتقد أصحابه أنهم، بإرادتهم، ومثابرتهم، وعملهم، وتنظيمهم لأوقاتهم وحسن اختياراتهم... إلخ يحددون مصيرهم ومستقبلهم. ويطلق على هذه الفئة من الأفراد مصطلح «أصحاب مركز الضبط الداخلي» فهم يعتقدون مسار حياتهم يخضع لرغباتهم وإرادتهم الداخلية الخاصة، وفي مقابل هؤلاء نجد طائفة من البشر يشعرون أن قدرهم ومصيرهم وحياتهم، بشكل عام، لا يخضع أبدًا لأي تحكم داخلي خاص؛ من جانبهم؛ فهم كالريشة في مهب الريح، تتلاعب بهم كيف تشاء، ومن ثم ينظرون دومًا إلى خارجهم، أي إلى الحظ والظروف والمصادفة أو إلى رؤسائهم ومرشديهم كما في حالة الجماعات المتطرفة، أو المنغلقة على نفسها، والتي يكون زعيمها أو مرشدها أو معلمها قادرًا على التلاعب بهم كيف يشاء، وهم بين يديه كالميت بين يدي من يقوم بغسله وتكفينه.

هكذا يبحث ذوو التحكم الخارجي هؤلاء عن تبريرات دومًا ومساندات وتوجيهات خارجية، فهم كما يعتقدون، أصحاب رسالة سامية وهدف نبيل، يرخص دونها كل غالٍ، ويهون في سبيلها كل نفيس، حتى لو كانت هي أرواحهم ذاتها يفجرونها أو أرواح الآخرين التي حرم الله قتلها.

هكذا ينظر صاحب «مركز الضبط الخارجي» إلى نفسه على أنه ضحية لسلطة غاشمة، أو لظروف ظالمة، أو لمؤامرة خارجية ضد عقيدته، ولا ينظر أبدًا إلى ذاته وطرائق تفكيره وممارساته باعتبارها متغيرًا أساسيًّا مساهمًا في هذا الوضع الذي وصل إليه. وقد ينعزل عن الواقع والحياة ويقيد نفسه داخل إطار خاص بجماعة داخلية ترى أن كل ما نقوم به «نحن» صواب، وكل ما يقوم به «الآخرون» أو «هم» خطأ بيِّن وضلال مبين.

الإعزاءات الخارجية: يكون الناس عرضة لأن ينسبوا أسباب النشاط ليس فقط إلى ملامح أو مميزات الموقف الذي يجب عليهم أن يستجيبوا له جميعًا وبطريقة متسقة ومتميزة، كما أكد ذلك كيلي سنة ١٩٦٧م، ولكنهم أيضًا يهتمون بالظروف البعيدة والدقيقة التي تنقل فكرة ما أو غيرها –

صحيحة أو خاطئة عن الأسباب الاجتماعية والطبيعية؛ مثل إعزاء سبب ما إلى التطور أو قوانين الصدفة، أو الظروف الاجتماعية. وقد تقع هذه الظروف خارج مجال تحكم الفرد؛ مثل الثقافة وأساليب تربية الأطفال وعمليات التنشئة الاجتماعية والتنظيم العسكري أو الصناعي، والنظام الاجتماعي، وتركيب الطبقات، وبناء القوة، والمؤسسات التي تفرض الفروق الجنسية والعرقية ومؤسسات الأعمال الكبيرة. وأيضًا يصل الأمر حتى الأسباب الخارجية؛ كالصهيونية العالمية أو الشيوعية، والمؤتمرات والاضطهادات وعمليات التشويش الإلكتروني التي يمكن تحديدها والتي لا يمكن تحديدها أيضًا(٢٠).

الإعزاءات بالقوى الغيبية والخارقة: وهنا نجد أن هناك الملايين من أشباه علماء النفس خلال تاريخ البشرية كانوا عرضة لأن ينسبوا الوجود وأسبابه إلى قوى غيبية وخارقة للطبيعة؛ مثل الكون، الآلهة، الملائكة الحارسة والقديسين، الشيطان، القدر، السحر، الشر، الأرواح، الحظ، الأجسام السماوية، التلباثي أو التخاطر العقلي، الرؤية الشفافة، المعرفة الخارقة، القدرات النفسية غير الطبيعية، ومما له أهمية خاصة بالنسبة للأطفال نجد الجنيات الطيبات وسانتا كلوز أو بابا نويل. وهكذا نجد أنه فيما وراء المحددات الخاصة بالإعزاءات السببية الداخلية والخارجية التي وصفها هايدر سنة ١٩٥٨م، وجونز ونسبت سنة ١٩٧٢م، وكيلي سنة ١٩٦٧م وأيضًا الإعزاءات داخلية المنشأ وخارجية المنشأ التي وصفها كروجلانسكى سنة ١٩٧٥م. وذلك خلال تفسيراتهم للعلاقات الإنسانية وإدراك الفرد، نجد أن هناك محددات أخرى مفارقة، أو متعالية على المواقف، وخاصة بالمعتقدات حول الوجود والسببية، ويبدو أنها مشتقة من سياقات فلسفية وأيديولوجية وثقافية أكثر بعدًا من مواقفها الخاصة والنوعية، والملايين العديدة منا هم ملاحظون عن طريق وسائل الإعلام الجماهيرية لعدد قليل من الممثلين المشتركين في السياسات الدولية والقومية ووسائل التسلية، والرياضيات، والجرائم والنشاطات العسكرية الدولية والمحلية. وكملاحظين نحن نكوِّن اتجاهات ونأخذ جوانب مختلفة مع أو ضد هؤلاء الممثلين، واعتمادًا على اتجاهاتنا ندرك الوجود وما يحدث فيه بطرق مختلفة، ونفسرها أيضًا بطرق مختلفة. ومن الصعب أن نقول ما إذا كان الوجود المدرك يسبق أو يأتي بعد التفسير السببي، فالسبب قد يتم تحديده من خلال الملاحظ وربطه بالتهيؤات أو الاستعدادات الداخلية، وقد يتم ربطه بالظروف الخارجية. ويعتمد ذلك على الاتجاهات الخاصة

(٢٠) المرجع السابق.

بالملاحظ، ولكن مما له أهمية أيضًا أن نفكر فيما إذا كانت الإعزاءات الداخلية كوسائط هامة للسلوك، ترجع بجذورها البيولوجية أم إلى التعلم، وهل تعد الإعزاءات الداخلية والخارجية مؤيدة أم معارضة للوضع الراهن، أيضًا ما إذا كانت الإعزاءات الخارجية تتم من خلال إرجاعها إلى قوى الطبيعة، أو قوى خارقة للطبيعة غيبية[٢١].

إن البشر سوف يشتركون في صراعات وحروب مع بعضهم ليس من أجل كون هذه الإعزاءات خارجية أو داخلية، ولكن من أجل الإعزاءات التي يعتبرها كلٌّ منهم أكثر صدقًا، وربما كان الأكثر مناسبة؛ وهنا نقول إن الحروب قامت من أجل الإعزاءات الوجودية والسببية الخاصة بشخص ما أكثر من كونها قامت من أجل اعتقاد ما سببي أو وجودي صادق في حد ذاته وطريقة موضوعية.

خامسًا: خلع الهوية ونزع التفرد والتجرد من الإنسانية

هنا يتحدث زيمباردو، عالم النفس الأمريكي، عن عمليتين أساسيتين في تحويل الإنسان، أيًّا كان انتماؤه الديني أو العرقي، إلى كائن متطرف يمارس العنف والتعذيب للآخرين، وربما القتل لهم، على نحو مجرد من الإنسانية. وقد أشار إلى عمليات التعذيب التي قام بها الجنود الأمريكيون إلى العراقيين في سجن «أبو غريب» وإلى غير ذلك من الأمثلة التي يتحول من خلالها الإنسان إلى ما يشبه الوحش أو المسخ المجرد من الإنسانية. وهناك عدد من العمليات النفسية والاجتماعية لها دور هنا؛ حيث أشار إليها زيمباردو ومن خلال مصطلحات؛ مثل خلع الهوية ونزع التفرد والتجرد من الإنسانية وغيرها. ويقصد بعملية عملية خلع الهوية الـ Depluralization، تلك العملية التي تحدث عندما يتم التخلي عن الهويات الجمعية السابقة أو خلعها. وهناك أيضًا كذلك عملية نزع التفرد Deindividuation وهي العملية الخاصة بالفقدان أو التخلي عن الوعي الذاتي والفهم التقييمي أو النقدي والذي قد يحدث لأفراد يشعرون به عندما يلتحقون بالجماعة، ومن ثم فإنهم يصبحون مجهولين أو مجرد أعضاء. ولعمليات التبرير الأخلاقي Moral Justifications كما أشار باندوروا دور كبير هنا. كما يكون للأماكن والمواقف التي يتم التجنيد من خلالها دور مهم أيضًا خلال محاضرة في الجامعة، أو في نادٍ، أو كافيهات الإنترنت، أو أماكن العبادة أو الفنادق الرخيصة، أو المنظمات غير الحكومية، أو المقاهي، أو مع الأقارب والأصدقاء وغيرهم،

(٢١) Rokeach, "Some Unresolved Issues in the Theories of Beliefs": 261-304.

وكذلك مواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت وبيوت الشباب، السجون... إلخ. وقد يتم تصميم مواقع تفاعلية، تشبه المواقع التجارية، ويتم استكشاف من تتفق خصائصه وصفاته مع الجماعة ومعاييرها ومخاطبته، بعد ذلك، بأشكال مباشرة وغير مباشرة، وذلك في المواقع الفعلية أو الافتراضية عن طريق من يسمون بالمراقبين او المستكشفين Spotters. وقد يتم ذلك بشكل إجباري كما في تجنيد الأطفال إجباريًّا لدى جماعة نمور التاميل الانفصالية في سيريلانكا مثلاً.

كذلك فإن لمحاضرات بعض الدعاة في المساجد وخطب يوم الجمعة دورًا كبيرًا في انتماء الشباب لمثل هذه الجماعات في البلاد الإسلامية. والأمر نفسه صحيح بالنسبة للبرامج والقنوات التليفزيونية التي أصبحت تتوالد كل يوم على نحو يصعب حصره. وقام السادات ونظامه أيضًا بدور في مصر جدير بالاعتبار، من خلال تدعيمه للجماعات الدينية من أجل ضرب أصحاب التوجهات اليسارية والاشتراكية والناصرية.

ولعمليات تغيير الأفكار وغسيل المخ دور مهم أيضًا، ويتمثل ذلك في الرسائل والوسائل الإعلامية التي تنقلها المحاضرات العامة، وخطب الجُمَع في المساجد، وفي النوادي، وفي وسائل الإعلام، وأشرطة الفيديو والكاسيت، والكتب الموجودة في المكتبات وعلى الأرصفة، وفي وسائل المواصلات العامة والسيارات الخاصة، والأغاني والأناشيد والقصائد الشعرية، ومواقع الإنترنت، والرسائل النصية (SMS)... إلخ. ورسائل بن لادن والظواهري وغيرهما التي تحرص قناة الجزيرة دائمًا على بثها هي نموذج على ذلك.

وهناك عملية أخرى مهمة في تحويل الإنسان العادي إلى إنسان متطرف في عنفه، ويقصد بها عملية تجريد أو تجرد العدو من الإنسانية Dehumanization. وهي أداة قوية في جعل المجندين المحتملين، في جماعة ما، يفهمون مدى قسوة ووحشية عدوهم وتجرده من الإنسانية، أو يوظف ذلك أيضًا من أجل تدعيم/ تعزيز المعتقدات الموجودة بالفعل لدى الذين اندرجوا في الجماعة[٢٢].

فمن خلال عمليات الدعاية التي تقوم بها الجماعة، ومن خلال لغة أعضائها يتحول العدو إلى شيطان يُعرف بأنه مجرد من الإنسانية، أو أنه وحش، ومن ثم يكون التهديد بالعنف ضده أمرًا مقبولاً بل ومرغوبًا أيضًا[٢٣].

(٢٢) Philip G. Zimbardo, *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil* (New York: Random House, 2007): 295.

(٢٣) المرجع السابق: ٣٠٧.

وكما وصف زيمباردو ذلك فإن «التجريد من الإنسانية» هو المكون الرئيسي في فهمنا. ذلك السلوك غير الإنساني الذي يقوم به إنسان نحو إنسان، إنه يحدث عندما تقوم جماعة من البشر باعتبار جماعات أخرى، جماعة مجردة من الأخلاق بل ومن الإنسانية. هكذا تفقد الجماعة الأخرى من الخصوم مبرر وجودها كبشر، ومن ثَمَّ يكون من الضروري التخلص منها، وإبادتها، ودون معاناة ذلك الشعور الخاص بالذنب أو الخجل، بل إن المرء يثاب هنا أيضًا على ما قام به. هكذا تدفع عملية «تجريد الآخرين من الإنسانية» إلى وصم الآخرين من المناوئين لجماعة ما بصفات شيطانية، كما تعزو لهم «هوية فاسدة» أو شريرة. وتحت مثل هذه الظروف يكون ممكنًا بالنسبة للناس الأسوياء العاديين، الذين يمتلكون قيمًا أخلاقية عالية (دينية غالبًا) بل ومثاليين أيضًا أن يرتكبوا أفعالاً مدمرة على نحو وحشي[٢٤].

وهكذا فإنه ومن خلال التبرير الأخلاقي، يقوم بعض الناس بكل ما هو غير أخلاقي، بل إنه يصف أيضًا ما يقوم به على أنه جدير بالتكريم والشرف والثناء، وبذلك يتم التبرير للعنف من جانب الجماعات ومن جانب الدول أيضًا (أحداث سجن أبو غريب في العراق مثلاً). هكذا تتم عمليات الإسقاط لأسباب العدوان على الآخر، فهو شرير وجدير بالإبادة، وتحدث عمليات إحلال واستبدال وتبادل أدوار داخل عقل المعتدي بين الضحية والجلاد؛ حيث يتحول الضحية إلى جلاد والجلاد إلى ضحية، وتحدث عمليات تجاهل وتشويه وتحريف وإنكار لأية نتائج سلبية؛ نتيجة القيام بمثل هذه السلوكيات المدمرة للبشر والحجر. هكذا تحدث عمليات إعادة تشكيل للإدراكات والمدركات المتعلقة بالعدو من خلال توجيه اللوم والإدانة إليه بوصفه مسئولاً عن ذلك في المقام الأول؛ لأنه مجرد من الإنسانية[٢٥].

ويكون العدو هنا أيضًا أشبه بكبش فداء Scapegoat يمكن أن تُحَلَّ من خلاله مشكلات الأفراد ومشاعرهم المتناقضة؛ حيث يعتقد الأفراد الذين ينتمون إلى جماعة ما أن مشكلاتهم يمكن التحكم فيها، وحلها، لو تمت إزالة ذلك المسئول عنها من وجهة نظرهم، وإبادته أو قتله أو إزاحته، أو سجنه... إلخ. إن ذلك يبعد عنهم الشعور بالمسئولية ومن ثم يزيل شعورهم بالذنب، ويقوي عاطفة اعتبارهم لذاتهم. بالنسبة للقاعدة، فإن الولايات المتحدة وإسرائيل

(٢٤) المرجع السابق: ٣٠٨.
(٢٥) المرجع السابق: ٣٠٩.

العدوين المسئولين عن معاناة المسلمين عبر العالم هما من الأشرار، وينبغي مواجهتهما. ووصل الأمر إلى أن إيران تصف أمريكا بأنها الشيطان الأكبر، وهي صورة تُلصق بالمسلمين الآن في كثير من الأذهان في أوروبا والولايات المتحدة[٢٦].

سادسًا: التطرف والغرابة

في دراسة عالم النفس الألماني إرنست ينتش حول علم نفس الغريب والتي نشرها عام ١٩٠٦م (وقبل أن ينشر فرويد دراسته الشهيرة عن الغرابة في عام ١٩١٩م) أشار ينتش إلى أن الخبرات المتعلقة بالقديم، والماضي، والتراث، والمألوف، والموروث، هي خبرات حميمة عزيزة ومألوفة بالنسبة إلى معظم البشر؛ بحيث إنهم قد ينظرون غالبًا إلى الجديد بنظرة من التشكك وعدم الثقة والقلق، وربما العداوة والعدوانية. هنا تظهر مقاومة ضد هذا الجديد، مقاومة نحو تمثله أو فهمه أو استيعابه داخل النسق المعرفي القائم والمستقر. وهنا يظهر ما يسمى بالنفور من الغريب، أو المعاداة للجديد Messonism (وفقًا لمصطلحات يونج بعد ذلك) هنا يكون الإنسان «عدو ما يجهل» كما يقول المثل العربي، ويكون «اللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش» كما يقول المثل المصري. قد يحدث ذلك على مستوى المخ البشرى؛ لأنه بيولوجيًّا، يميل إلى التوازن والاستقرار والألفة، لكن هذه الحالة لو طالت فلا بد أن يقع الإنسان في براثن الركود والملل، فتزداد لديه الرغبة في التغيير، لكن تكون هناك كوابح من المعتقدات تعمل على تسكينه، وإرضائه وإدخاله في حالات من الرضا والسكينة والقنوع والخضوع. إنه يكون هنا، أكثر ميلاً إلى البعد من مصادر القلق والجدة والحداثة والغرابة، أكثر ميلاً إلى البعد عن كل ما هو متفاوت أو مختلف عن ما يعرفه ويألفه. ولا تضعف حالة النفور من الجديد والغريب أو تقل مقاومتها أو تزحزح إلا عندما يقوم هذا العقل في حالة مرتفعة من النشاط القائم على أساس آليات الخيال والإبداع والإبدال والتجديد، عندما يحاول أن يقيم علاقات جديدة أو غير متوقعة أو غير مسبوقة بين القديم والجديد؛ القديم الذي يرتبط بالتصلب والجديد الذي يحتاج إلى المرونة والانفتاح على الخبرات[٢٧].

في السياق التاريخي الاجتماعي، يعد الغريب، الذعر والرعب من العنف الاجتماعي في ذاته، شعورًا أوليًّا، بدائيًّا، مكبوتًا، يعود، وذلك لأنه قد تمت معايشته على نحو متكرر عبر التاريخ، التاريخ

(٢٦) Cottam *et al., Introduction to Political Psychology*: 278.

(٢٧) شاكر عبد الحميد، **الفن والغرابة: مقدمة في تجليات الغريب في الفن والحياة** (القاهرة: دار ميريت، ٢٠١٠): ٨٧.

الفردي والتاريخ الجمعي، من خلال الحياة ومن خلال القراءة وعمليات التربية والتعليم. وهكذا على الرغم من أن هذا الأمر مألوف، فإنه يظل خفيًّا، أو أننا نحاول إخفاءه؛ لأنه خطر، يشعرنا بالقلق والتهديد، ونريد أن نتحاشاه أو نتخلص منه. يرتبط الخوف، بل والرعب، المتعلق بالإرهاب بإحساسات تجمد العقل والوجدان، حالة قد لا يمكن تمثيلها، حالة قد تكون غير قابلة للتعبير عنها، حالة تظل تعود على نحو متكرر فتسكن الوجود الفردي والجمعي(٢٨).

هكذا يمكن النظر إلى عمليات الهولوكست النازية، وحالات الاختفاء القسري في أمريكا اللاتينية وعمليات الإبادة العرقية في يوغوسلافيا السابقة ورواندا وغيرهما، وكذلك العمليات الإرهابية المتكررة في أنحاء كثيرة من العالم، وكذلك حالات النزوح الجماعي والهروب الجماعي في العراق وسوريا واليمن وليبيا وغيرها الآن على أنها تتعلق بأمور لا يمكن للعقل الإنسان الفردي أن يستوعبها أو يتمثلها. إنها تمثل، كما قال بعض العلماء، نوعًا من العودة غير المتحكم فيها للعقل الجمعي البدائي الغريزي الفطري الجامح المولع بالقتل والتدمير، حالة من الذات البدائية التي طمرت مع تقدم العلم والحضارة، ولكنها حالة تعود الآن أيضًا وتعود معها تلك الذكريات العميقة الخاصة بتلك الذات المدفونة Deep Memories of Buried Self إذا استخدمنا مصطلحات لانجر(٢٩).

هكذا يواجه هؤلاء الذين يعايشون مثل تلك الصدمات واقعًا لا يمكن تصديقه، واقعًا غير واقعي بالنسبة إليهم، واقعًا غير ذلك الواقع الذي كانوا يعيشون فيه، واقعًا غير ذلك الذين يظنون أنه الواقع الحقيقي، ومن ثم يكون عليهم التخليق والاستعادة لواقع آخر قد قرأوا عنه أو تشكل بداخلهم؛ نتيجة تعاليم وكذلك نصوص وأمثلة خاصة وقصص خاصة، خاصة عندما ظنوا أن هذه التخييلات توشك أن تصبح واقعًا، وأن الماضي في صورته الذهبية المرتبطة بالأحلام قد أوشك على الوجود، فإذا بهم يصدمون بانهيار أحلامهم وعودة كوابيسهم ومخاوفهم. هنا لا يكون أمام شعورهم بالصدمة والفجيعة والحزن سوى الانسحاب أو العنف، وغالبًا تتم تغذية هذا العنف بوسائل أخرى عديدة تحدثنا عنها في هذا الكتاب. وبذلك يكون الواقع الجديد الذي يعيش فيه

(٢٨) Yolanda Gampel, "Reflection on the Prevalence of the Uncanny in Social Violence", *Cultures Under Siege: Collective Violence and Trauma*, Publications of the Society for Psychological Anthropology 11 (Cambridge: Cambridge University Press, 2000): 48-69.

(٢٩) Lawrence L. Langer, *Holocaust Testimonies: The Ruins of Memories* (London: Yale University Press, 1993): 50.

المتطرفون، بعد الصدمة، واقعًا غير واقعي، واقعًا غير حقيقي، واقعًا عدائيًّا واقعًا لا يتطابق بعد أو يتفق مع أي شيء قد خبروه أو عرفوا به أو تمنوه، في الماضي.

هكذا يقومون بعمليات إنكار للواقع الجديد، واقعهم، وواقع الجمعات الأخرى الخارجية عنهم، هكذا يعجزون عن التمييز بين ذلك الواقع غير الواقعي الذي كافحوا جاهدين من أجله، ومخاوفهم المتزايدة، الآن، بفعل التوقعات المحبطة والأخيلة الكابوسية الجحيمية التي بدأت تحل شيئًا فشيئًا، محل تلك الأخيلة والصور الخاصة التي كانت وما تزال تحركهم.

لقد اعتبر فرويد الغرابة، في جوهرها، نوعًا من العودة للمكبوت، وهذا المكبوت من الصور والأفكار والمشاعر والخبرات يعمل طمس أو محو الأفكار، لكنها، العرابة، ولأنها ذات طبيعة مزدوجة، فإنها تعمل، وخلال الوقت نفسه، على طمس الأفكار والصور، وفي الوقت نفسه الحفاظ عليها. هكذا فإنه وعندما تحين الفرصة، يعود هذا المكبوت، في شكل سلوكيات وأفعال غريزية إبدائية، سلوكيات تقوم على أطلال تلك الذات المدمرة، تلك الذات التي تحاول هذه الجماعات أن تقوم بترميمها بتعاليمها وكتاباتها وطقوسها وممارستها وأزيائها وسلوكياتها اللطيفة أحيانًا، والعنيفة أحيانًا، وخاصة عندما نجد أن الواقع الفعلي يقاوم تحقيقها لأفكارها المكبوتة ولأخيلتها الموجهة لها ولأيديولوجيتها المهيمنة أيضًا. يعود المكبوت ويتحول إلى واقع، لكنه عندما يواجه من خلال حركة أو جماعة مضادة تهزمه أو تبعده عن ساحة الفعل والسلطة؛ فإنه يكبت مرة أخرى، وهكذا نظل في هذا التكرار المقيت، ويموت كثيرون وتدمر مؤسسات وإبداعات بفعل هذا الذي لا يكف أبدًا عن الظهور والحضور وعلى نحو مخيف، متطرف ومهدد.

وهكذا فإن ما تم الحفاظ عليه يعود، ثم يعود، وتكون عودته مخيفة؛ وذلك لأنه يعود أولاً مسالمًا، ثم يصبح تدريجيًّا مهددًا ومخيفًا، بل ومرعبًا، يبدأ عمليات التهديد والقتل والإرهاب، وتصبح الأفكار التي تم كبتها معروفة وقابلة للتعرف من خلال تلك التجليات المتكررة له، من خلال تعبيراته عن نفسه، في كلام أصحابه وسلوكهم وملابسهم، من خلال تنظيماتهم ومؤسساتهم الدعوية والاقتصادية والطبية والتعليمية، من خلال قنواتهم الفضائية وصحفهم وغير ذلك من الوسائل، من خلال تلك الأفعال المندفعة غير القابلة للفهم في البداية، التي تواجه أفكار الآخرين وتُسخِّفها، وتسخر منها، ومن أصحابها وتحقرها وتحقرهم، ثم من خلال الإيذاء والقتل الفعلي للخصوم والمناوئين، ومن خلال ذلك كله وغيره يزداد حضور الشعور بالغرابة ويهيمن.

قد تظهر الأفكار المكبوتة أحيانًا، في شكل مجازات وصور، تحاول إحدى الجماعات من خلالها أن تنتقد الواقع الفعلي ورموزه وتتهم بالكفر والضلال والبعد عن كتاب الله والتحالف مع أعدائه، وكذلك من خلال صور وأخيلة واستعارات تعد أصحابها بكل ما لذ وطاب، في الدنيا والآخرة، وهي غالبًا ما تكون صورًا ومجازات تنتقد كل ما هو مادي ودنيوي، في حين تكون الفكرة الموجهة لأصحاب هذا الاتجاه هي السيطرة والتمكن من كل ما هو مادي ودنيوي من أجل توجهه – وفقًا لما يقولون – في اتجاه كل ما هو معنوي وأخروي. أين حدث ذلك، وفي أي مكان في العالم؟ لا أحد يعرف أو يقول خلال خبرة الغرابة يصبح ما كان غريبًا أو غير مألوف مألوفًا وأليفًا، ويصبح ما كان خفيًّا مرئيًّا، ويتحول ما كان مألوفًا إلى شيء غريب ومخيف(٣٠).

أما بالنسبة لـ بليجر فلا تعد الغرابة فقط مجرد عودة للمكبوت، ولا يشتمل فقط على شيء مألوف ومعروف، قد أصبح غامضًا، لكنها تشير أيضًا إلى الظهور المفاجئ لذلك الغامض الذي يصبح موجودًا في كل مألوف. فنحن نتحرك داخل بيئة مألوفة تشتمل على موضوعات ومواقف وأفراد قابلية للتعرف والتحديد. ومع ذلك، فإنه وداخل هذه البيئة المألوفة والتي يمكن تمييز مكوناتها وأفرادها تكون هناك جوانب غامضة ينبغي – أو كان ينبغي – أن تظل خفية ومخبوءة وسرية. هكذا تكون الغرابة لدى بليجر ليس مجرد حالة من الشك والحيرة وفقدان اليقين، لكنها تمثل حالة من الفقدان للتنظيم ومن إعادة التنظيم التي تعاني منها الأنا الفردية أو الجماعية، فيها يتفكك الأنا المنظمة أو تنهار، وتظهر بنية أنا جديدة، ذات طبيعة غامضة وتتشكل مكانها، هنا يحدث صدع أو فجوة بين ما هو خاص بي، خاص بجماعتي وما هو ليس كذلك. هنا تظهر الأنا أو النحن التي تحاول أن تحافظ على وجودها وحدودها، والآخر الذي يهدد هذه الأنا أو النحن. هنا تظهر مشاعر الحزن والمظلومية والخوف من التبدد والضياع، وهنا يكون العنف أبرز الوسائل للحفاظ على هذه الهوية. هنا قد تصبح هذه الحالة أيضًا نوعًا من الحضور المستمر الذي لا يتوقف للغرابة والانقسام والحيرة والعداء بل والعدوان المتبادل. هنا يصبح البيت منقسمًا بين من يسكنون داخله ومن يحاولون طردهم منه والحلول مكانهم. هنا تكون الغرابة أشبه بتلك الحالة الانفعالية التي يشعر خلالها المرء بالرعب عندما يواجه شيئًا أو موقفًا يعمل على قلب ما هو مألوف لديه وأليف رأسًا على عقب(٣١).

(٣٠) Gampel, "Reflection on the Prevalence of the Uncanny in Social Violence": 50.

(٣١) المرجع السابق.

وفي دراستها الكلاسيكية المعنية «النقاء والخطر» ربطت ماري دوجلاس بين الاستجابات لحالات عدم النقاء النوعي أو التهجين (إنسان – حيوان – نبات... إلخ) وعمليات الانتهاك أو الهتك للمخططات المعرفية الخاصة بالفئات الثقافية المحددة. وهكذا فإنه عندما تَعْبُر بعض الكائنات تلك الحدود، التي حددتها التصورات الثقافية البشرية العميقة والقديمة الراسخة، قد تحدث ردود أفعال غير مريحة لدى من يشاهدها أو يسمع عنها، وعندما يكون هناك سماع دون رؤية واضحة قد يستعين الإنسان بخياله وهواجسه فتكون الصور أكثر تأثيرًا من خلال التضخيم والتحريف أو التشويه لها. هكذا تتحاشى بعض الشعوب أو تتقزز من الإستاكوزا؛ لأنها حيوان بحري لكنه يزحف على أرجله، وتكون الكائنات الناقصة غير المكتملة أو المشوهة والتي ليس لها شكل محدد مثيرة لانفعالات الضيق أو التقزز أو الخوف، وتكون الوحوش في أفلام الرعب أيضًا بلا شكل محدد أو ذات شكل هجين تجمع بين الإنسان والحيوان وبين الحي والميت، كائنات «بينية» الطابع، موجودة على الحدود، بين فئتين أو أكثر، لا تنتمي إلى هذه بمفردها ولا إلى تلك بمفردها، بل في منزلة بين المنزلتين. هكذا كان دكتور جيكل ومسترهايد، في رواية ستيفنسون الشهيرة. وهكذا تم تكوين صورة للإرهابي والمتطرف، فهو إنسان ومتوحش، بشري الطابع، وشيطاني الطابع خلال الوقت نفسه، موجود على الحدود بين فئتين؛ الأولى إنسانية والثانية بدائية حيوانية أو شيطانية غامضة. هكذا نجده يقرأ ويكتب ويتحدث في التليفون ويضحك ويبتسم ويقود سيارات ذات دفع رباعي، لكنه في الوقت نفسه عابر للحدود، شيطاني، قاتل، مجرم، لا يراعي حرمة، بل ينتهك كل الحرمات، يقوم أفراده بخطف الفتيات الصغيرات وتزويجهن قسرًا، وبيعهن كذلك في سوق النخاسة، كما أنه ينحر الرقاب، رأينا كيف تم ذبح ٢١ مسيحيًّا مصريًّا في ليبيا عام ٢٠١٥م. كما قد يغلي في الماء شديد السخونة بعض أتباعه الذين خرجوا عن طوعه وعن أوامره، كما ظهر ذلك في بعض الصور التي تم بثها حديثًا على مواقع التواصل الاجتماعي.

وفقًا لما قالته مارى دوجلاس فإن الوحوش غالبًا ما تحتوي على شكل مهجن يجمع بين كائنين أو أكثر، وهذه فكرة قديمة قالت على أساسها تماثيل مثل أبي الهول وتكوينات أسطورية؛ مثل الكميرا والجريفين والحصان المجنح (البيجاسوس) الذي يجمع بين جسد حيوان، هو الحصان، وأجنحة طائر ضخمة غير مألوفة. إنه حصان لكنه وبدلاً من أن يمشي أو يجري على الأرض، فإنه يطير مثل الطيور. وقد أكدت دوجلاس أن عملية التهجين التي تقوم عليها هذه الوحوش تنتهك،

في جوهرها، المخططات المعرفية الخاصة بالفئات الثقافية المحددة (إنسان – حيوان – حشرات – طائر... إلخ)، وأن المزج بين كائنين لا يمتزجان في الواقع (إنسان وحيوان مفترس كالأسد مثلاً) قد يثير الخوف، خاصة عندما يختلط هذا المزج وتصاحبه إفرازات معينة؛ كاللعاب والدم والدموع والقيء وقطع اللحم وكل ما هو لزج أو مقرف أو قذر. هكذا تكون الوحوش في الغالب غير كاملة ومهجنة، في شكلها الخارجي أو سلوكها وأفعالها، كائنات بينية توجد على الحدود، كائنات حدية، ومن ثم تكون غامضة وقادرة على إثارة الخوف في وقت ما خاصة إذا ظهرت ليلاً، أو في أماكن مهجورة، بيوت قديمة يحرك الهواء نوافذها أو شوارع خالية أو غابات أو حقول لا يسمع فيها سوى صوت زمجرة مكتومة أو هسهسة ريح وحفيف شجر في هدوء يحبس الأنفاس، وحشة تقتل الروح، وجسد يفتقر الراحة وعقل يحتاج إلى اليقين.

وقد ذكرت دوجلاس وتيرنر وجوليا كريستيفا وغيرهن أن العقل البشري يحتاج إلى الوحوش؛ كي توقظه وتنبهه، كي تجعله متحفزًا ومستعدًّا للرد والاستجابة، متحفزًا لمواجهة كل تلك الاحتمالات المجهولة الممكنة.

هكذا يبدو الإنسان المتطرف الإرهابي في تصورات البعض (في الغرب مثلاً) وكأنه يجمع بين جنباته، أو في شكله، بين شكل الإنسان والحيوان، بين الإنسان والوحش، بين المتحضر الذي يستخدم التكنولوجيا المتقدمة من تليفونات خليوية وأجهزة تحكم عن بعد وطائرات وبرامج تليفزيونية وأجهزة تصوير وفيديو يوتيوب وإنترنت... إلخ وسلوكيات غريزية بدائية تقوم على أساس الذبح والقتل والتدمير. كائن يجمع أيضًا بين زمنين، كأنه يعود بين الماضي بينما يعيش في الحاضر، بل إنه يحيا هذين الزمنين معًا خلال الوقت نفسه دونما أي شعور بالتناقض؛ لأن أحد هذين الزمنين (الماضي) كان مجيدًا وعظيمًا، بينما الزمن الآخر (الحاضر) زمن شيطاني زاخر بالخطايا والأخطاء والشرور، لكن سلوكياته تنتمي في معظمها إلى الماضي البدائي الوحش القديم مهما ارتدى قناع الدين أو حاكى سلوك السلف الصالح أو تشبه به.

هكذا ووفقًا لدوجلاس، تكون الكائنات البشرية أو غير البشرية التي تعبر الحدود التي حددتها الطبيعة أو التصورات الثقافية البشرية العميقة والقديمة والراسخة، قادرة على أن تحدث ردود أفعال غير مريحة لدى من يشاهدها، وانفعالات غامضة غير مريحة بل مخيفة أيضًا تجاه من يتوقع ظهورها، فظهورها غالبًا ما يكون مفاجئًا، وغالبًا ما يكون مخيفًا، وممتزجًا بالقتل والتدمير.

الفصل الرابع

الإرهاب والعنف السياسي

ليس الإرهاب موضوعًا جديدًا، بأي معنى من المعاني، ليس الإرهاب متعلقًا بدين بعينه وكما يحدث الآن من ربط بينه وبين الإسلام؛ وذلك لأنه، وعبر السنين؛ ارتكبت الجماعات الإرهابية مئات الحوادث العنيفة في كثير من بقاع العالم، شرقًا وغربًا، لكن لم تتم تسميتها – في حالات كثيرة – إرهابًا، أما عندما تمت مهاجمة مركز التجارة العالمي في مدينتي نيويورك وواشنطن العاصمة في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، فقد اعتبر هذا العمل الهجوم الأكثر وحشية الذي قامت به جماعة إرهابية خارجية على الأراضي الأمريكية[١].

لم يكن الهجوم على مركز التجارة العالمي هو الهجوم الأول الذي تتعرض له الولايات المتحدة، لكنه كان الهجوم الأول كما يقال الذي يأتي إليها من الخارج، فقبله تعرضت سفارتا الولايات المتحدة في تنزانيا وكينيا عام ١٩٩٨م لهجوم مدمر. كما تم قصف السفينة كول USS Cole في اليمن عام ٢٠٠٠م، وتم تدمير السفارة في بيروت عام ١٩٨٣م، وغير ذلك من الأحداث التي ما تزال تتوالى حتى هذه اللحظة .

كانت المعلومات الكافية حول القاعدة وحول أسامة بن لادن متوفرة لدى هذه الحكومة، لكن هذه المعلومات ربما تم التقليل من شأنها أو تم تجاهلها، إهمالاً أو عمدًا، وخاصة عندما نتذكر ما قيل حول تلك الشراكة الاستراتيجية واللوجستية التي كانت موجودة بين الولايات المتحدة والقاعدة في أفغانستان خلال فترة مواجهة الاحتلال السوفيتي لتلك البلاد (في الفترة ما بين ١٩٧٩ – ١٩٨٩م).

سَمِّنْ كلبك يأكلك، هذا ما يقوله المثل السائر، وقد ربت الولايات المتحدة القاعدة ورعتها وجعلتها تستفحل، وتتوالد منها جماعات وفروع، تجاوز بعضها مكانة القاعدة الأصلية، أو حل محلها، كما هو الحال بالنسبة لما يسمى تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام «داعش» الآن، هكذا تحولت الجماعة «القاعدة» إلى شبه دولة، لها أجنحة أيضًا في عدد من الدول والقارات.

لقد أصبح الناس الآن، ومن خلال وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي على ألفة أكبر بما يحدث في العالم. ولقد أصبحوا يعرفون كل حدث إرهابي لحظة وقوعه، ثم يتتبعون تفاصيله؛ من حيث مكان حدوثه وعدد القتلى، وكذلك المصابين، ومن الذي ارتكب الحادث، وما دوافعه، وغير ذلك من الأمور. لكن ما الذي أدى بشخص أو جماعة إلى القيام بمثل هذه الأعمال؟ هذا هو الأمر

(١) Cottam *et al*., *Introduction to Political Psychology*: 263.

الذي يكون غائبًا عن ميدان التعرف والمعرفة في معظم الأحوال. فما الذي يجعل إنسانًا ما يتحول من الاعتدال إلى التطرف؟ أو ما الذي ينتقل به من التطرف إلى الإرهاب؟ هذا ما حاولنا أن نجيب عنه، قدر الإمكان، في هذا الكتاب.

تعريف الإرهاب

مثلما توجد هناك صعوبة في تعريف الإرهاب؛ فإن هناك صعوبة أيضًا في تصنيف الجماعات الإرهابية؛ وذلك لأن هذه الجماعات كثيرًا ما تكون ذات هويات مختلفة، تشتمل على تعريفها لنفسها، وتحديدها لعددها، وكذلك معاييرها الجمعية وقيادتها وأهدافها وغير ذلك من الأمور. وقد تكون جماعة ما شرعية في وقت ما وإرهابية في وقت آخر (كما هو الحال بالنسبة لتصنيف جماعة الإخوان المسلمين في مصر الآن وبعض الدول العربية والأجنبية)، فإن تلك الجماعات التي أصبحت أهدافها متفقة مع أهداف الولايات المتحدة يتم إخراجها من بين الجماعات الإرهابية على الرغم من أنها تظل تمثل تهديدًا إرهابيًّا لها بشكل عام.

على الرغم من تعقد الموقف الخاص بتعريف الإرهاب، فإن هناك محاولات قد بذلت في تعريفه وقد اتفق معظمها على أن الإرهاب هو الاستخدام المنظم للعنف على نحو منظم ولأهداف سياسية من قبل جماعة أو منظمة (قد تكون صغيرة العدد أو كبيرة العدد) والتي تقوم بالاستخدام للعنف أو التهديد باستخدامه على نحو منظم من أجل أن تحقق أهدافها السياسية. وغالبًا ما يكون ذلك الاستخدام (للعنف أو التهديد به) من جانب الجماعات الإرهابية استخدامًا رمزيًّا، أي موجهًا على نحو خاص نحو رموز الدولة من الشخصيات، والمؤسسات، وكذلك نحو المعايير الاجتماعية والبنية الاجتماعية الخاصة بها[٢].

وكما ذكرنا من قبل فقد تشكلت منظمة القاعدة في أفغانستان عام ١٩٨٨م؛ من أجل محاربة السوفييت هناك وبعدها امتدت إلى بلاد عديدة، وتأسس فرعها الخاص في العراق بعد غزو الولايات المتحدة له عام ٢٠٠٣م. وكذلك الجبهة السلفية للدعوة والمقاومة في الجزائر لها تاريخها الطويل، لكنها اندمجت في القاعدة حديثًا وأصبح اسمها منظمة القاعدة في بلاد المغرب، ولم تعد منظمة جزائرية فقط، بل امتدت إلى دول كثيرة في شمال إفريقيا.

(٢) المرجع السابق: ٢٦٤.

في دراسته حول «سيكولوجية الإرهاب: أجنده للقرن الحادي والعشرين» عام ٢٠٠٠م أشارت مارثا كرينشو إلى صعوبة تعريف الإرهاب؛ وذلك لأن هذا التعريف إنما يعتمد، في جوهره، على كيفية إدراك الأفراد، أو الجماعات، للفعل الإرهابي، وكذلك على تلك الأهداف التي تقف وراء تبني إحدى الجماعات، أو الحكومات، لتعريف معين للإرهاب. فالإرهاب، كمفهوم مصطلح إشكالي، وهو تسمية تحقيرية مقللة من شأن الآخرين يقصد بها إدانة سلوك الخصوم، بوصفه غير شرعي، وخارجًا على القانون، بل ومعاديًا للإنسانية.

هكذا وصفت بعض جماعات المقاومة مثل منظمة التحرير الفلسطينية، في فترة ما، بأنها منظمة إرهابية. وحدث الأمر نفسه مع حزب الله اللبناني الذي صنف مرة في فئة المقاومة والبطولة، ومرة في فئة الإرهاب، أما الحروب التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، وكما تمثلت في غزوها، لأفغانستان، وتدميرها للعراق؛ فقد اعتبرت دفاعًا عن النفس وحروبًا استباقية وملاحقة للمتطرفين.

خلال التحليل الموضوعي للظاهرة تظل هناك صعوبة في الوصول إلى تعريف مقنع أو يحظى بالقبول التام ويميز بين الإرهاب والسلوك العنيف ومع ذلك، فإن هناك، وبشكل عام، نوعًا من الاتفاق على أن الإرهاب هو **ذلك الاستخدام المتعمد والمنظم للعنف والذي تقوم به أعداد صغيرة من الأفراد، أما العنف المجتمعي فيتسم بأنه سلوك تلقائي وغير منظم ويتطلب مشاركة كبيرة**[٣].

وهذا التعريف تعريف غير دقيق أيضًا؛ لأنه يفترض أن من يقوم بالإرهاب هم فقط ذلك العدد الصغير من الأفراد الذين يرتكبون ذلك الفعل العنيف، ومن ثم فإنه يتجاهل ما وراءهم من تنظيمات وجماعات ، قد تكون كبيرة العدد، وقد يصل عدد أعضائها إلى عشرات أو مئات الألوف (القاعدة، داعش... إلخ). كذلك يخلط هذا التعريف بين السلوك المجتمعي وسلوك الحشد الذي يظهر في المظاهرات والاحتجاجات السياسية والعمالية والشعبية وملاعب الكرة وغيرها والذي قد يكون منظمًا أيضًا، تبدأه جماعات صغيرة عن عمد، ثم، وتدريجيًّا، تشترك فيه جماعات أكبر وحشود.

يقال كذلك إن الهدف من الإرهاب الترهيب والتهديد لعدد كبير من الجمهور، ذلك الذي يشاهد الحدث الإرهابي، على نحو مباشر، أو عن طريق وسائل الإعلام، أو يسمع عنه، ومن خلال

(٣) المرجع السابق.

الإيذاء فقط لعدد قليل، وذلك في مقابل التطهير العرقي الذي قد يمتد إلى محاولة الإبادة لمجتمعات بأكملها، كما حدث في يوغوسلافيا ورواندا، وتنزانيا وغيرها. وهذا الجانب من التعريف، أيضًا، غير دقيق؛ وذلك لأن الهدف من الإرهاب قد يكون لدى أصحابه إلحاق أكبر عدد من الإصابات والخسائر بين الأفراد والمؤسسات والجماعات، فلا يوجد تنظيم إرهابي يتسم بهذا الحس الإنساني الشفوق أو الرحيم، الذي يقرر منذ البداية أنه يريد أن يصيب عددًا قليلاً من الأفراد كي يهدد ويخيف عددًا أكبر من الناس. فالتطهير العرقي أيضًا سلوك ينم عن عقلية إرهابية موغلة في العنف والوحشية واللا إنسانية وأغراضه سياسية واقتصادية، في كثير من الحالات، كما هو الحال بالنسبة للأعمال الإرهابية.

يقول البعض إن هدف الإرهاب أن يؤذي، أن يضر، أن يخيف، لكنه لا يقصد أن يدمر، وهذا أيضًا جانب قاصر في تعريف الإرهاب، فكثير من الأعمال الإرهابية دمرت مؤسسات تعليمية واقتصادية وترفيهية وقتلت كثيرًا من الأفراد. ويميز البعض كذلك بين الإرهاب وحرب العصابات، فيقولون إن الإرهاب سياسي ورمزي بينما تجسد حرب العصابات نشاطًا ذا طبيعة عسكرية، في المقام الأول. وهنا نقول: وماذا عن القاعدة وداعش وغيرهما، أليست هذه منظمات إرهابية، ألا تقوم بأعمال عسكرية؟ ألم يحتل بعضٌ منها مناطق شاسعة من دول معروفة كما هو الحال الآن بالنسبة للعراق وسوريا وليبيا؟

هناك عدد من المؤسسات الحكومية والأكاديمية الموجودة في العالم والتي توفر عددًا من البيانات والمعلومات حول مؤشرات الإرهاب في العالم، ومنها تمثيلاً لا حصرًا معهد الوقاية من الإرهاب Memorial Institute for the Prevention of Terrorism، والذي يوفر قاعدة بيانات للباحثين في هذا المجال. ومن بين البيانات المتوفرة لديه تلك الإحصاءات حول مدى انتشار الإرهاب في أماكن العالم قاطبة. وقد أشارت البيانات التي وفرها في الأعوام ١٩٦٨–٢٠٠٧م إلى أن ٤٢٪ من الأحداث الإرهابية قد وقعت في منطقة الشرق الأوسط، وأن ١٦٪ منها قد حدثت في أوروبا الغربية، و١٥٪ في جنوب آسيا، وكذلك أن غزو أفغانستان والعراق وما تلته من أحداث قد أدى إلى تصاعد أحداث الإرهاب بعد عام ٢٠٠٦م إلى حدٍّ كبير[٤].

(٤) المرجع السابق.

توجد مشكلة إذن في تعريف الإرهاب، لماذا؟ لأن معظم من حاول تعريف الإرهاب قد حاول أن يعرفه تعريفًا قاموسيًّا، محددًا فما الحل إذن من أجل الخروج من هذه المعضلة؟

علينا أن نقول أولاً إن تعريف أي مفهوم يمكن أن يحدث من خلال ثلاث طرائق أساسية؛ هي:

١- **الطريقة الأولى**: تتعلق بالتعريف القاموسي له، كأن نفتح أحد القواميس أو المعاجم ونبحث عن تعريف محدد للإرهاب أو التطرف، فنجده يقول إن الإرهاب هو كذا، أو كذا، ويكون مثل هذا التعريف في العادة تعريفًا محدودًا، لماذا؟ لأنه يكون، في الغالب، قد تبنى وجهة نظر معينة حول الإرهاب أو التطرف وتجاهل وجهات النظر الأخرى.

٢- **الطريقة الثانية**: من خلال التعريف الإجرائي للمفهوم، أي أن نعرف التطرف أو الإرهاب من خلال الإجراءات أو الممارسات التي يقوم بها المتطرفون أو الإرهابيون؛ مثل اختطاف الطائرات أو السفن، أو الرهائن، أو إلقاء القنابل على المؤسسات أو القيام باغتيالات لأفراد أو زعماء أو القيام بكل ما سبق معًا. لكن مثل هذا التعريف يتجاهل جوانب أخرى مهمة في تعريف الإرهاب. ومنها أن تلك الأفعال السابقة قد يقوم بها أفراد دون أن يكون وراءهم تنظيم إرهابي، أو أهداف سياسية محددة، كما هو الحال في العمليات الإرهابية المحددة، كأن يقوموا بها بهدف السرقة أو الابتزاز أو الحصول على فدية، أو أموال، أو مزايا، أو تهريب تجار مخدرات، أو مسجونين آخرين... إلخ. ومن ثم يظل التعريف المحدد للإرهاب هنا أيضًا غير حاسم أو كما يقول المناطقة غير جامع أو مانع، فما الطريقة الثالثة إذن في تعريف الإرهاب؟

دعنا لا نعتمد على القواميس فقط، ولا على الأداءات فقط، ودعنا نقول أيضًا إن الإرهاب كمفهوم اصطلاحي، يشبه مفاهيم أخرى في العلم والفلسفة والحياة؛ مثل الحرية، الجمال، الفن، الإبداع... إلخ، لا يوجد لها تعريف واحد، بل تعريفات عدة قد تتناقص مع بعضها وأن الأنسب أن نتبنى في تعريف الإرهاب ما تم تبنيه أخيرًا في تعريف مثل هذه المفاهيم ألا وهو التعريف بصورة العائلة Family Picture.

٣- **الطريقة الثالثة**: أو التعريف بصورة العائلة؛ حيث يعتبر التطرف والجمود والعنف عن اتجاهات ومعتقدات وقيم ودوافع موجودة لدى هؤلاء الذين يقومون بهذه السلوكيات

ونحاول فيما يلي تحديد المقصود بكل مفهوم من هذه المفاهيم. وربما لو توغلنا قليلاً في عالم الأفكار قد يقابلنا الفيلسوف الألماني لودفيج فيتجنشتين، أو بالأحرى قد تقابلنا روحه وتقدم لنا مفهومه الشهير المناسب في حل مثل هذه الأسئلة؛ ونقصد بذلك مفهومه عن صورة العائلة Family Picture. فنحن لو التقطنا صورة فوتوغرافية لعائلة ما، سوف نجد فيها الذكور والإناث؛ الأب والأم وصغار السن وكبار السن، ومن يجلسون في أثناء التقاط الصورة ومن يقفون، ومن يبتسمون ومن يتجهمون ويتعجلون الانتهاء منها، هكذا نجد تنويعات وأحوالاً شتى، لكن ما يجمعها هو هذه الصورة؛ صورة العائلة. وهذا هو الحال أيضًا بالنسبة لـ «مفهوم الألعاب»؛ إذ لا يمكن تعريفه بالتركيز على لعبة واحدة (جانب واحد منها، قواعد اللعبة، نوع اللعبة، عدد المشاركين فيها... إلخ) كذلك الحال بالنسبة للفن؛ إذ ثمة فنانون عدة، وهناك فنون، ومراحل تاريخية وأساليب فنية، كذلك الحال بالنسبة للجمال، هناك الجمال الطبيعي والجمال الفني والجمال الصناعي والرؤى المتنوعة للجمال والجميل. وقل الأمر نفسه عن الحب والإبداع والحرية والموسيقى.

أما بالنسبة للتطرف، وكذلك الإرهاب، فهما أيضًا، وعلى الرغم من ذلك الفارق الكبير بينهما وبين الفن والحب والجمال والإبداع، بل وعلى الرغم من أنهما يعملان على نحو مضاد، أو معاكس، لهذه القيم والمعاني كلها، فإنه ينطبق عليهما أيضًا التعريف بصورة العائلة، فالتطرف – وكذلك الإرهاب – له أبعاده النفسية والاجتماعية والدينية، وله مظاهره وأشكاله ورموزه السلوكية والتعبيرية والاجتماعية له. كما أنه ينطوي أيضًا على استعدادات وظروف تعمل على ظهوره وانتشاره او اختفائه واندثاره، هكذا يدخل التطرف والإرهاب ضمن التعريفات الخاصة بصورة العائلة وعلى أنحاء شتى. والأمر صحيح كذلك عندما نكون بصدد تعريف العنف.

تعريف العنف

يقصد بالعنف لغة: الزيادة عن الحد، وشرعًا هو: مجاوزة الحد المطلوب شرعًا من البعد عنه أو إلى أبعد منه. ومن مرادفات العنف: الغلو والتشدد والتنطع والتطرف. وعندما نبحث في لغة القرآن الكريم نجد أنه لم يستخدم كلمة العنف مطلقًا في آياته، وإن استخدم بعض المترادفات التي تؤدي إلى معناه. وفي «لسان العرب» العنف هو «الخرق للأمر، وقلة الرفق به.. وأعنف الأمر أخذه

بشدة »، وفي المعجم الوسيط، العنف هو «استخدام القوة استخدامًا غير مشروع أو غير مطابق للقانون. والعنيف هو ما يأخذ غيره بشدة وقوة»، وفي الإنجليزية اشتق مصطلح العنف Violence من المصدر Violate بمعنى ينتهك أو يعتدي، ويعرفه قاموس أكسفورد بأنه «ممارسة القوة البدنية أو المادية، لإنزال الأذى بالنفس أو بالأشخاص أو الممتلكات» ويحدد قاموس وبستر سبعة معانٍ على الأقل للعنف، تتراوح بين المعنى الدقيق نسبيًّا والذي يشير إلى استخدام القوة البدنية أو المادية والإيذاء أو الإضرار، والمعنى العام المرتبط بالحرمان من الحقوق عن طريق الاستخدام غير العادل للسلطة أو القوة، مرورًا بمعان أخرى تشير جميعها إلى الهجوم والعدوان واستخدام الطاقة الجسدية ورفض الآخرين بصور مختلفة. وأخيرًا تعرف موسوعة الجريمة والعدالة العنف بأنه يشير إلى: «كل صور السلوك، سواء أكانت فعلية أو تهديدية، والتي ينتج عنها، أو قد ينتج عنها، تدمير الممتلكات وتحطيمها، أو إلحاق الأذى أو الموت بالفرد أو الجماعات»[٥].

وقد عرف أرجايل العنف بأنه ذلك «السلوك الذي يتجه به صاحبه إلى إيقاع الأذى بالأشخاص الآخرين أو ممتلكاتهم، إما ماديًّا أو بدنيًّا أو لفظيًّا أو بأي طريق آخر، أو هو الجانب المادي المباشر المتعمد من العدوان». أي أنه يرى هنا أن العنف مصطلح لا يطلق على الأشكال البسيطة من العدوان، بل على المتطرفة منه فقط، وأنه يتعلق بالجانب المادي من العدوان، لا المعنوي، وهي وجهة من النظر تحتاج إلى قدر من التأمل والمراجعة، فما الذي يمكن أن نطلقه على أشكال العدوان الرمزي والمعنوي والتحريضي والتي تأخذ شكل رسائل غاضبة وعدوانية ومحرضة على القيام بأعمال مدمرة؟ هل هذا عنف أم عدوان؟ على كل حال، فإن باحثين آخرين ومنهم، تمثيلاً لا حصرًا، ليستر، والسيد، وعبد الله، يرون أن العنف هو الصورة المتطرفة والنشطة من العدوان، والتي يترتب عليها أشد درجات الإيذاء، وإلحاق الأضرار المادية والنفسية، أو كليهما معًا، بالآخرين هكذا يكون العدوان هو المفهوم الأعم الذي يشمل أشكال العنف المادي واللفظي والمعنوي، وكذلك أشكاله المباشرة وغير المباشرة أيضًا[٦].

(٥) زكريا يحيى لال، **العنف في عالم متغير** (مكة المكرمة، ٢٠٠٧): ٢٢؛ أحمد زايد، وسميحة نصر، وصفية عبد العزيز، **العنف بين طلاب المدارس: بعض المتغيرات النفسية: الارتباطات والمنبئات** (القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ٢٠٠٤): ١٧-١٨.

(٦) معتز سيد عبد الله، **العنف في الحياة الجامعية: أسبابه ومظاهره والحلول المقترحة لمعالجته** (القاهرة: جامعة القاهرة. كلية الآداب. مركز البحوث والدراسات النفسية، ٢٠٠٥): ٣٦-٣٧.

وقد ربط فرويد بين العنف والعدوان وغريزة الموت ووجد تجليات لها في الحروب التي ألحقت خسائر هائلة بالأرواح والممتلكات، وكان أكثرها تأثيرًا عليه هي الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨م) وكذلك فعل كونراد لورنز (الحاصل على جائزة نوبل عام ١٩٧٣م) فنظر إلى العنف على أنه غريزة فطرية، لكنه نظر إليها أيضًا بشكل أكثر إيجابية مقارنة بما فعله فرويد؛ وذلك لأن فرويد قد ربط بين غريزة الموت والعدوان، من ناحية، والدمار وفناء البشرية، من ناحية أخرى، بينما أشار لورنز، ومن وجه نظر تطورية، إلى أن العنف كغريزة، كما يتمثل في الحرب والقتال مثلاً، قد يعزز الكفاح من أجل البقاء ويسهم في الانتقاء الطبيعي؛ حيث يكون البقاء دائمًا للأقوى والمنتصر الذي يفرض شروطه على المنهزمين والتابعين. ثم قد يرتقي بهم، بعد ذلك، أو يجعلهم يقومون بمحاكاته، ومحاولة التشبه به، والارتقاء مثله أيضًا.

إضافة إلى ذلك فقد ربط بعض العلماء، ومنهم، تمثلاً لا حصرًا، دولارد وميللر بين الإحباط والعدوان، فقالوا إن إدراك المرء أو الجماعات للإحباط وشعوره به، في المواقف التي يُعاق خلالها وصوله إلى هدفه، هو ما يتولد عنه الغضب الذي سرعان ما يتحول إلى عدوان وعنف. ثم أضاف بركوفيتش تعديلاً في نظرية دولارد وميللر حول علاقة العنف والإحباط بالعدوان، فقال إن المهم، هنا، ليس مجرد الشعور بالغضب، بل ذلك الإحباط الذي يخلق شعورًا عامًّا بالاستعداد للعدوان. ومع ذلك فإن هذا الاستعداد أيضًا، في حد ذاته، ليس كافيًا، بل لا بد أن تكون هناك هاديات Cues موجودة في الموقف الخاص أو العام المثير للإحباط والغضب، وأن هذه الهاديات هي التي تستدعي الأفكار والانفعالات المرتبطة بالعدوان. ومن هذه الهاديات، تمثيلاً لا حصرًا، الشعور بالظلم، والحرمان من مزايا مستحقة، والشعور بالتفاوت بين الجهد المبذول والنتيجة المتحققة، وغياب المعايير، وغياب العدالة الاجتماعية، والشعور باللا جدوى، والفقر، والازدحام، والعيش في مناطق عشوائية، والتعرض المتكرر للعنف في وسائل الإعلام... إلخ[٧].

ويرى بعض العلماء أن العلاقة بين الإحباط والعدوان ليست بسيطة أو مباشرة؛ وذلك لأن بعض الأفراد أحيانًا ما يشعرون بالإحباط لكنهم لا يقومون بالعدوان، بل بالانسحاب من الموقف المثير للإحباط والبحث عن بدائل إيجابية لمواجهته أو تجاوزه، وكذلك أن بعض الذين يقومون بأفعال عدوانية لا يكون واضحًا وجود سبب معين يتعلق بالإحباط لديهم، وأدى بهم إلى

(٧) المرجع السابق: ٤٣.

الانغماس في مثل تلك الأفعال غير الإيجابية. هكذا قد يؤدي الإحباط إلى الانسحاب أو الاكتئاب أو الهروب أو توجيه العدوان نحو الذات وليس نحو الآخرين. كذلك قد يحفز الإحباط عملية البحث عن وسائل بديلة، يحقق من خلالها المرء أهدافه، وقد لا يكون العدوان من بينها[٨].

إن هناك عوامل كثيرة وانفعالات تتداخل ما بين الإحباط والعدوان، لعل أهمها ذلك الشعور الخاص بالغضب العارم وكذلك الشعور بالإهانة والعجز والرغبة في الانتقام. وإضافة إلى ما سبق، قد يحدث الإحباط نتيجة تلك المقارنات التي يقوم بها أفراد أو جماعات بينهم وبين آخرين، كأن يقارنوا، مثلاً، بين ما يحصلون عليه من أجور أو مزايا أو وظائف أو أراضٍ، وما يحصل عليه الآخرون الموجودون في مركز السلطة أو صنع القرار، ومن حولهم، أو بين الوضع الداخلي السيء في بلادهم والأوضاع الجيدة لبلاد أخرى يعتقدون أنها تستغلهم أو كانت تستغلهم (الدول الاستعمارية مثلاً) وما تزال تهدد وجودهم وقيمهم ومستقبلهم الآن. وعندما تحدث مثل هذه المقارنات، تتولد مشاعر وإحساسات بالظلم والحرمان والغبن والإقصاء، وتتوالد. هكذا أشارت بحوث هاجرتي إلى أن المشاعر المرتبطة بالسعادة تكون في درجة أقل، بينما تكون معدلات الجريمة أعلى، في تلك الدول التي توجد فيها تفاوتات كبيرة في الدخل. كذلك أثارت بحوث أخرى إلى أن المثقفين والشباب المتمردين يشعرون بالإحباط عندما يفكرون ويواجهون بعض الظروف الاجتماعية المحبطة، ومن ثم فإنهم قد يفكرون في تغيير مجتمعاتهم إما بالسفر والهجرة الدائمة، أو المؤقتة، بعيدًا عنها، أو من خلال محاولة تغييرها من الداخل بالاحتجاجات والتمرد والثورات[٩]. ومع ذلك فإن دراسات أخرى قد طالبت بضرورة وضع المكون الأيديولوجي المرتبط بالعقيدة والقيم والاتجاهات في الاعتبار، وقبل أن نقوم بالربط، هكذا، بين هذه المتغيرات وبعضها، أو نعتبر السياق الخاص بها واحدًا عبر المواقف والأمم والجماعات.

يعرف بعض العلماء العنف أيضًا بأنه «الأفعال التي يقصد من وراء القيام بها إلحاق الضرر البدني بشخص أو أشخاص من خلال الاستخدام للقوة البدنية أو المادية». وهذا التعريف للعنف مهم، لكنه يقصر معناه على العنف البدني واستخدام القوة البدنية أو المادية، بينما توجد حالات أخرى من العنف قد تمتد آثارها إلى الإيذاء النفسي والتخويف والإرهاب. وقد تستخدم وسائل

(٨) المرجع السابق: ٦٤-٦٧.

(٩) Ann E. Cudd, *Analyzing Oppression* (New York: Oxford University Press, 2006): 86.

أخرى؛ مثل البروباجندا وأجهزة الاتصال، والرسائل الغامضة، والإنترنت والحصار الاقتصادي، وغير ذلك من الوسائل التي قد لا تبدو عنيفة عندما ينظر إليها ظاهريًّا، لكنها قد تحتوي؛ من حيث دلالاتها ونتائجها على تأثيرات تفوق مجرد الإيذاء البدني. إنها قد تؤدي إلى خسائر هائلة في الأرواح والممتلكات ومستقبل الأمم والأفراد والشعوب. وقد تقوم بها دول أو جماعات إرهابية أو أفراد. هكذا ينبغي توسيع المعنى الخاص للعنف؛ بحيث لا يقتصر على المعنى المادي أو البدني وعلى الاستخدام للقوة المادية فقط. هكذا قد يكون العنف ماديًّا أو معنويًّا، مباشرًا أو غير مباشر، لكنه في الأحوال كلها يُحدِث حالات من الضرر أو الدمار(١٠).

مستويات العنف

هناك أنواع ومستويات مختلفة للعنف، لكنها تشترك مع بعضها في هدف رئيسي، كما تشير آن كد، ألا وهو القمع لطرف آخر أو تعزيز عملية القمع له، وإيقافه عند حدود معينة، أو قتله، أو إبادته. وهنا ينبغي علينا أن نميز بين نوعين أيضًا من العنف؛ هما العنف العشوائي والعنف المنـظم. ولا يتـــــوجه العنف العشوائي نحو جماعة اجتماعية بعينها، ومن ثم لا تكون علاقته بالقمع واضحة هنا، بل قد يكون مرتبطًا بالمواجهة لسلطة قامعة والتمرد عليها، كما في الاحتجاجات العنيفة والمظاهرات التي قد تترتب عليها خسائر في الأرواح. وعادة ما يتم النظر إلى مثل هذه الاحتجاجات من خلال القانون أو بعض فئات المجتمع الأخرى، على أنه عنف عشوائي أو غير منظم، لكنه قد يصل في قوته أيضًا إلى حد الإطاحة برؤساء الدول والحكومات كما حدث خلال الثورة الفرنسية والصينية والكوبية وغيرها، وكما حدث في تونس ومصر واليمن، تمثيلاً لا حصرًا، خلال السنوات الأخيرة. ويكون العنف منظمًا عندما تكون ضحاياه هي جماعات اجتماعية معينة أو أفراد عندما يشكل جزءًا من نمط خاص في الإيذاء وإلحاق الأضرار بالآخرين.

(١٠) المرجع السابق: ٨٧-٩٠.

أما العنف المنظم، فينقسم بدوره إلى خمسة أنواع هي:

١- الحرب التي تقع بين أمة مستقلة مسيطرة وأخرى تابعة أو محتلة.

٢- العنف الذي تمارسه السلطة في دولة ما، وبرعايتها، ضد بعض الجماعات التابعة، لها لكنها غير المنضوية، تحت لوائها، بشكل تام، من خلال قيام هذه الجماعات بالاعتراض أو التمرد مثلاً.

٣- العنف الذي لا ترعاه الدولة بشكل مباشر، لكنها تتغاضى عنه، عندما تقوم به جماعات مهيمنة في مجتمع ما ضد جماعات تابعة أخرى.

٤- العنف الذي تمارسه جماعات تابعة أو ليست في مركز السلطة أو في تحالف معها ضد جماعات مهيمنة أخرى.

٥- العنف الذي يحدث بين جماعات متصارعة.

ويمثل ذلك الشكل التالي:

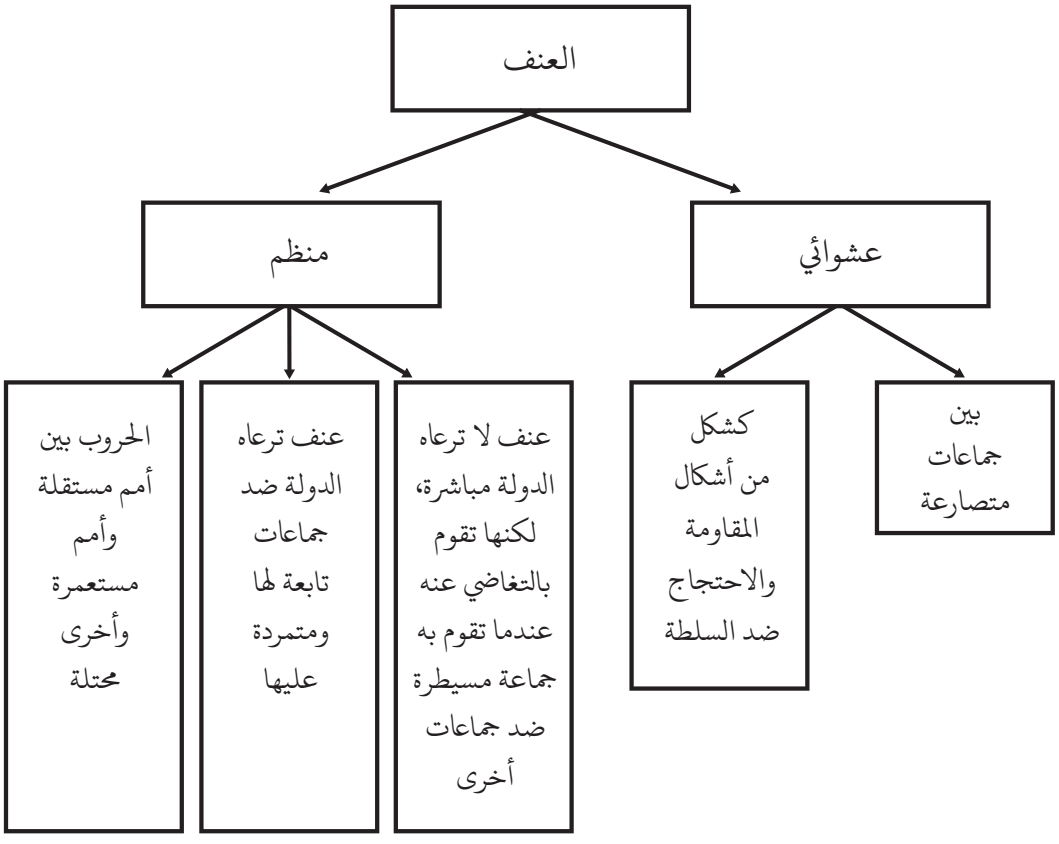

شكل رقم (١): يبين أنماط العنف ومستوياته.

(انظر: Ann E. Cudd, *Analyzing Oppression* (New York: Oxford University Press, 2006): 89)

ومن الواضح بالطبع أن الحرب هي طريقة منظمة في إلحاق الضرر والخسائر بطرف آخر، جماعة أو دولة... إلخ. وتقوم الدول بالحروب غير العادلة أحيانًا ضد دول أخرى؛ كي تقمعها وتستولي على مقدراتها. هكذا تكون الحروب وسيلة للعدوان والإخضاع والاستيلاء أو الضم والاحتلال والقمع للدول الأخرى. حدث هذا في الماضي، ولم يزل يحدث في الحاضر أيضًا (احتلال بريطانيا لمصر والهند وكثير من الدول الإفريقية مثلاً، واحتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية واحتلال العراق للكويت والولايات المتحدة للعراق... إلخ).

أما العنف الذي تمارسه الدولة، أو ترعاه، ضد أتباعها أو رعاياها المعارضين لها؛ فهو يتجلى، على أنواع شتى، من العنف السياسي. وقد يوجد خلال فترات الاحتلال، كما فعلت فرنسا خلال احتلالها للجزائر؛ حيث استخدمت سلطة الاحتلال الاستعمارية لممارسة القمع والعنف تجاه أبناء البلاد الأصليين. لكن مثل هذا العنف قد يوجد أيضًا من خلال سلطة ديكتاتورية عسكرية تمارس العنف والإرهاب تجاه أبناء شعبها، وكما كان بينوشيه مثلاً، يفعل خلال حكمه لشيلي، أو من خلال ما تقوم به قوى الأمن الداخلي التابعة للدول؛ من أجل قمع المعارضين أو المنشقين على سلطتها ضمن نظام حكم يزعم الديمقراطية.

وقد تقوم مؤسسات الدولة بممارسة العنف والقمع ضد جماعات أخرى تطالب بحقوقها، وهي عملية غالبًا ما تأخذ وقتًا طويلاً؛ مثلاً العنف ضد المرأة، العنف العرقي، العنف ضد المختلفين في سلوكهم الجنسي... إلخ[١١].

أحد التأثيرات اللازمة للعنف هو أنه ينذر أو يتنبأ بعنف آخر قادم، كما أنه يخلق إحساسًا ما مفعمًا بالقلق والتوتر والخوف وملازمًا لهذا الإحساس الخاص بالتوقع للعنف. وقد أصبح هذا الاحساس مسيطرًا الآن في أماكن كثيرة من العالم مع تصاعد موجات التطرف والإرهاب والعنف حتى إنه وصل بالأمس (٤ يوليو ٢٠١٦م) ونحن في اليومين الأخيرين من شهر رمضان، أن حدثت ثلاث عمليات إرهابية في المملكة العربية السعودية في جدة والقطيف، أما الثالثة فوقعت بجوار الحرم النبوي الشريف، وسقط فيها أربعة أفراد من القتلى من رجال الأمن إضافةً إلى عدد آخر من الجرحى.

(١١) المرجع السابق.

هكذا أصبح العالم يعيش تحت وطأة الشعور بالتهديد، وأصبح الناس يعيشون أو يرزحون، في ظل شعور جاثم بأن الإرهاب قد يواجههم في أية لحظات، في المطارات، وفي الشوارع، وفي الأسواق، حتى في أماكن العبادة.

إن هذا الموقف الاجتماعي والسياسي المفعم بالتهديد قد تحول الآن إلى ما يشبه نوعًا من الاعتقاد المشترك أن أعضاء جماعة ما (أ) هم مجموعة تهدد على نحو متكرر بممارسة العنف أو أن الجماعة تقوم دومًا بالإعداد للعنف نحو جماعة أخرى (ب) أو جماعات[١٢].

لدى فرويد البشر ليسوا مخلوقات لطيفة كما قد يبدون، بل إنهم بحكم طبيعتهم عدوانيون، فالجار بالنسبة إليه ليس مجرد مساعد أو صديق أو صاحب بل شخص يشبع العدوان، قابل للاستغلال الجنسي والاقتصادي وحجز أمواله وأملاكه وإذلاله وإيلامه وتعذيبه والتفكير بقتله.

على الرغم من أن العدوان ليس احتكارًا خاصًّا بالجنس البشري أو سلوكًا خاصًّا به وحده، فإن البشر هم وحدهم من طوروا قدرات عقلية عليا جديدة في هذا الشأن. وهي قدرات قد فصلتهم عن غيرهم من الأنواع الحية الأخرى، ومكنتهم من الإبداع والابتكار والاختراع وبناء المدن وشق الطرق وتشييد الجسور والقصور، لكن القدرات هي ذاتها التي جعلتهم يضعون خططًا واستراتيجيات لإبادة الآخرين، وجعلتهم يبتكرون أسلحة الدمار الشامل وغير الشامل، وجعلتهم يشاركون بلا هوادة في حربين عالميتين كانت محصلتهما أكثر من ستة وسبعين مليون قتيل، منهم حوالي ستون مليون قتيل خلال الحرب العالمية الثانية وحدها. وقد مات أيضًا أكثر من مائة وخمسين ألف عراقي وتشرد الملايين ودخلت الدولة في حرب طائفية ودمار اقتصادي مرعب بسبب معلومات كاذبة مفتعلة استخدمها بوش وبلير في غزوهما للبلاد وتدميرها، وتجلى ذلك كله في تقرير تشيلوكت الأخير حول العراق.

وأنا أكتب هذا الكتاب، وفي نهاية شهر يونية ٢٠١٦م، شاهدت على الفضائيات ما حدث في أحد مطارات إسطنبول، في تركيا؛ حيث جاء ثلاثة أفراد ينتمون إلى منظمة «دولة» داعش الإرهابية، هذا ما قيل في الإعلام من سوريا، على الرغم من أن أحدهم كان روسيًّا، والثاني من أوزبكستان والثالث من قرقيزيا، ودخلوا إلى المطار وقتلوا أكثر من أربعين ضحية وأصابوا أكثر من مائتين. أما اليوم ٢ يوليو ٢٠١٦م، فقد تم احتجاز عدد من الأجانب في المنطقة الدبلوماسية في

(١٢) المرجع السابق.

مقهى، في دكا عاصمة بنجلاديش، وتم قتل ستة وعشرين منهم بأسلحة نارية وأسلحة حادة يدوية وأعلنت داعش مسئوليتها عن الحادث. بينما قالت السلطة الأمريكية إن القاعدة مسئولة عن الحادث، وقد وقع الحادث في العشر الأواخر من شهر رمضان؛ حيث وقع بعد قتل كاهن هندوسي هناك قام به ستة من المهاجمين قتل معظمهم وتم القبض على واحد منهم بعدها بأيام قليلة؛ حيث حدث تفجير موكب للشيعة في باكستان وترتب على ذلك سقوط أكثر من ثمانين قتيلاً.

لقد طور البشر قدرات ومهارات عقلية عليا فصلتهم، كما قلنا، عن الأنواع الحية الأخرى، وهي قدرات تتسم بالكفاءة والتنظيم والقصدية الواضحة، أي أنها تكون قادرة على تحديد هدف ما ومتابعته حتى إنجازه. ويتجلى ذلك في أنشطة إيجابية وسلبية كثيرة، من الأنشطة الإيجابية نجد الإبداع، ومن الأنشطة السلبية نجد الجرائم وحالات العنف الجماعية[١٣].

لقد ذكر فرويد في أحد كتبه؛ وهي الحضارة وسقوطها Civilization and Its Discontents ما يلي «يسلك الإنسان نحو أخيه الإنسان، ليس كإنسان، ولكن كذئب. ومن الذي يمكنه أن يدحض هذا إزاء ما تشهد عليه خبرات الحياة والتاريخ»[١٤].

وعلى الشاكلة نفسها قال عالم الأنثروبولوجيا ذو التوجه السيكولوجي جون إنغام «عبر تاريخ الإنسان كثيرًا ما حدث العنف المنظم، وسيتواصل حدوثه، عند المستويات الاجتماعية كلها، وقد كان القتلة والممارسون للنشاطات العدوانية موجودين دائمًا بين الجماعات التي كانت تعتمد في عيشها على الصيد وجمع الثمار في الماضي على الرغم من أن البعض يعتقد أن مثل هذه الشعوب كانت مسالمة نسبيًّا، وقد كانت عمليات قطع الرؤوس وعمليات القتل ضد الجماعات المقاومة لها أمرًا مألوفًا في مجتمعات البستنة أيضًا. كذلك كانت مجتمعات قبلية عديدة مجتمعات شبه حربية؛ وأيضًا كان الحال بالنسبة لدول عديدة في مرحلة ما قبل الصناعة بل كان بعضها يعبر عن تماسكه وتجانسه من خلال طقوس تشتمل على تقديم أضحيات وقرابين بشرية يتم قتلها». ثم تزايدت الحروب فكانت حروبًا داخلية ودولية وعالمية وتزايد ظهور الإرهاب والعنف العرقي الذي وصل إلى حد الإبادة في أوروبا وإفريقيا وتجلى ذلك في العالم الحديث على نحو غير مسبوق قبله[١٥].

(١٣) المرجع السابق: ٢.

(١٤) المرجع السابق: ٣.

(١٥) المرجع السابق: ٤-٧.

هناك أسئلة كثيرة يطرحها روبون وأوروز في كتابهما «ثقافة تحت الحصار»، و«العنف الجمعي والصدمة» عام ٢٠٠٠م. وهي أسئلة ينبغي علينا أن نعرف إجاباتها عندما نتصدى لمحاولة الفهم والتفسير لذيوع العنف الآن في بعض المجتمعات البشرية.

ولعل أهم هذه الأسئلة ما يلي:

١- ما الدوافع التي تقف وراء العنف عادة والعنف السياسي المتربط بالتطرف والإرهاب على نحو خاص؟

٢- ما الثقافة التي تكون حاضنة للعنف، ومفرخة، أو مولِّدة للعنف، أكثر من غيرها؟

٣- ما السرديات الثقافية المرتبطة بالعنف والعدوان Cultural Narratives؟ وكيف يتم ترميز وتشكيل شفرات العنف الجماعي في هذه السرديات؟

٤- وكيف تلعب التشكيلات الثقافية التي تشتمل على الرموز والفولكلور والتراث وأنماط القدوة أو النماذج Models والطقوس التي تمارس أو يتم تحريكها من أجل تسجيل أو كتابة ومقاومة وعلاج إحدى الصدمات؟ وكذلك ما العمليات الثقافية السيكولوجية المتضمنة في تربية الأطفال وفي استجاباتهم للعنف؟

٥- ما دور ما يسميه إيريك أريكسون بالثقة الأساسية Basic Trust، ما دور الثقة، أو فقدان الثقة، في المؤسسات الاجتماعية والممارسات الثقافية التي تشكل خبرات تضفي المعنى على حياة الإنسان؟ يقول بعض الباحثين إن العنف واسع المدى أو الجماهيري، وكذلك الإرهاب، وقد يكمن وراءه نوع من فقدان الثقة الأساسية في هذه المؤسسات والممارسات، وكذلك محاولة البحث عن مؤسسات وممارسات أخرى بديلة تتوجه إليها مثل هذه الثقة التي تشكل جانبًا مهمًّا من الاستقرار السياسي.

وتعد عمليات اعتراف المؤسسات بأخطائها ومراجعتها لنفسها، أمام الناس، والقيام بمحاكمات عادلة للفاسدين واللصوص والمجرمين أحد أهم تلك الممارسات التي قد تستعيد من خلالها مثل تلك المؤسسات هذه الثقة، وكذلك إحدى أهم الممارسات التي قد تتم استعادة النظام الرمزي في المجتمع والذي يعد فقدانه أحد أسباب العنف السياسي وغير السياسي بداخله[١٦].

(١٦) Antonius C.G.M. Robben and Marcelo Suárez-Orozco, eds., *Cultures Under Siege: Collective Violence and Trauma*, Publications of the Society for Psychological Anthropology 11 (Cambridge: Cambridge University Press, 2000): 4-5.

لا يرحب بعض الباحثين بالفصل بين العنف الخشن أو البدني أو المادي والعنف الناعم (الرمزي أو السيكولوجي أو اللفظي) فالخط الفاصل بينهما كما يقولون أشبه بتلك الخطوط الموجودة على الخرائط، هي خطوط مصطنعة، بل وخطيرة. هكذا قد يكون أيسر تحديد العنف المادي، وتسميته، وقياس كميته، وما يترتب عليه من أضرار وخسائر مقارنة بالعنف النفسي أو الرمزي، فقد يكون أيسر حصر عدد القتلى والمصابين وعدد من فقدوا أطرافهم أو تحديد أضرار عمليات التعذيب من خلال علامات تُركت على جسد الضحية، لكن من ناحية أخرى تكون النشاطات المتعلقة بالعنف الرمزي أو النفسي أكثر مراوغة، وأقل قابلية للتحديد، لكنها قد تكون أيضًا وعلى المدى البعيد أشد خطورة من بعض أنواع العنف المادي[١٧].

بل إننا نزيد، على ذلك، قولنا أيضًا إن كثيرًا من أنواع العنف المادي المرتبطة بالإرهاب والتطرف خاصة، يقف وراءها أنواع من العنف الرمزي والنفسي، والتي تتمثل في التحريض على الجماعات المناوئة، وكذلك تلك الكتابات المتراكمة ضدها والشعارات والهتافات والأغاني والكلمات وغير ذلك من الأشكال الرمزية التي قد لا تمثل خطورة للوهلة الأولى، لكنها تكون أيضًا بمثابة التمهيد أو الإعداد لعمليات عنف مادي لا يمكن توقعها أو إحصاء خسائرها على نحو بسيط.

هكذا ترتبط أنساق العنف المنظم ببنيات أيديولوجية مختلفة ونحن نستخدم كلمة «أيديولوجية» هنا للإشارة إلى تلك المذاهب، والآراء، أو طرائق التفكير الخاصة بفرد أو جماعة أو طبقة. وقد تشتمل أيديولوجيات الكراهية والإرهاب على أفكار مسيطرة عامة شبه زائفة حول التفوق أو النقص البيولوجي أو الخوف من تلوث العرق والسلالة كما هو الحال في النازية والصهيونية والفاشية عمومًا مثلاً[١٨].

سرديات العنف

لقد قال المؤرخ المعروف إدوارد جيبون ذات مرة: «التاريخ ليس أكثر من سجل لجرائم بني البشر وحماقاتهم ومصائبهم». ووافق فولتير كذلك على أن «التاريخ ليس أكثر من صورة للجرائم والمحن الإنسانية»[١٩]. كذلك قال الباحثان ماتوسيان وشيفر «إن العنف السياسي ينشأ

(١٧) المرجع السابق: ٦-٧.

(١٨) المرجع السابق: ٥-٦.

(١٩) سايمنتن، **العبقرية والإبداع والقيادة**: ٢٥٥.

نتيجة لخيبة الآمال التي يشعر بها الصغار والكبار. ولقد تعددت دوافع العنف والعدوان عبر التاريخ». كما طورت بعض الأيديولوجيات الحديثة أفكارًا عامة أساسية تتمسك بها حول الدونية الثقافية Cultural Inferiority للآخرين في مقابل التفوق الثقافي Cultural Superiority لها ولأعضائها؛ (كتلك الخاصة بالمعاداة للمهاجرين، وكذلك الحركات المتحيزة عرقيًّا في أوروبا والولايات المتحدة، وأيضًا تلك الاتجاهات المدججة بالكراهية حتى الإبادة والقتل الجماعي كما حدث في يوغوسلافيا السابقة، وكذلك في رواندا خلال عمليات الإبادة المتبادلة بين قبائل الهوتي والتوتسي Huti-Tutsi وظهور الجماعات النازية الجديدة في أوروبا وجماعات معاداة المهاجرين الأجانب؛ وكما لو كان هؤلاء الأجانب، بحكم لونهم، أو لغتهم، أو أديانهم وممارستهم الثقافية سيقومون بتلويث الثقافة، واللغة، وأسلوب الحياة، والأخلاق الأوروبية. ويظل منطق التلوث قائمًا هنا على أساس وافتراضات بيولوجية زائفة، ربما كانت من بقايا فكرة التهجين أو الهجنة التي عرضنا لها في موضع آخر من هذا الكتاب.

وهناك أيضًا تلك الاعتقادات النازية التي كانت – ولم تزل – تقوم على أسس أفكار؛ مثل نقاء الجنس الآري، وألمانيا، فوق الجميع وغير ذلك من الأفكار. وقد قام قدر كبير من الكراهية الأيديولوجية، تجاه الآخر المختلف، على أساس من تلك الأفكار السياسية المستحوذة أو القهرية المسيطرة المرتبطة بالقتل (الستالينية في الاتحاد السوفيتي السابق مثلاً، وكثير من الحكومات المعادية للشيوعية خلال النصف الثاني من القرن العشرين وبعده في أمريكا اللاتينية أيضًا).

ويقول بعض الباحثين كذلك إن النصوص الدينية قد عملت على تغذية الأيديولوجيات السياسية بالكراهية (النظر إلى اليهود على أنهم قتلة المسيح أو أنهم أبناء القردة والخنازير، أو نظر اليهود إلى غيرهم على أنهم أنجاس أغيار أقل درجة... إلخ).

عندما يتولد الغضب نتيجة الخسارة أو الفقدان لشيء ما (كما حدث بعد إقصاء الإخوان عن حكم مصر مثلاً أي السيطرة على حكم مصر في عهد الإخوان ٢٠١٣-٢٠١٤م) فإن الشعور بالتهديد والخوف من الانقراض والتبدد، وكذلك الشعور بالفجيعة والحزن على ما قد فات أو فقد، والشعور أيضًا بالظلم (أو المظلومية) على تقديم إطار سيكولوجي خاص داخل هذه الجماعات، يعمل على القيام بأعمال عنف منظمة، بينما تقدم الأيديولوجية لها إطارًا ثقافيًّا وأخلاقيًّا يغذيها ويوجهها. إن المسألة هنا تكون في جوهرها أزمة وجود، وليست أزمة حدود أو مسافات كما قد

يقال. هكذا تقوم أنساق الإرهاب والعنف المنظمة دائمًا، ويتم توجيهها، من خلال إطار ثقافي أو معرفي أو أيديولوجي (فكرة تفوق الجنس الآري لدى النازيين وانحطاط أو تخلف الأجناس الأخرى مثلاً... إلخ). وتقوم هذه الأفكار بتكوين تخييلات لدى أتباعها، تتم تغذيتها من خلال صور ونماذج ونصوص وسرديات دينية (الصور التي تطرح مثلاً عن الجنة والحور العين والخلود... إلخ)، وكذلك تلك الفكرة التي فحواها أن النقاء البيولوجي لشعب ما ينبغي أن يتم الحفاظ عليه من خلال الاستبعاد لأية جماعات بيولوجية أقل منزلة وتميزًا.

لقد تحولت فكرة النقاء البيولوجي، أو تمت تقويتها، وترسيخها، وتعديلها من خلال فكرة النقاء الثقافي، فالمهاجرون من الجنوب والشرق يهددون ثقافة الشمال والغرب ليسوا لأنهم أقل، من الناحية البيولوجية، فقط، بل لأنهم أقل، من الناحية الثقافية أيضًا. وإنه ينبغي، هكذا، أن تنم حماية الجماعة الداخلية (الأوروبية أو غيرها) من تلك الجماعات الخارجية الغريبة، المخيفة، المهددة بفقدان النقاء الثقافي، وبحدوث التلوث الثقافي، مع كل تلك الدلالات الخاصة بالتلوث من أمراض وأوبئة وموت وانهيار.

كذلك تقوم سرديات؛ مثل اقتراب نهاية العالم على أساس تخييلات الخوف وإشعار الناس بالذنب وتأنيب الضمير والشعور بالتهديد، نتيجة لفسادهم في هذا العالم الذي ينبغي أن يقوموا بالتكفير عنه، في أقرب وقت. كما أنه من الممكن أن تتبنى الحكومات الديكتاتورية أيضًا (كما حدث في الأرجنتين خلال ما سُمِّيَ الحرب القذرة) مبدأ الأمن القومي والذي أعطى للجنرالات إطارًا للقيام بأعمالهم العنيفة؛ كالخطف القسري والتعذيب وموت آلاف من الأبرياء في معسكرات الاعتقال.

وخلال الحرب الباردة قدمت الاتجاهات الشيوعية وغير الشيوعية إطارًا أيديولوجيًّا قويًّا لتنظيم الكراهية وتوجيه العنف بأشكاله المختلفة، والشيء الذي انطوى على مفارقة هنا هو أن الرعب من الإبادة النووية قد وفر قوة فعالة للمراقبة والتحجيم (الحصار) للكراهية التي تقوم على أساس فروق دينية أو عرقية. لكن ومع انهيار الاتحاد السوفيتي، كمشروع سياسي قابل للحياة، وانهيار دور الاتحاد السوفيتي كوسيط في عملية الحفاظ على التوازن خلال ذلك الرعب النووي، تزايد توالد وقوة أيديولوجيات الكراهية التي تقوم على أسس ثقافية ودينية وعرقية مرة أخرى[٢٠].

(٢٠) Robben and Suárez-Orozco, *Cultures Under Siege*: 4-7.

معنى الإرهاب

هناك أكثر من مائة تعريف للإرهاب، وعندما تم تحليلها وجد حوالي ٢٢ عنصرًا مشتركًا بينها؛ منها العنف، القوة، الخوف، التهديد، نوع الهدف، ما وراء الفعل، أهدافه، التمييز بين الضحية والمعتدي... إلخ. والإرهاب، في جوهره، مجموعة من الأفعال العنيفة (تهديدات أو ممارسات عنيفة) يقصد من ورثها أحداث الخوف (الذعر – الرعب – الفزع) ويُمارس الإرهاب من أجل أهداف اقتصادية، أو دينية أو سياسية أو أيديولوجية أو ذلك كله معًا وهو وهي (هذه الأفعال والتهديدات) تتوجه على نحو متعمد نحو هدف معين أو من أجل خلق حالة عامة من الشعور بعدم الأمن والخوف واللا يقين وتتوجه عامة نحو المدنيين أو العسكرين.

وعلى حين فضل كمال حبيب استخدام مصطلح «العنف بتأويل ديني» كبديل لمصطلح الإرهاب، فإنه اعتبر ظواهر مثل الغلو والتطرف والتعصب أو الهجرة والاعتزال والمعارضة الدينية السلمية أو الاحتجاج الديني الذي يعبر عن مظالم اجتماعية وسياسية ظواهر لا تدخل ضمن هذه الظاهرة. ومع ذلك فإنه قد تجاهل الإشارة أيضًا إلى أن هذه المظاهر وخاصة الغلو والتطرف والتعصب والهجرة والاعتزال غالبًا ما كانت مقدمات لتكفير المجتمع ومن ثم القيام بأعمال إرهابية ضده تمثلت في ترويع المدنيين واستهداف مؤسسات الدولة والمجتمع وغير ذلك من الأمور[٢١].

وقد أشار حبيب إلى أنه يقصد من وراء مصطلح «العنف بتأويل ديني» كبديل عن الإرهاب: «الفعل الحركي الذي يصدر عن جماعات أو أفراد يتأولون نصوصًا وأحداثًا دينية إسلامية تؤسس لاستخدام العنف لتحقيق أهداف غير مشروعة داخل الدول الإسلامية أو خارجها». وعلى الرغم من أنه كان يريد، على وجه خاص، أن يميز، من ناحية ، بين الاستخدام للقوة في رد الاعتداء على بلاد المسلمين، كما هو الحال، بالنسبة للعراق وأفغانستان وفلسطين، فاعتبر ذلك «من باب الجهاد المشروع ولا يعد عملاً إرهابيًّا» وبين هؤلاء الذي يتخذون من الدين الإسلامي مرجعية لهم، ولكنهم، من ناحية أخرى، يتأولون نصوصه لتبرير ممارستهم العنيفة ضد السلطات الحاكمة بدعاوى إقامة الدولة الإسلامية أو استعادة الخلافة أو الانتقام من بعض ممارسات السلطات العلمانية أو مناصريها في البلاد الإسلامية؛ كالرد على التعذيب أو انتهاك الحرمات وغيرها، أو الثأر لما يحدث للمسلمين

(٢١) كمال حبيب، «المقدمة»، في **العنف بتأويل ديني: الحالة المصرية**، مراصد ٢٦ (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية، ٢٠١٤): ٨.

في البلدان غير المسلمة، أو الرد على جيوش الصليبيين لبلدان العالم الإسلامي باستهدافهم داخل بلدانهم أو استهداف المخالفين في المذهب أو العقيدة من المدنيين... إلخ»[٢٢].

إنا لا بد أن نلاحظ هنا أن كمال حبيب، في حين أراد أن ينفي تهمة الإرهاب عن الإسلام، فاقترح استخدام مصطلح «العنف بتأويل ديني» بدلاً عن مصطلح الإرهاب، فإنه قام، في الوقت نفسه، بربط هذا العنف بالإسلام والمسلمين وكأن العالم قد خلا أو كاد من المتطرفين من الهندوس أو البوذيين أو المسيحيين أو اليهود أو غير ذلك من الديانات. التطرف موجود في الديانات كلها، لكن الصورة الدموية المخيفة الحالبة تربطه بالإسلام فقط. ويساعد المسلمون أنفسهم بأفعالهم وسلوكياتهم على ترسيخ هذه الصورة في أذهان العالم، على نحو يدعو للدهشة، فما الذي يجعل لاجئًا سوريًّا عندما يتم رفض طلبه اللجوء إلى إحدى الدول الأوروبية أن يقوم بتفجير نفسه أمام أحد المطاعم؟ ولماذا عندما يشعر المسلمون بالتهميش في البلاد الأوروبية يقومون بارتكاب أعمال تفجيرية إرهابية بدلاً من أن يكون قدوة في العمل والسلوك؟

لا ينتسب الإرهاب إلى دولة دون أخرى، كما يشير ماجد موريس عام ٢٠٠٧م، ولا يمكننا أن ننعت به دينًا دون آخر. ولا ينتمي الإرهاب لطبقة اجتماعية واقتصادية معينة ولا لاتجاه فكري أو سياسي ماركسي يساري أو فاشي يميني والإرهاب ليس حكرًا على العسكريين ولا هو وصمة للمدنيين الغوغاء، لهذا كان البحث في موضوع الإرهاب مغريًا بالبحث عن مكامن الخوف وهويته ودافعًا إلى رحلة تثير فيها أغوار النفس البشرية[٢٣].

يرجع مصطلح الإرهاب، بمعناه الحالي، إلى نهاية القرن الثامن عشر؛ إذ إن ثوار الثورة الفرنسية الكبرى في ١٧٨٩م اعتبروا أن الإرهاب وسيلة أساسية من وسائل الحكم؛ ففي ١٠ مارس ١٧٩٧م أصدر دانتون – وهو أحد قادة هذه الثورة الكبار – مرسومًا يقضي بالهجوم على المنازل لتعقب المشبوهين. ويلخص الوضع الذي ساد فرنسا في تلك الأيام قول ورد على لسان أحد رؤساء المقاطعات في المؤتمر الوطني بباريس: «لقد حان وقت ترهيب المتآمرين. أيها المشرعون ضعوا الإرهاب جدول أعمالكم»[٢٤].

(٢٢) المرجع السابق.

(٢٣) ماجد موريس إبراهيم، **الإرهاب: الظاهرة وأبعادها النفسية** (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٥): ٢١.

(٢٤) المرجع السابق: ٢٠.

يعرف الإرهاب السياسي بكونه «استعمال العنف بواسطة مجموعة قومية أو منظمة سرية من أجل الحصول على حقوق سياسية أو اجتماعية أو دينية عندما يكون المقصود من هذا العنف تخويف العامة أو إثارة مشاعر المراقبين أو التأثير على سلوكيات ومواقف أعضاء المجتمع أكثر من كونه فعلاً يقصد به إلحاق خسائر أو الإيقاع بضحايا». إن النظرة السريعة إلى تاريخ الإرهاب في العالم تطلعنا على موقف متناقض مشكل، ألا وهو ارتباط العنف في عديد من صوره بالتراث الديني السائد في عصر ما أو مكان بعينه[٢٥].

أيديولوجيا العنف والإرهاب

يقصد بالأيديولوجيا وجود أفكار أو نظريات سياسية، واجتماعية وعلمية، تزعم أنها تقود تبريرات للتراث والحياة. ومن أكثر أنواع الأيديولوجيات قوة ما يسمى القومية؛ حيث يعتقد الأشخاص أن أممهم متفوقة على الأمم الأخرى، كما يحدث الآن في الولايات المتحدة، فيعتقد الناس بأن دولتهم دولة استثنائية متفوقة أقوى من غيرها، خاصة فيما يتعلق بحقوق الإنسان والأخلاق المدنية، وهي أيضًا جديرة بموقعها كقوة عسكرية متفوقة وحيدة. وهذا الاعتقاد هو الذي جعل من السهل بالنسبة لكثير من المواطنين الأمريكيين تبرير القيام بأفعال وإجراءات ضد الأمم والشعوب الأخرى، عندما يتكون لديهم اعتقاد بأن هذه الشعوب أو الجماعات الأخرى تقوم بانتهاكات غير مبررة إنسانية وتخترق، من خلالها، المبادئ الدولية إلى الحد الذي يصل إلى مستوى جرائم الحرب. وتتم معاملة الكتاب والمفكرين الذين ينكرون هذا التفوق الأمريكي، أو يحاولون إظهار ارتكاب الولايات المتحدة لمثل هذه الجرائم، على أنهم من المتطرفين، أو أنهم يفتقرون للمنطق، أو قد يتم وصفهم بعدم الولاء لبلادهم. والأسوأ من ذلك أن هذه الأيديولوجيا هي التي يتم من خلالها إرسال الجنود لتنفيذ هذه الأوامر اللا أخلاقية. وفي الغالب يكون هؤلاء الجنود من أبناء الطبقة العاملة أو من طبقات محرومة اقتصاديًّا، ولأنه يتم إعدادهم كي يكونوا شديدي الإخلاص لمثل هذه الأيديولوجيا، فإنهم يقبلون مثل تلك المهام حتى عندما تكون هذه المهام غير عادلة، وكذلك عندما يتم إجبارهم على نحو غير عادل على قبول القيام بها.

(٢٥) المرجع السابق: ٢٦.

وقد أشار تشارلز تيلي في تحليله لـ«سياسات العنف الجماعي» عام ٢٠٠٣م إلى أن إثارة الذعر استراتيجية وليست عقيدة، لم يقم تيلي بالتركيز على نحو أساسي على الأفكار أو السلوكيات الخاصة بالممارسين للعنف الجماعي، ومنه الإرهاب، والتي قد تتغير عبر الزمان والمكان بل قام بالتركيز على العمليات الاجتماعية التي ينتجها العنف نفسه. ولهذا المنحى العلائقي Relational أهميته؛ وذلك لأنه يتيح الفرصة لنا لفهم أسباب تباينات العنف التي كانت سائدة عبر التاريخ الأوروبي وقبل التهديد الأصولي للحضارة الإنسانية.

لقد استخدم الذعر، كما ذكر رايت، كاستراتيجية تتعلق بخطاب العنف من أجل التدعيم للأيديولوجيات اليسارية واليمينية ومن جانب ممثلين للدول وغير ممثلين لها أيضًا.

باختصار، يمكن النظر إلى الإرهاب على أنه «استراتيجية تخاطُب عنيفة يقصد من ورائها أن تُحدِث الخوف». ومن ثم لا ينبغي أن تهتم الدراسات التي تجري حول الإرهاب بالفحص فقط للإطار الظرفي الخاص به، أو للفرص التي تجعله يظهر ويحقق أهدافه، بالتنظيم الخاص به، وكذلك الدوافع التي تقف وراء العمليات العنيفة التي تقوم بها المنظمات الإرهابية، بل أيضًا بمدى جاذبية العنف ذاته بالنسبة لبعض الأفراد والجماعات. كما يمكن النظر إلى الإرهاب أيضًا على أنه مجموعة من الأفعال والرسائل والرموز التي يتخاطب (يتواصل) الإرهابيون، من خلالها، عبر ضحاياهم؛ حيث ينقل هؤلاء الضحايا سواء كانوا موتى أو أحياء رسالة إلى جمهور عريض أكبر بأن هذا الفعل غير قابل للتحكم فيه[٢٦].

ويقصد من وراء العمل الإرهابي أن يحدث نوعًا من التفاعل معه، هكذا يريد الإرهابيون إثارة نوع من العداء في استجابات الأفراد على نحو يحقق أهدافهم. والإرهاب فعل استثنائي ينتهك القانون يعتمد على العنف يحاول أن يحدث الفوضى في النظام القائم؛ حيث تطرح المنظمات الإرهابية نفسها كقوة معارضة ضد ما يتم إدراكه على أنه جماعات سياسية واقتصادية مهيمنة غير متجانسة، ويكون الإرهاب عادة نوعًا من الهجوم الذي تقوم به الجماعات الأضعف ضد السلطة الحاكمة والتي تدرك على أنها أقوى، ومن ثم تميل الجماعات والأنشطة الإرهابية إلى أن تكون خفية مستترة.

(٢٦) Friedhelm Neidhardt, "Terrorism: Conditions and Limits of Control", *Historical and International Perspectives on Violence in Modern Societies* (New York: Springer, 2011): 431-444.

هكذا يكون الصراع الإرهابي أشبه بمجال عمليات لا يمكن التنبؤ بها على نحو كبير، ومن ثم فإنه مجال يمتلئ بالدهشة والاستغراب والخوف والتوقع والذعر، وغير ذلك من المشاعر.

تصبح الأعمال الإجرامية التي يتم خلالها تدمير الممتلكات، وقتل الناس، أو إصابتهم، أعمالاً إرهابية؛ عندما يتم إدراكها وتبريرها، من خلال عوامل سياسية. هكذا تكون الأعمال الإرهابية أشبه بعمليات هجوم عنيفة على النظام السياسي من خلال جماعات محظورة أو غير منظورة (تحت الأرض).

يعتقد الإرهابيون – على عكس المجرمين العاديين – أن أفعالهم العنيفة صحيحة ومبررة ومطلوبة وموجهة نحو سلطات غاشمة أو ظالمة ومن ثم يكون الطابع السياسي المميز لها واضحًا، إنهم يهاجمون المشروعية التي تقوم على أساسها هوية الدول الحديثة. ولقد جعلت وسائل الإعلام الجماهيرية من الصعوبة بمكان، بالنسبة للدول أن تتجاهل هذه الأعمال الإرهابية، أو تتظاهر بعدم الاهتمام بها. فالأفعال الإرهابية لها قيمة إخبارية استثنائية، هكذا لا تكون لدى الدول رفاهية التجاهل للعرض للحدث الإرهابي حتى يخرج من قاموا به من ساحة الحدث. إن وكالات أنباء أخرى سوف تبثه على التليفزيون أو على قنوات التواصل الاجتماعي... إلخ. هكذا سيكون الموت والاصابات التي تلحق بالضحايا الأبرياء نوعًا من الفضيحة العامة للسلطات المسئولة. كما أن هناك نوعًا من العلاقة التكاملية الغريبة بين الإرهاب والميديا؛ فالإرهاب يستخدم الميديا، والميديا تستفيد من عرض حداث الإرهاب، فبدون الميديا لن يستطيع الإرهابيون نشر الذعر، سوف تكون أفعالهم ضعيفة الأثر، فالهدف من الأعمال الإرهابية ليس مجرد التدمير المباشر للممتلكات أو المنشآت أو قتل عدد من الأفراد أو جرح آخرين. كما أنهم يعرفون أنهم أضعف من أن يهزموا غريمهم السياسي الذي يحاربونه. هكذا يوظف الإرهاب من أجل نشر الخوف والفزع، من ثم يحتاجون إلى الوسائل الإعلامية (الميديا)، كما أن الميديا يكون لها اهتمامها – مصلحتها – الخاصة المتعلقة بعملها كاستراتيجيات مستخدمة في خطاب العنف التفاعلي.

وتعد العمليات الإرهابية ذات فاعلية استثنائية في إحداث حالة الخوف وما يترتب عليها، وقد أظهر مسح ميداني أُجري بعد شهرين من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م أن ٨٦٪ من المواطنين الأوروبيين الذين عبروا عن وجود مستويات أكثر ارتفاعًا من الخوف لديهم أكثر من غيرهم كانوا يخافون مثلاً من الإرهاب.

لا يمكن أن تقوم الدول الحديثة، وتستمر، إذا فشلت في مواجهة الإرهاب أو القضاء عليه. فالدول تقوم على أساس احتكارها لاستخدام العنف المشروع أو القانوني، وهي التي تقوم على أساسه، ولا يمكن تدميره. كما أن الديمقراطية تقوم في جانب كبير منها على أساس ولاء المواطنين للدولة التي تحقق لهم الأمن والأمان. وعندما تفشل دولة ما في تحقيق مثل هذا الأمن، أو تشعر أنها غير ملزمة بذلك، بالنسبة لبعض مواطنيها، أو كلهم، فإنها ستكون أشبه بدولة فاشلة، وشبه دولة، ومن ثم ستزداد احتمالات عمليات العنف الإرهابية وغير الإرهابية التي تظهر منها. وتظهر المواجهات العنيفة أيضًا بين القوات الرسمية والمليشيات أو جماعات المعارضة بداخلها. وقد حدث ذلك – وما يزال يحدث – في دول مثل كولومبيا وسيريلانكا والفلبين والصومال والكونجو وسيراليون وليبيريا وغيرها.

كتب كارل فون كلاوسفيتز يقول: «إنه في مملكة اللا يقين، تكون ثلاثة أرباع الأشياء التي تُحدِث الحرب، في ظلها، مخبوءة داخل قدر، صغير أو كبير، من ضباب اللايقين. إن الحرب هي ميدان الصدفة». وهذا أمر صحيح أيضًا وربما بدرجة أكبر فيما يتعلق بذلك الصراع غير المتجانس في مواجهة الإرهاب، كما يقول بعض العلماء. فجزء كبير من سوء سمعة الإرهاب وشراسته الخاصة بالإرهاب هو ناتج عن ضعفه، فالإرهابيون لا يكونون على درجة من القوة التي تسمح له بالحرب في النور أو خلال مواجهات صريحة. وعلى الرغم من التفاوت في عدد وتنظيم وقوة الجماعات الإرهابية، فإنها، في معظمها تعمل من تحت الأرض، في الخفاء، ومن خلال جماعات صغيرة، كما أن بنيتها التنظيمية تكون غير متماسكة نسبيًّا، وتوجه هجماتها غير المتوقعة نحو أفراد لا يشتركون معهم في صراع مباشر، غالبًا من الأبرياء وهي تقوم بهذه الهجمات في زمان ومكان غير متوقعين.

من المهم أن نفهم أيضًا الجماعات والأفكار المرجعية التي تعتمد عليها الجماعات الإرهابية من خلالها وتتوجه نحوها أو تتكئ عليها. كما ينبغي أن نفهم أن الإرهاب، في جوهره هو مشروع سياسي A Political Project، كما يقول علماء كثيرون. إنه مشروع يسعى من أجل تغيير موازين القوى، ومن ثم يكون العنف الذي يمارسه عنفًا يختلف عن ذلك العنف المصاحب للجرائم العادية، وذلك من حيث وجود اعتقاد ما وقناعة ما لدى الممارسين له، والمحرضين عليه، بوجود مشروعية ما لديهم ينبغي تحقيقها. هكذا، وخلال التفسيرات العملية لما يقومون به، لا يمتلك الإرهابيون خصلة الاعتذار، بل إنهم يستخدمون التبريرات لخلق نوع من الشعور الأخلاقي

أو الضمير المفعم بالرضا نتيجة ما قاموا به من أفعال ومن خلال قيامهم بذلك يعملون على توليد أو تكوين اعتقاد لدى جماعتهم المرجعية يتعلق بمشروعية ما يقومون به. ويعتبر هذا أمرًا حاسمًا من الناحية السياسية وتزداد فرصة نجاح الإرهاب إذا نجح في تدويل الصراع الذي يشترك فيه؛ أي إذا أصبح موضوع اهتمام دولي وليس مجرد اهتمام محلي أو محدود[٢٧].

هناك حادثتان وقعتا في أوائل ثمانينيات القرن الماضي، جذبتا اهتمام العالم الغربي إلى ظاهرة الإرهاب المتعلقة بالعالم الإسلامي، ففي السادس من أكتوبر عام ١٩٨١م قام خالد الإسلامبولي الذي كان ملازم أول في الجيش المصري وعضوًا في الجماعة الإسلامية الراديكالية باغتيال الرئيس أنور السادات خلال عرض عسكري على مشارف القاهرة. ولم يصبح الإسلامبولي مشهورًا بسبب ما قام به فقط، ولكن لسبب ما قاله من كلمات عقب عملية الاغتيال عندما صرخ قائلاً «لقد قتلت الفرعون، وأنا لا أخشى الموت». وقد ذكر محاميه بعد ذلك كيف أنه كان يقضي الوقت خلال جلسات المحاكمة «مستغرقًا في تأمل عميق» وكذلك أنه ورفاقه لم يكن لديهم أدنى شك أنهم سيدخلون الجنة فقد كانوا يعتبرون أنفسهم شهداء.

أما الحادثة الثانية الأخرى فوقعت بعد ذلك في ١١ نوفمبر ١٩٨٢م عندما قام أحمد قصير الذي عرف بعد ذلك أنه ينتمي إلى حزب الله بقيادة سيارة ملغومة إلى داخل مكان توجد فيه قوات إسرائيلية في جنوب لبنان، وقتل أكثر من مائة وأربعين شخصًا في واحدة من الحوادث التي اعتبرت الأولى في سلسلة التفجيرات الانتحارية التي بلغت ذروتها هجومين حدثا، خلال الوقت نفسه؛ في بيروت في أكتوبر ١٩٨٣م على قوات أمريكية وفرنسية كانت تعمل ضمن القوات متعددة الجنسيات هناك، مما أسفر عنه قتل وإصابة أكثر من ثلاثمائة وأربعة أشخاص. وقد ادعت جماعة تطلق على نفسها اسم «الجهاد الإسلامي» مسئوليتها عن الحادثتين، وهددت بالقيام بأعمال هجومية أخرى لاحقًا كما أعلنت أن أعضاءها مغرمون بالموت، وقد كان القائمون بمثل هذه العمليات ليسوا فقط على استعداد للتضحية بأرواحهم، بل إنهم كانوا يقومون بذلك وفقًا لما قاله بعض الشهود، بينما ترتسم على وجوههم تعبيرات البهجة والسرور[٢٨].

(٢٧) المرجع السابق.

(٢٨) Stefan Malthaner, "Fighting for the Community of Believers: Dynamics of Control in the Relationship between Militant Islamist Movements and Their Constituencies", *Historical and International Perspectives on Violence in Modern Societies* (New York: Springer, 2011): 445-466.

وقد كانت تلك الجماعات، بالنسبة للعالم الغربي، مثيرة للحيرة والقلق والخوف، وقد كانت تبدو وكأنها تتحرك من خلال واجب ديني يلزمهم بالقيام بذلك. كما أنها كانت تتحرك من خلال منطق يبدو أنه كان مختلفًا تمامًا عن ذلك المنطق الذي يحرك الجماعات المتمردة أو الإرهابية الأخرى، لقد كان لديهم حماس للموت، وعدم خشية له، وكذلك رغبة في الفوز بفرصة لدخول الجنة.

العنف والإرهاب وزملة أعراض ما بعد الصدمات

في كتابه «ما وراء مذهب اللذة» قدم فرويد بعض الحكايات حول كيف يعاني بعض الناس من حالة مرضية مخيفة (هي ما تعرف الآن باسم اضطراب مشقة ما بعد الصدمة Post-traumatic Stress Disorder (PTSD)، وذلك عقب بقائهم أحياءً بعد مرورهم بحرب مدمرة أو حادثة طريق أو اضطرابات عنيفة اجتاحت المجتمع الذي عاشوا فيه، وغير ذلك من الخبرات التي اقترب الناس خلالها من الموت فعلاً، وإن كان على مستوى التصور والتوقع والاحتمال.

الشيء المثير للدهشة أن فرويد قد استخدم تلك القصص كي يقول إن تلك الاضطرابات التي عانى منها هؤلاء الناس لم يكن سببها ذلك التهديد الفعلي الذي شعروا به عندما اقتربوا منه، ولكن سببها كان ما أصابهم من دهشة أو ذهول مصاحب لذلك، وهو ذهول تحول إلى رعب. رعب تخلله قلق جارف عنيف، لم يحدث ذلك كله؛ لأنهم واجهوا الموت، بل لأنهم، وكما يقول فرويد، لم يكونوا قد أعدوا أنفسهم على نحو مناسب لمثل تلك المواجهة، أو بالأحرى لمثل تلك الصدمات. وربما لم تكن هذه الصدمات مرتبطة، على نحو مباشر، بحالة خارجية محددة، تُحدِث التهديد للذات، أيًّا كانت قوتها أو شدتها؛ بل لأن تلك الصدمة تحدث نتيجة ذلك الصدع أو الانقطاع المفاجئ الذي يحدث في تلك الخبرات الخاصة بالزمن أو الوقت، ونتيجة حالة الذعر التي تهيمن على الناس.

وخلال حديثه عن حالة الذعر التي تصيب الناس في مواقف الصدمات وأحداثها، قام فرويد بالتمييز بين ثلاث استجابات وجدانية أو انفعالية؛ هي الذعر والخوف والقلق، وذلك من حيث علاقتها بحالة أو مفهوم الخطر؛ حيث يصف القلق بأنه حالة خاصة من الشعور بالتوقع للخطر أو التهيب منه والاستعداد له. هذا الخطر قد يكون غير معروف، بل قد يكون غير محدد،

فيتم تعميم القلق، ويصبح مرتبطًا بكل شيء، ويصبح مصحوبًا بالشك والحيرة وفقدان اليقين، يصبح حرًّا طليقًا، هائمًا، مهومًا، يتحول من حالة قلق إلى سمة مميزة لشخص أو لأمة أو جماعة.

المفهوم الثاني هو «الخوف»، والخوف يتطلب وجود شيء معين نخاف منه كالخوف بين فيضان أو زلزال أو مجاعة... إلخ. وأخيرًا فإن الذعر أو الرعب يصف تلك الحالة التي يجد المرء عليها نفسه فيها في مواجهة الخطر دون أن يكون قد أعد نفسه لمثل تلك المواجهة، وهنا يتم التأكيد على عامل الدهشة نتيجة الافتقار للتوقع. وقد أشار فرويد إلى الخوف وميزه عن القلق، لكنه قال إن هناك شيئًا مميزًا للقلق، وشيئًا يجعله يحمي الذات ضد الذعر، ومن ثم ضد أنواع العصاب كلها المرتبطة بالذعر أو الرعب. هكذا تكون للقلق قيمة بنائية إيجابية؛ فهو يحمي الذات ويجعلها تتوقع الخطر، كما أن له قيمة سلبية لأنه قد يجعلها مشغولة بمثل هذا التوقع، ومن ثم تقع أسيرة الشك والحيرة وفقدان القدرة على التنبؤ أو الشعور باليقين. وقد يتحول هذا القلق العام إلى قلق وجودي يشعر خلاله المرء بالخوف والتوجس، وأن الحياة لا معنى لها ولا جدوى، وأنه لا فائدة من العمل أو الأمل أو الحب أو البشر أو الوجود، ومن ثم قد يغرق في حالة من الانعزال والاكتئاب واختلال الشعور بالواقع والذات وغير ذلك من الانفعالات.

وقد أكدت دراسات كثيرة ارتباط القلق بالأمراض كافة التي تحدث فيها حالات اختلال الشعور بالواقع، واختلال الشعور بالشخصية، بل لقد وجد أيضًا أن القلق أحد أقوى المؤشرات التنبؤية بحدوث حالات اختلالات الشعور بالشخصية في المستقبل، ومع تحول القلق إلى ذعر – وبخاصة خلال المواقف المحبطة أو المسببة للصدمات – يزداد انتشار مثل هذه الحالة التي نتحدث عنها.

من خلال العنف، أو التهديد، به يعمل شعور الذعر على تعزيز سيطرة جماعة ما أو جماعات على المجال الشعوري لجماعة ما أو جماعات أخرى.

ووفقًا لما قالته الطبيبة النفسية جوديت هيرمان فإن الصدمة النفسية هي نوع من الحزن والأسى والألم المتعلق بالشعور بالعجز أو اللا حول واللا قوة، ففي لحظة الصدمة، تتحول الضحية إلى كائن لا حول له أمام قوة هائلة تهاجمه. وقد ميزت جوديت هيرمان بين ثلاث فئات رئيسة من الأغراض الخاصة بزملة ما بعد الصدمة Post-traumatic Stress Syndrome (PTSI).

هي: الشعور بالاستثارة المرتفعة، والأفكار أو المضخمة والانقباض أو الانسحاب.

فأولاً: يظل الشخص الذي يتعرض لصدمة كبيرة؛ مثل الإرهاب، ويبقي حيًّا، في حالة مستمرة من التنبه. واليقظة الذهنية والعصبية كما لو كان يتوقع دائما أن الخطر سوف يعود في أية لحظة، حتى عندما يمر ذلك الخطر وينقضي أو يتم القضاء عليه. وتكون عمليات التنبه الدائمة هذه غير مفيدة في التكيف واستمرارية الحياة؛ وذلك لأن مثل هذه الأعراض قد تعمل على استنزاف الطاقة الخاصة بالفرد؛ وذلك لأنه يظل مستيقظًا فترات طويلة في أرق، وعاجزًا على نحو واضح عن النوم، وكذلك يظل في حالة مستمرة من الخشية والخوف وعدم الثقة في الآخرين بشكل عام.

ثانيًا: كذلك يعاني الأفراد الذين عانوا من الصدمات على نحو متكرر من وجود أفكار مقتحمة لوعيهم وتفكيرهم حول خبرات العنف التي تعرضوا لها، إنهم يعيشون خلال الحدث الذي تعرضوا إليه كما لو كان ما يزال مستمرًّا، ما زال يتكرر حدوثه في الحاضر، وسيتكرر حدوثه في المستقبل.

ويكون الرعب أو الذعر والشعور بالصدمة انفعالَيْن مترتبَيْن في معظم الأحوال على التعرض للعنف أو التهديد بالقيام به.

ثالثًا: كذلك يعاني الأفراد الذين مروا بمثل هذه الصدمات من فترات من التفكك أو الابتعاد عن الدافع، ويتجلى ذلك في شعورهم بالاستسلام للمقدر والمكتوب والحتمي في تحولات حالات الوعي لديهم. وقد تشبه حالاتهم هذه تلك التي تحدث في حالات الغشية Trance-state خلال عمليات التنويم المغناطيسي. فهم يتشابهون معهم في علامات الخضوع أو الاستسلام الحركي الإرادي للقائم بالتنويم، يشعرون بالهدوء وانعزال الذات أو انفصالها، يتوقفون عن القيام بمبادرات أو إصدار أحكام نقدية، يشعرون بالتنميل في أطرافهم وفقدان الحساسية للتنبيه الخارجي، يقومون بتحريف إدراكهم للواقع أو تشويهه، من خلال حالات اختلال الشعور بالواقع أو الذات. تتوالى الصور الغريبة والمفككة وغير المترابطة على عقلهم، كما يتغير إحساسهم بالزمان والمكان والهوية. كذلك يتولد لديهم إحساس بعدم القدرة على التنبؤ بأي شيء وأيضًا الشعور العجز أو اللا حول واللا قوة[٢٩].

(٢٩) Cudd, *Analyzing Oppression*: 159-160.

وقد نلاحظ، بالطبع هنا وجود حالتين متناقضتين؛ هما التنبه التام والاستسلام التام معًا، أو على نحو متتابع. كذلك تحدث حالة من فقدان الثقة في الآخرين، وفي الحياة، وفي كل شيء؛ وذلك لأن الصدمة تعمل على تمزيق أواصر العلاقات الإنسانية، وتعمل كذلك على فقدان ثقة الضحايا في الآخرين وغيرهم. على كل حال يكون الأفراد الذين تم إعدادهم ليقوموا بمواجهة الضغوط Stress Resistant أكثر نجاحًا في مواجهة الصدمات من الأفراد الذين تمت تربيتهم على نحو قمعي أو من خلال الخوف والطاعة والانصياع[٣٠].

في كتاب «الشباب وجماعات العنف: رؤى شبابية» تم تلخيص الدوافع التي تقف وراء العنف الديني كما يتجلى لدى تنظيمي الجهاد والجماعة الإسلامية والإخوان المسلمين في مصر وغيرها في الجماعات داخل مصر وخارجها (في الوطن العربي وخارجه) على النحو الذي تبين من ميثاق العمل الإسلامي الذي أصدره تنظيم الجهاد، ودعا إلى ضرورة الحرب المقدسة على العلمانية بوصفها دعوة إلى فصل الدين عن الدولة عقيدة وفكرًا ونظامًا وحكمًا في التشريع والحكم والقضاء والتعليم والإعلام، علمانية ثبتتها أجهزة التثقيف والتوجيه، علمانية بغيضة، دست علينا وغرست قسرًا في تربيتنا، فأنبتت هذه الأنظمة الكافرة التي تستبدل بشرع الله شرع الشيطان[٣١].

هكذا تم تقسيم العالم إلى قسمين: قسم علماني يقوده حكام لا يطبقون شرع الله، ويؤيده فقط خصوم مختلفون في الدين كالأقباط، أو التوجهات السياسية (الماركسيون)، وأضيف إليهم المثقفون والفنانون والسياح الأجانب وغيرهم. ولأنهم علمانيون، فهم بالضرورة كافرون، وهذه مغالطة منطقية ينبغي توضيحها؛ فالعلمانية ليست ضد الدين، بل ضد إدخال أمور الدين في كل أمر من أمور الدنيا، وهذه مسألة تحتاج إلى توضيح. وهناك قسم آخر يمتلك الحقيقة المطلقة وصكوك الغفران والنعيم والإيمان، ويقوم بتكفير كل «آخر» ويحوله إلى شيطان، مجرد من الإنسانية، ينبغي الخلاص منه، وهكذا انطلقت آلة القتل.

كذلك رأى أستاذ الأنثروبولوجيا الفرنسي آلان بارتو أن التحول إلى الفكر الجهادي هو أحد الخيارات الممكنة للتعبير عن الصورة ضد المعيشة، خاصة أن الفكر السلفي العنفي «هو اليوم أحد

(٣٠) المرجع السابق.

(٣١) عمرو الشوبكي وآخرون، **الشباب وجماعات العنف.. رؤى شبابية: أوراق مؤتمر بيروت ٢٢-٢٣ ديسمبر/ كانون أول ٢٠١٥**، ترجمة سونيا فريد، مراجعة أيمن عبد المعطي (القاهرة: منتدى البدائل العربي للدراسات؛ رام الله: منظمة روزا لوكسمبروغ، ٢٠١٥): ١٤.

آخر العروض المتوفرة في سوق الأطروحات السياسية الراديكالية»[٣٢].

هكذا يقوم الإرهاب على أساس التطرف والعنف، ويعمل على نشر الخوف والرعب والشعور الدائم بالتهديد؛ وذلك لأنه ظاهرة يصعب التنبؤ بحدوثها، فلا يعرف أحد على وجه دقيق متى ستقع الأحداث الإرهابية وأين، لكننا نعرف الآن، على الأقل، كيف ينشأ الإرهاب وما البيئة المرسبة، أو المهيئة، لظهوره، وكذلك ما الدلالات الرمزية والأبعاد السياسية التي يحاول توصيلها من خلال سردياته وإشاراته التي لا تتوقف عن الظهور، هنا وهناك.

(٣٢) المرجع السابق.

الفصل الخامس

التطرف والتسلط

كثيرًا ما يكون العنف السياسي والديني، وكذلك التطرف، أشبه بردود أفعال مترتبة على وجود التسلط، بأشكاله المختلفة في المجتمع وفي التفكير أيضًا، لدى الحكام، ولدى المحكومين، في عمليات التربية والتعليم وفي الإعلام والشارع، وكذلك في الرؤية الجامدة للعالم، أيًّا كان مصدرها أو دوافعها، أو تجلياتها. لا تتعلق الشخصية التسلطية فقط بالحكام، لكنها تتعلق أيضًا بالمحكومين، لا تتعلق بالمتسلطين فقط، بل بالخاضعين للتسلط والقابلين له، والمؤيدين له أيضًا. وقد أظهرت دراسات كثيرة أن الأشخاص المرتفعين في التعصب والتمركز العنصري أكثر محافظة وتسلطًا من الناحية الاجتماعية والقومية. وهم ينتمون غالبًا إلى الجناح اليميني، ويفضلون القواعد والقوانين الصارمة، ويؤيدون السلطة العقابية وعمليات القصاص من أعدائهم، وذلك في مقابل الأشخاص الذين يختلفون عنهم ويكونون أكثر تسامحًا وليبرالية وعلمانية ومساندة للحرية الفردية والتعبير عن الذات والديمقراطية.

كذلك تبين من تلك الدراسات أيضًا أن البعد الأساسي في الفروق الفردية هو التسلطية في مقابل التسامح، وقد ظهر الاهتمام بهذا البعد أو الاتجاه خلال ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته لتفسير اتجاهات سياسية واجتماعية خاصة بالمناداة بالنازية والعداء للسامية. بعدها أصبحت دراسات الشخصية التسلطية من الموضوعات الأساسية في علم النفس الاجتماعي، وعلم النفس السياسي، ودراسات الشخصية، وقد تزايد الاهتمام بهذا الموضوع منذ أن نشر تيودور أدورنو وزملاؤه كتابهم عن «الشخصية التسلطية» عام ١٩٥٠م وكذلك كتابات ميلتون روكيتش عن الجمود منذ عام ١٩٥٤م؛ حيث توالت الدراسات النظرية والميدانية وعمليات تصميم المقاييس وتقديم التفسيرات لهذا الجانب من جوانب الشخصية الإنسانية بعد ذلك؛ حيث نشر إيزنك كتابه عن «علم النفس السياسي» الذي ظهر في خمسينيات القرن الماضي، وقدم ويلسون كتابه عن «الاتجاه المحافظ»، وهكذا حتى وصلنا إلى بداية الثمانينيات عندما بدأ بوب التماير في نشر دراساته عن تسلطية الجناح اليميني (Right-Wing Authoritarian (RWA.

وقد تطورت النظرة إلى مفهوم التسلطية في علم النفس، خلال تلك الفترة، فلم يعد يتم النظر إليه كأنه مجرد مفهوم يصف بُعدًا من أبعاد الشخصية، بل كأنه اتجاه اجتماعي، وبعد قيمي عام، يظهر في مواقف الحياة وممارسات الأفراد والجماعات والمؤسسات المتعددة.

وقد كان وليم رايخ المحلل النفسي المعروف مِن أوائل مَن أشاروا إلى أن البنية الاجتماعية الرأسمالية؛ بنية تنتج عنها أسر متسلطة تستخدم ممارسات في تربية الأطفال تشمل الكبت الجنسي الشامل، وغير ذلك من أشكال الكبت من أجل خلق شخصية تسلطية تتمرد ضد الظروف الاجتماعية المستغلة، وتم وصف الشخصية التسلطية في دراسات رايخ بأنها شخصية محافظة، وتخاف من الحرية، وتخضع للسلطة، ولديها نوازع عدوانية طبيعية نحو السادية القاسية (التي تتلذذ خلالها بتعذيب الآخرين وإيلامهم)، وقد قدم ماسلو وفروم خلال أربعينيات القرن الماضي أوصافًا مشابهة لذلك في وصفهم للشخصية التسلطية.

على كل حال لا ينبغي لنا، بأية حال من الأحوال، أن نعزل فهمنا للشخصية التسلطية عن فهمنا للظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تنشأ، مثل هذه الشخصيات، في ظلها، ومن بين هذه الظروف، تمثيلاً لا حصرًا، نجد الهزائم الحربية، والكساد الاقتصادي، وغياب الديمقراطية، والتربية النمطية، وغياب العدالة الاجتماعية، والتعليم الديني الجامد، والشعور بعدم الأمن بمعناه الشامل، وكذلك غياب الثقة الأساسية في بعض الأفراد أو المؤسسات أو الجماعات... إلخ.

الجدير بالذكر أن ما كان أدورنو وزملاؤه يسمونه الشخصية التسلطية قد أطلق عليه روكيتش، بعد ذلك، اسم الجمود وقد عرفه على نحو أكثر تحديدًا بأنه «تنظيم معرفي مغلق نسبيًّا للاعتقادات واللا اعتقادات حول الواقع». ويقصد روكيتش بالاعتقادات ما يعتقد المرء في صحته أو صوابه، ويقصد بـالاعتقادات ما يعتقد المرء في أنه خطأ أو غير صائب. ويجعل مثل هذا التنظيم المعرفي من الصعب على الأشخاص الجامدين أن يتعاملوا مع المعلومات الجديدة التي ستغير معتقداتهم الحالية مما يجعلهم يكرهون الأشخاص والقيم المخالفة، وقد تتحول هذه الكراهية إلى عداء ثم عدوان ثم تطرف وإرهاب[1].

كثيرًا ما يكون العنف السياسي والديني والتطرف أشبه بردود أفعال مترتبة على وجود التسلط بأشكاله المختلفة في المجتمع، ووجوده لدى الحكام ولدى المحكومين، وفي عمليات التربية والتعليم والإعلام، وكذلك في تلك الرؤية الجامدة للعالم، وأيًّا كان مصدرها، أو دوافعها أو تجلياتها.

وعلى الرغم من أن أدورنو وزملاؤه لم يقدموا لنا فكرة مناسبة حول ما هو النقيض للشخصية التسلطية، فإن ما قدمه ويلسون وزملاؤه، بعد ذلك، يبدو أنه يتعلق بفكرة الليبرالية،

(١) Rokeach, "Some Unresolved Issues in the Theories of Beliefs": 261-304.

تلك المؤكدة على الحرية الفردية، حرية التفكير والتعبير والاعتقاد، وبما يتفق نوعًا ما، مع تعريف قاموس أكسفورد للشخصية التسلطية بأنها تشتمل على التفضيل للمبدأ الخاص بالسلطة في مقابل التفضيل للمبادئ الخاصة بالحرية الفردية[٢].

لقد تبنى روكيتش وجهة نظر تقول إن الأكثر أهمية أن نضع في اعتبارنا البنية Structure الخاصة بالاتجاهات، باعتبارها متميزة، أو مستقلة نوعًا ما عن المضمون الخاص بها. ومن خلال مصطلح البنية هذا، كان روكيتش يقصد الإشارة إلى ذلك التصلب أو تلك الصلابة التي يظهر من خلالها اتجاه أو معتقد معين[٣].

وقد كانت الخاصية البنيوية أو الهيكلية المميزة لتلك الاتجاهات التي سميت من قبل بالتسلطية هي ما أطلق عليه روكيتش اسم الجمود أو الدوجماطقية Dogmatism. وقد صمم مقياسه المسمى C. Scale أو مقياس الدوجماطيقية من أجل قياس هذا الجانب من الشخصية، وقال إن النقيض للدوجماطيقية هي النزعة الليبرالية أو الميل إلى تعزيز الحرية الفردية، وهو العامل الذي اهتم به إيزنك في دراساته حول الشخصية والاتجاهات السياسية من خلال تطويره لنظريته حول الاتجاه المحافظ والاتجاه الراديكالي أو الليبرالي. كذلك ساوى ماكلوسكي بين الاتجاه المحافظ والشخصية التسلطية. وأشار أيضًا إلى أن أصحاب الاتجاه المحافظ كانوا مرتفعين في السمات التالية؛ الميول العدائية، والميل البارانويدى، والاحتقار للضعف، والأنا الدفاعية، والتصلب، والسمات الوسواسية القهرية، وعدم التحمل أو التسامح مع مظاهر الضعف الإنساني. كما كانت المعتقدات المحافظة موجودة – على نحو متكرر – بين هؤلاء الذين يتسمون بنقص المعلومات وانخفاض التعليم والأقل ذكاءً أيضًا[٤].

لقد كان ذلك التوحيد بين الاتجاه المحافظ والشخصية التسلطية موجودًا على نحو ما لدى أدورنو وزملائه، لكن دراسات ماكلوسكي قد أضافت معلومات وتأكيدات جديدة أيضًا لمثل تلك العلاقة[٥].

(٢) Glenn Daniel Wilson, *The Psychology of Conservatism* (London: Academic Press, 1973): 4.

(٣) المرجع السابق: ٢٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

وهناك كذلك تلك الدراسات التي قام بها علماء أمثال مارتن وويستي أواخر خمسينيات القرن الماضي حول الشخصيات المتسامحة وغير المتسامحة، وقالا من خلالها إن الشخصية غير المتسامحة تكون أقرب إلى الشخصية التسلطية، والتي يكون من سماتها وجود نزعة قومية ما، وعدم التحمل للغموض، والميول الخرافية، والميل إلى تهديد الآخرين، والنزعة التسلطية، والتدين المبالغ فيه، والميل إلى عقاب الأطفال، وعدم الثقة في السياسيين، وكذلك أنهم كانوا أكثر توقيرًا لأمهاتهم. وقد كانوا، على الرغم من ذلك، أقل اهتمامًا بالسياسة مقارنة بطبقات اجتماعية أخرى منخفضة اقتصاديًّا وأقل تعليمًا(٦).

الشخصية التسلطية والجمود

هكذا حاول علماء أمثال ميلتون روكيتش اكتشاف تلك العلاقات الموجودة بين الانفتاح على الخبرات والتحمل للغموض والدوجماطيقية أو الجمود الفكري وانفتاح العقل. وقد أشار وغيره من الباحثين أن الشخصية والعوامل المعرفية لهما دور مهم في الانفتاح على الخبرات ومن ثم انخفاض النزعة الجامدة في التفكير، وما يصاحبها من تسلطية؛ وذلك لأن انفتاح الخبرة يرتبط في جوهره، بالتفضيل للجديد المتنوع والمركب(٧).

وهكذا فإن التسلطية بنية نفسية اجتماعية ينجم عنها خلل في التفكير الإيجابي، إنه نوع من العطب الذي يجعل صاحبه يفكر في اتجاه واحد، فالتسلط هنا نوع من الممارسة المحدودة في التفكير المتكامل. هكذا يكون لدى المتسلطين نوع من العجز عن الوصول إلى استدلالات منطقية صحيحة، كما أنهم يظهرون نوعًا من التفكير (التجزيئي أو التقسيمي) ينتج عنه ظهور تعبيرات وصياغات متناقضة في كلامهم وكتاباتهم وتفاعلاتهم. إنهم ينهمكون في قراءات متحيزة للشواهد المقامة حول أحداث معينة، كما أنهم يكونون أكثر عرضة للوقوع تحت تأثير ما يسمى خطأ العزو الرئيسي Fundamental Attribution Error.

كذلك أشار روكيتش في دراساته وكما أشرنا من قبل إلى أن التسلطية هي في جوهرها أسلوب معرفي Cognitive Style أي طريقة تنم، بشكل عام، عن انغلاق العقل عن التفكير المتعلق

(٦) المرجع السابق.

(٧) Karen Stenner, *The Authoritarian Dynamic*, Cambridge Studies in Public Opinion and Political Psychology (New York: Cambridge University Press, 2005): 144.

بالعالم. وقد طور روكيتش مقياسًا وتصورًا حول الجمود اعتقد أنه يعكس «النزعة التسلطية العامة» التي تنجم عن المحتوى الأيديولوجي الخاص بالنزعة التسلطية كما درسها أدورنو وزملاؤه. كذلك وجدت دراسات أخرى علاقات بين الاستعداد للتسلطية وجوانب أخرى من المحدودية المعرفية؛ مثل انخفاض مستوى التعليم، والأداء الأكاديمي المنخفض، وانخفاض مستوى الذكاء.. إلخ. وكما تقول كارن ستينر أن انخفاض مستوى التعليم وكذلك نوع التعليم لهما دور حاسم في توجيه العقل نحو أن يكون منفتحًا أو منغلقًا، متسامحًا أو متعصبًا. وذلك شريطة أن يحتوي هذا التعليم على معايير ليبرالية تؤكد أهمية الحرية الفردية والتنافس الإيجابي وغيرهما من القيم المناسبة، وكذلك أن يتسع منظور الخبرات والمهارات التي تُكتسب أثناء التعليم، وإمكانية تعميمها خارج المجال التعليمي، لا أن تظل محصورة في مجال الحفظ والاسترجاع والذاكرة الصماء وأحادية التفكير فقط[٨].

ومن دراسته حول الاتجاهات التسلطية وجد عبد الستار إبراهيم عام ١٩٨٤م أن العناصر الأساسية في بناء الشخصية التسلطية في مصر هي:

١- عامل عام يتمثل في التعلق المتصلب بفكرة أو معتقد ذي محتوى تقليدي، عناصره الأساسية هي: النظرة المعادية للتجديد، والإيمان المتصلب بالقواعد ذات المحتوى الأخلاقي والتقليدي التبسيطي، والدعوة لاستخدام العنف والقوة كأداة للتغير، والتعصب ضد المختلفين في الوضع الاجتماعي أو الديني.

٢- التعايش بين المتناقضات نحو الاتجاهات والسلوك، ويتمثل في قبول الواقع ورفضه خلال الوقت نفسه.

٣- النزعة الامتثالية أي التقبل الشكلي للعلم وللآخرين والنشاطات الاجتماعية، ورفض ذلك كله في أعماق النفس.

٤- المنظور الزمني الذي يركز على الماضي وأساليب السلف، ويرفض الحاضر ويعجز عن التعامل مع متغيراته المركبة.

٥- الصلف ورفض المختلفين في العقائد أو القيم أو الطبقة.

٦- الاتجاه المحافظ بتحبيذ الإبقاء على الأوضاع القائمة إذا كانت تتفق مع معتقداتهم وتقبلها كمحددات مطلقة للسلوك والشخصية.

(٨) المرجع السابق: ١٤٧.

٧- يضاف إلى ما سبق ما تبين من تفضيل أصحاب الاتجاه المحافظ لأهمية التنظيمات والقوانين التي تتفق مع معتقداتهم، فهم يفضلونها عن حكم الفرد، وهي نتيجة رأى عبد الستار إبراهيم أنها لا تتفق مع البحوث الغربية التي أشارت إلى أن التسلطيين المحافظين يمجدون الحكم الفردي، والاستبدادي، بالمقارنة بالتنظيمات السياسية وحكم القانون. وقد أشار عبد الستار إبراهيم إلى ضرورة أن نضع العوامل الحضارية ودورها في بناء الشخصية في الاعتبار، لكن ثمة عوامل أخرى أشار إليها في سياقات تالية[٩].

٨- يميل مَن يعتنقون اتجاهات تسلطية إلى الانفعالية والعجز عن ضبط التقلبات الانفعالية والعجز عن ضبط التقلبات الانفعالية، وكذلك إلى تضخيم ذواتهم والتشويه في إدراكها والمبالغة في تقديرها[١٠].

٩- وكذلك إن هناك نسقًا من الشخصية ينتظم التسلطية؛ إذ ترتبط إيجابيًّا (بالمعنى الاحصائي) بعدد من السمات؛ وهي التصلب، والنفور من الغموض، والتطرف بالتأييد أو الرفض، وغير ذلك من الخصائص.

١٠- أن وجود حالة من السخط العام على الظروف المحيطة سياسيًّا واقتصاديًّا تجعل الجماهير منجذبة نحو التطرف والتسلطية. وغالبًا ما يرتبط سخط الناس بوجود فوضى حقيقية، وضعف في نظام الحكم، وإدارة الدولة. وهذان العاملان (الضعف والفوضى) نجدهما في الحقيقة سابقين على ظهور أية حركة أو ثورة دون استثناء تقريبًا.

١١- في مثل هذه الظروف تتحول طاقة الجماهير إلى الرغبة في الخلاص والبحث عن قائد أو بطل يقود أسلوب هذا الخلاص؛ مثل ظهور هتلر وكروميل ونابليون وغيرهم[١١].

١٢- لأساليب تنشئة المتسلطين دور مهم في ظهور الاتجاهات التسلطية لديهم. وقد أظهرت دراسات أدورنو وزملائه المبكرة أن الصورة التي يرسمها التسلطيون للأب أو الأم المثالية تختلف عن الصورة التي يرسمها المنخفضون في التسلطية؛ حيث تبين أن التسلطيين قد استخدموا لوصف الأب المثالي صفات؛ مثل النظام والدقة، والضبط والصلابة،

(٩) عبد الستار إبراهيم، **البحث عن القوة: الاتجاه التسلطي في الشخصية والمجتمع** (القاهرة: المركز العربي للبحث، ١٩٨٤): ٨٤.
(١٠) المرجع السابق: ١٤٢-١٤٣.
(١١) المرجع السابق: ١٤٧.

بينما وصف المنخفضون في التسلطية الأب بالود والتساهل والعطف واللطف[١٢]. ومعنى ذلك وكما ترى برنشفيك، أن الاتصال الوجداني بالوالدين في حالة التسلطيين ضعيف، وأن التسلط يتم من جانب الأب والأم في معظم الحالات، وأن أساليب العداء والرفض والتجاهل والقمع والتضييق من الخبرة والسيطرة والاستحواذ أساليب شائعة في تربية أمثال هذين الوالدين لأبنائهما، وأن هذه الأساليب تشيع في الأسرة الفقيرة منخفضة التعليم والتي تشعر كذلك بأنها هامشية أو بعيدة عن اهتمام الدولة أو السلطة الرسمية فيها[١٣].

هكذا بينت الدراسات التي استهلها روكيتش في ستينيات القرن الماضي أن الدوجماطيقية أو الجمود العقائدي أو التسلطية مجموعة من المعتقدات التي تأخذ شكل اتجاهات ثابتة لدى الفرد (أو الجماعة). وهي تتسم بالانغلاق ولا ترى التماثل أو القوافل حتى بين الأيديولوجيات التي تبدو متعارضة؛ كالرأسمالية والشيوعية مثلاً ومحاولة كلٍّ منهما أن يقدِّم حلولاً للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية. ويرى عبد الستار إبراهيم أنه حتى على مستوى حضارتنا الإسلامية يؤدي الرفض العقائدي لدى كلٍّ من المناصرين للمذهب السني والمذهب الشيعي إلى الحروب والاقتتال وجريان الدماء على الرغم من أن الذي يجمع بين هذين المذهبين، وهو المعتقدات الإسلامية الأساسية يفوق كثيرًا ما يفرق بينهما[١٤].

العوامل المساهمة في النزعة التسلطية

على عكس ما قالته دوكيت من أن الانتماء إلى جماعة ما، والتوحد معها، هو مصدر أساسي أولي للنزعة التسلطية، فإن ستينر ترى أن هناك عوامل كثيرة أيضًا تدخل في تكوين مثل هذه النزعة؛ ومنها أسلوب التربية الذي يقوم على أساس القمع والعقاب، وطبيعة عملية التنشئة الاجتماعية، والثقافة الفرعية التي عاش فيها المرء، ومحدودية خبرات الحياة، والعوامل المتعلقة بتكوين الشخصية، وخاصةً التصلب والافتقار إلى الانفتاح على الخبرة، والأفكار والحياة، وكذلك تزايد التعرض لمثيرات وخبرات ومواقف مزعجة أو منفرة غير مألوفة مع تزايد العمر، أو تقدمه،

(١٢) المرجع السابق: ١٧.
(١٣) المرجع السابق: ١٤٨.
(١٤) المرجع السابق: ١٧.

وأيضًا النقص في التعليم أو محدودية المعلومات، والقدرة المعرفية المحدودة، وكذلك وجود مصادر أخرى ممكنة في الحياة تعزز مثل هذه الميول والنزعات، وتشجع الأفراد على الانتماء إلى مثل هذه الجماعات(١٥).

التسلطية والاتجاه المحافظ

يستخدم المصطلح الخاص بالميل المحافظ، أو الاتجاه المحافظ Conservatism للإشارة إلى ذلك الميل إلى مقاومة التغيير، وإلى تفضيل كل تلك الأشكال الآمنة، التقليدية المتعارف عليها من المؤسسات والسلوك. ويطرح هذا المصطلح عادة على أنه يمثل النقيض لمصطلح الاتجاه الليبرالي، الأكثر انفتاحًا وترحيبًا بالتغييرات الجديدة، وكذلك الميل للمغامرة وعدم الالتزام بكل ما هو تقليدي أو متعارف عليه أو نمطي من المؤسسات والسلوكيات(١٦).

وهناك عدد من الخصائص أو الصفات المميزة للاتجاه المحافظ يذكرها ويلسون على النحو التالي:

١- **الأصولية الدينية**: قد تم تعرف الدين، ومنذ وقت طويل، على أنه قوة محافظة في المجتمع، أي باعتباره مؤسسة مقاومة للتغير التقدمي؛ هكذا كانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وكذلك الطوائف Denominations المتعصبة من البروتستانت التطهريين في طليعة المحتجين الغاضبين ضد عدد كبير من الأفكار والتيارات الجديدة المتعلقة بالسلوك الاجتماعي، بداية من نظرية مركزية الشمس داخل الكون حتى نظرية دارون التطورية وكذلك عمليات ضبط النسل وغيرها(١٧).

بالطبع ليس كل الأشخاص المتدينين ولا المؤسسات الدينية تقوم كلها بمقاومة التغير، فبعض هذه المؤسسات كان نتاجًا لعمليات التغير هذه. ولكن يبدو أنه من المعقول أن نقترح أن المحافظ المثالي سوف يتمسك بالدين على نحو جامد ومن النمط الأصولي، أي أنه سوف يعتقد في السلطة المطلقة للكنيسة أو الديانة المؤسسة، وفي الصدق المطلق أو الحرفي للكتاب المقدس، بما في ذلك ما يحتوي عليه من معجزات، وبعث بعد

(١٥) Stenner, *The Authoritarian Dynamic*: 112.

(١٦) Wilson, *The Psychology of Conservatism*: 4.

(١٧) المرجع السابق: ٥.

الموت، وغير ذلك من الأمور. ولا تقتصر هذه المعتقدات فقط على المسيحية بل تمتد إلى العديد من الديانات والأيديولوجيات(١٨).

٢- **التأييد للمؤسسات السياسية الموجودة:** يميل المحافظون غالبًا إلى الالتزام بالمؤسسات والنظم السياسية الموجودة؛ حيث يفضلون الحفاظ على الوضع الراهن، إذا كان ذلك ضروريًّا، أو مرحليًّا، وقد يستخدمون القوة أو الرقابة الصارمة للقيام بذلك، ويطلق على مثل هذا الاتجاه في البلاد الغربية مصطلح الجناح اليميني أو تطرف الجناح اليميني Right-Wing Conservatism. وقد تغلف مثل هذه الاتجاهات بمصطلحات وشعارات؛ مثل الوطنية، والقومية، ونقاء الجنس، والخوف من التلوث أو الفساد؛ نتيجة لمؤثرات غريبة أو خارجية وتسمى أيضًا Xenophobia أو الخوف من الأجانب أو الانشقاق الداخلي والفوضى... إلخ(١٩).

٣- **الإصرار على تطبيق معايير صارمة واستخدام العقاب أيضًا:** يفضل أصحاب هذا الاتجاه تنظيم سلوك الأفراد والجماعات من أجل أغراض اجتماعية أو دينية أو مهنية من خلال الضوابط والقواعد والقوانين... إلخ، ومن خلال المقاومة كذلك لأية مطالبات بتغيير المواثيق الأخلاقية أو القانونية، فهم قد ينظرون إليها كهبة من الله، ينبغي أن تكون ثابتة ومحصنة. هكذا يفضل أصحاب الاتجاه المحافظ استخدام العقاب البدني أو المادي، وكذلك الأفعال الصارمة من جانب الشرطة، والقضاة، والسلطات، بشكل عام، لفرض هذه الشرائع والقوانين. وتعد هذه الخاصية المميزة للاتجاه المحافظ من الخصائص الأساسية في مفهوم الشخصية التسلطية عند أدورنو وزملائه؛ وذلك لأنهم لاحظوا أن احترام السلطة إنما يتجلى، ويظهر في ذلك الالتزام، المبالغ فيه، من جانب من يتولون مراكز عالية، داخل السلطات، في فرض النظام، وكذلك في ذلك الإصرار على طاعة أتباعهم التامة للقوانين والشرائع الأساسية المؤسسة(٢٠).

٤- **النزعة العسكرية:** يتجلى لدى أصحاب هذا الاتجاه ذلك التفضيل الواضح للحفاظ على القوة العسكرية، وتدعيمها، باستمرار، وكذلك المشاركة في صراعات عسكرية سواء

(١٨) المرجع السابق.
(١٩) المرجع السابق: ٧.
(٢٠) المرجع السابق.

كانت مبررة، أو يتم تبريرها على أسس خاصة بالحفاظ على الأمة وقيمها. ويعد هذا الجانب من هذا الاتجاه أشبه بالامتداد أو التوسع في مفاهيم الوطنية والقومية والخوف من الفساد أو التلوث بفعل مؤثرات أجنبية، وأيضًا الإصرار على فرض «القانون والنظام».

٥- **التمركز العرقي وعدم التحمل لجماعات الأقليات:** يظهر هنا ذلك الميل الواضح لدى الأفراد لتفضيل الآخرين الذين ينتمون إلى نفس، نوعهم (لونهم – دينهم... إلخ) وكذلك التوجه المفعم بالخوف والتشكك، بل والكراهية، من الآخرين الذين يختلفون عنهم على نحو أو آخر (في العرق أو الدين أو طول الشعر أو الزي... إلخ).

ويتجلى هذا الاتجاه في سلوك البيض تجاه السود في الولايات المتحدة مثلاً، وهو اتجاه ما يزال يتجلى حتى الآن؛ حيث حدث بينما أعمل في هذا الكتاب وخلال الأسبوع الأول من شهر يوليو ٢٠١٦م أن قتل رجل بوليس أمريكي في ولاية مينسوتا رجلاً أسود، وفي اليوم التالي اندفعت الاحتجاجات الشديدة في عدد من الولايات، وفي مدينة دالاس بولاية تكساس، وحيث قتل رجل أسود خمسة من رجال الشرطة وجرح سبعة، وقد قال زميل له إنه كان يكره البيض بشدة؛ بسبب تعاملهم السيء مع السود، وبعد ذلك بأسبوع واحد قُتِل ثلاثة رجال شرطة آخرون.

هكذا تكون هناك اتجاهات تعصبية تعمل على تعزيز التطرف حتى في الدول التي تقول إنها جنة الديمقراطية؛ حيث تشعر كل جماعة بداخلها بأنها مهددة من جانب كل جماعة مختلفة عنها على نحو أو آخر[٢١].

٦- **التفضيل لما هو مألوف في الفن، والزي، والمؤسسات... إلخ:** إن أصحاب الاتجاه المحافظ يرفضون التغيير ويقاومونه، فإنه يفترض، بناءً على ذلك، أنهم يفضلون ما هو مألوف ومعروف ونمطي في السلوك عمومًا، وكذلك في الفنون التشكيلية والموسيقى والأدب والأزياء والمؤسسات الاجتماعية، بل إن بعضهم يرفض الفنون عمومًا، ويعتبرها رجسًا من عمل الشيطان، يحاول من خلاله – أي الشيطان – أن يبعد العبد التقي الورع عن طريق الهداية والصواب. هكذا يرفض أصحاب الاتجاه المحافظ الأنواع الجديدة من

(٢١) المرجع السابق: ٨.

الفن التشكيلي والأدب والموسيقى؛ لأنها تعمل، في رأيهم، على تعريض النسيج الأخلاقي للشباب للخطر وتعرضهم، كذلك، للغواية والفساد والفوضى.

٧- **النظرة المعادية للاستمتاع الحسي وفرض الضوابط الصارمة على السلوك الجنسي**: هكذا يتم النظر لدى أصحاب هذا الاتجاه إلى المتعة الحسية كأنها سيئة ومتعلقة بالخطيئة، وينطبق ذلك الميل على نحو خاص على الجنس، لكنه قد ينطبق أيضًا على أنواع من الطعام والشراب والرقص والتسلية والترفيه عمومًا. وهكذا يتم فرض ضوابط على الملابس وينظم الجنس ضمن حدود مؤسسة الزواج وحدها، ويتم التشجيع على قراءة الكتب الدينية أو الرسمية وحدها دون غيرها. ولا يفضل، بل ينصح بعدم قراءة الروايات أو المسرحيات أو القصص القصيرة... إلخ[٢٢].

٨- **المعارضة للعلم أو التقدم العلمي**: قد تظهر حيث يتم الرفض لأية أفكار جديدة تبزغ، وقد حدث ذلك عبر التاريخ؛ حيث تمت المقاومة والرفض في البداية، وربما لفترات طويلة لتلك الأفكار الخاصة بمركزية الشمس ودوران الأرض حولها. وما يزال بعض رجال الدين في بعض البلدان الإسلامية يرفضونها أيضًا. وحدث الأمر نفسه بالنسبة لنظرية التطور وعمليات التطعيم والسفر إلى الفضاء الخارجي والاستنساخ ونقل الأعضاء ونقل الدم وغيرها.

وكثيرًا ما يتم رفض هذه الأفكار العلمية الجديدة على أساس غير عقلاني، ألا وهو أنها لا تتفق مع النصوص الدينية القديمة أو المقدسة[٢٣].

٩- **التفكير الخرافي**: يرتبط بالأصولية الدينية، وكراهية العلم، ذلك الميل لأن يكون الإنسان معتقدًا في الخرافات وكذلك القدرية، أي أنه يعتقد أن مصيره لا يعود إليه، وهو لا يستطيع أن يتحكم في حياته، أو أنه ضحية لقوى خارجية. هكذا يميل الشخص المحافظ إلى تغليب عناصر الحظ والتفاؤل والتشاؤم والخوف من نذر الشؤم التي تم الاعتقاد، منذ القدم، أنها تجلب النحس أو سوء الحظ.

(٢٢) المرجع السابق: ٩.
(٢٣) المرجع السابق.

وتتداخل العناصر السابقة معًا، داخل العقل المحافظ ، على نحو منطقي أو حدسي أو وجداني، لكنها تتجمع معًا؛ كي تكوِّن لنا ذلك العامل العام الموجود لدى كثير من الناس والذي يسمى عامل المحافظة؛ وهو عامل وثيق الصلة بعوامل أخرى؛ مثل الجمود العقائدي، والتصلب، والتسلطية، ومحافظة الاتجاه اليميني، والتعصب، والتحيز، والتطرف، والمعاداة للإبداع والابتكار وغيرها(٢٤).

وهذه الصورة التي قدمها ويلسون عن أصحاب الاتجاه المحافظ صورة شديدة القرب، في واقع الأمر، من صورة الشخصية المميزة لأصحاب النزعة أو الاتجاه التسلطي. هكذا نجد أن التصلب، والذي هو جوهر الشخصية التسلطية، هو نفسه تقريبًا عامل المعارضة للابتكار Opposition to Innovation لدى أصحاب الشخصية المحافظة، وهناك كذلك تأكيد في الشخصنة للأمور وتركيز على أهمية النظام والواجب والرغبة في ترسيخ بنيه هيراركية متدرجة (أعلى – أسفل) داخل المجتمع(٢٥).

الدين والاتجاه المحافظ

تعتبر المحافظة الدينية أحد العوامل المهمة التي تسهم في تكوين ذلك العامل المتعلق بالاتجاه المحافظ العام. وقد تمت دراسة العلاقة بين المعتقدات الدينية والسلوك، ومن خلال متغيرات أخرى؛ مثل الدوجماطيقية والتسلطية والتمركز العرفي والاتجاه المحافظ والتميز وغيرها. وأشارت سلسلة من الدراسات التي أجريت في هذا السياق إلى أن الذين يكثرون من الذهاب إلى الكنيسة أكثر دوجماطيقية من الذين لا يكثرون من الذهاب إليها. كما أن الأكثر تدينًا كانوا هم الأقل تسامحًا بشكل عام، وكذلك فإن المتشددين الدينيين من المسيحيين كانوا أكثر تميزًا ضد اليهود وضد السود أيضًا(٢٦).

ومع ذلك فإن الأمر ليس بهذه البساطة التي يبدو عليها؛ وذلك لأن هناك دراسات أخرى قامت بنقد نتائج هذه الدراسات على أساس الضعف المنهجي المتعلق بأدوات القياس المستخدمة

(٢٤) المرجع السابق.

(٢٥) John J. Ray, "Conservatism, Authoritarianism, and Related Variables: A Review and Empirical Study", *The Psychology of Conservatism* (London: Academic Press, 1973): 17-35.

(٢٦) Alan C. Webster and Robert A.C. Stewart, "Theological Conservatism", *The Psychology of Conservatism* (London: Academic Press, 1973): 129-147.

فيها، وكذلك عدم تمييزها بين السلوك الخارجي والأقوال التي يذكرها المرء عن نفسه، من ناحية، وحالته الدينية الداخلية الخاصة التي قد تكون متوجهة خارجيًّا (تربط الدين بالثواب والعقاب ورضا الناس) أو داخليًّا (تربط الدين بالخبرة العميقة الخاصة التي تتضمن مشاعر السكينة والتسامح والعلو على الصغائر الدنيوية وغيرها) من ناحية أخرى.

هكذا قد يكون لدينا - كما يذكر وبستر وستيورات - نوعان من الاتجاهات الدينية؛ النوع الأول هو الاتجاه الديني المحافظ، وفيه تحضر القوانين والضوابط والأوامر والنواهي وعدم التسامح أكثر من غيرها. إنه نوع من الاتجاه المتعلق بالسلطة والمتمركز عليها. أما النوع الثاني فهو الاتجاه الديني المتحرر، ويركز على الذات وامتداداتها، وعلى التسامح والتغاضي عن الأخطاء والتفهم للضعف البشري. وقد أشارت هذه الدراسة إلى أن الانضمام لأحد الأحزاب الليبرالية قد يكون مرتبطًا أيضًا بالتحيز تجاه الآخرين، وكذلك بذلك الميل إلى الانصياع لقوانين الحزب ومبادئه المنظمة وبما يتناقض مع تلك الدعاوى التي يتبناها حول الحرية الفردية. هكذا لا يقتصر الاتجاه المحافظ[٢٧] على الاتجاهات الدينية فقط، بل يمتد أيضًا إلى تلك الأحزاب السياسية التي تدعي أنها ليبرالية وتؤمن بالحرية الفردية وحقوق الإنسان، وبما يتفق مع ما طرحه ويلسون حول وجود عامل للمحافظة يهيمن على ما عداه من العوامل الشخصية[٢٨].

كذلك قال إريك فروم المحلل النفسي الألماني (١٩٠٠ - ١٩٨٠م) إننا لا نستطيع أن نتحدث عن الدين بشكل عام، لكننا ينبغي أن نميز بين شكلين من أشكال الدين؛ الشكل التسلطي والشكل الإنساني. وإن هذين الشكلين يمكن أن يوجدا داخل الدين الواحد نفسه من خلال عمليات الفهم والتطبيق له عبر مراحل تاريخية معينة. وقد تجلى ذلك في تاريخ اليهودية والمسيحية كما قال[٢٩].

يقوم الدين التسلطي - في رأي فروم - بالتركيز على الطاعة والعبادة لسلطة عليا تتحكم في البشر. ويكون الاستسلام لها هو المفتاح في مثل هذه الديانات؛ حيث تتكون لدى الناس رؤية عامة أو أيديولوجية حول العالم، أي وجود الحياة والموت، فهم يكوِّنون معتقداتهم حولها في ضوء ما تخبرهم به السلطات العليا أو من يمثلونها. هكذا تكون هذه السلطة العليا (أو الله) رمزًا للقوة والسلطة والهيمنة. أما البشر فهم لا شيء، فقراء، بلا حول ولا قوة، ولا أهمية لهم. إنهم

(٢٧) المرجع السابق.

(٢٨) المرجع السابق.

(٢٩) Andrew Reid Fuller, *Psychology and Religion*: *Classical Theorists and Contemporary Developments*, 4th ed. (Lanham: Rowman and Littelfield, 2008): 205.

يمكنهم الحصول على القوة، فقط، من خلال خضوعهم للإله كلي القدرة. ويمثل هذا الخضوع نوعًا من الهروب من الوحدة والضياع، كما أنه يقدم الحماية والأمن والراحة للإنسان من العناء والتعب.

حتى بالنسبة لمارتن لوثر والبروتستنتية لم يختلف الأمر، بل تم التطرف في التعبير عن مشاعر الضعف واللا حول واللا قوة، وذلك لأنه قد نظر إلى الإنسان كأنه يائس وشرير وفاسد وأن اليقين المتاح أمامه هو أن يخضع، بلا شروط، للرب ذلك الذي نظر إليه كأنه سلطة شديدة القوة قادرة على الإفناء، ومن خلال محبة هذه السلطة والشعور بالخشية والجزع أمامها يؤكد الإنسان تفاهته؛ وذلك أن الحب لا يقوم إلا على الخضوع كما قال فردم في كتابه «الهروب من الحرية».

وقد تحدث فروم أيضًا عن أشباه الديانات الدنيوية، فقد وصل الأمر بالألمان خلال الفترة النازية إلى ما يشبه حالة من العبادة لهتلر، حالة من الخضوع التام لسلطته والانصياع المطلق لأوامره، أصبح البشر بلا قيمة في ذاتهم. هكذا يتماثل الخضوع للديكتاتور في حالة النازية، مع الخضوع للرب في حالة اللوثرية البروتستنتية، في ضوء ما قال به إيريك فروم[٣٠].

وقد اعتبر فروم ميكانزم الإسقاط Projection العامل الأساسي في الديانات التسلطية؛ حيث قد رأى أن قوى الحب والصدق والعدل هي القوى التي ينبغي أن تميز المجال الإنساني، لكن في الديانات التسلطية وأنظمة الحكم التسلطية قد يحرم البشر من التعبير عن هذه القوى والطاقات في حياتهم، من ثم فإنهم يقومون بإسقاطها على إله أو زعيم يعتقدون أنه محب، وصادق وعادل وأنه سينشر أيضًا هذه القيم في حياتهم. هكذا تنسب إلى الإله، أو الزعيم كل تلك القيم والقدرات الإيجابية، ويحرم الإنسان من كل شيء، ولا يكون عليه سوى الخضوع حتى يحظى بالعدل والحب والحرية والصدق[٣١].

لكن الإنسان من خلال خضوعه التام إلى سلطة عليا، أيًّا كانت قد لا يعود إنسانًا، إنه يتحول إلى شيء، إلى شكل غريب من أشكال الوجود الإنساني، شكل خاضع على نحو متسم بالتصلب والجمود والآلية والفقدان للمرونة، لا بدائل أمامه سوى الخضوع والطاعة والانصياع. هكذا يفقد الإنسان طاقاته الحيوية الخاصة بالحرية والعقل، الحرية التي تسمح له بالحرية والاستكشاف والتجدد، والعقل الذي يتيح له الفرصة للتفكير والتأمل الإبداع. هكذا يتحول الإنسان إلى شكل

(٣٠) المرجع السابق: ٢٠٤.

(٣١) المرجع السابق.

غريب، أو بالأحرى، إلى شيء غريب فاقد للحرية والخيال. هكذا تقوم صلة هنا بين الإنسان ونفسه، لكنها تكون أيضًا «صلة مع أنفسنا بعد أن تحولنا إلى شكل أو كائن قد أصابه الاغتراب». وعندما نكون في حالة اغتراب عن أنفسنا نصبح، كما يقول فروم في حالة سيئة، لا تكون لدينا ثقة في أنفسنا ولا في الآخرين، وقد نفقد القدرة على الحب أو التفكير وتكون المحصلة النهائية لذلك كله أن يحدث انفصال بين المقدس والمدنس أو بين السماوي والأرضي. ففي عالم المدنس الأرضي السيء نحن نسلك بدون حب، نشعر بأننا خاطئون ولا بد أن نعود إلى الله، نطلب السماح والمغفرة منه، ونعترف بأخطائنا وخطايانا(٣٢).

من الأفكار المهمة التي طرحها فروم أيضًا قوله إنه عندما تقوم جماعة صغيرة بإخضاع جماهير كبيرة أو استبعادها، فإن هذه الجماهير تصبح غير قادرة على الشعور بالاستقلال أو القوة، ويصبح طابع الدين السائد بينهم هو الطابع التسلطي، سواء تم ذلك عن طريق عبادة إله أو شخص، ينظر اليه على أنه رسول العناية الآلهية أو المعبر عن صوت الرب وإرادته، والمرشد لهم في دنياهم وإلى آخرتهم. وفي مثل هذا النوع من الخبرة الدينية يصبح الناس معتمدين على البنية الاجتماعية، وتزداد تسلطية مثل هذا الدين عندما يتحالف مع قوى دنيوية سياسية، وأيضًا عندما يصل أصحابه إلى حالة التحكم الديني والدنيوي في الناس. وهنا تكون الكراهية وعدم التسامح مع الآخرين وسائل مهمة لتعويض حالة الخضوع للسلطة هذه، وللتعبير كذلك عن الالتزام بمثل هذا الخضوع. هكذا يكون الخضوع المفتقر للإيمان، الخضوع المطلق لأية سلطة عليا في الحياة، في رأي فروم، نوعًا من المازوخية (أو الماسوشية أي التلذذ بتعذيب الذات)، وكذلك نوعًا من التدمير للذات والإذلال لها.

أما الديانات الإنسانية فهي على نقيض الديانات التسلطية تمامًا؛ لأنها تتمركز حول الحياة الإنسانية وحول القدرات والطاقات الملازمة لهذه الحياة، فهنا يكون الإنسان أكثر قدرة على النمو على المستوى العقلي وكذلك أكثر قدرة على الاستخلاص لمعنى وجوده، وعلى الفهم لجوانب قوته وجوانب ضعفه أيضًا. هنا يكون الإنسان قادرًا على تطوير قدرات وانفعالات الحب لنفسه وللآخرين وللعالم أجمع، ويكون قادرًا كذلك، على صياغة معايير يستطيع أن يعيش من خلالها، لا أن تفرض عليه. هنا يكون أكثر حرية وأكثر قدرة على الحب والعطاء، هنا يكون أكثر تسامحًا ومرونة وأقل تصلبًا وتطرفًا، هنا يكون قويًّا بقدر ما يستطيع، ومحققًا لذاته على النحو الأفضل،

(٣٢) المرجع السابق: ٢٠٥.

هنا تكون الخبرة الدينية متعلقة بالتوحد مع الآخرين لا الانفصال عنهم، فيكون هناك تواصل وعلاقات إيجابية معهم لا انفصال وتناحرات وعداوات. ولا تتحقق مثل هذه الشروط إلا عندما يكون الإنسان حرًّا ومسئولاً خلال الوقت نفسه، لا خاضعًا، يسلم المسئولية لغيره أيًّا كان؛ وذلك لأنه ومع تزايد نمونا وقدرتنا على الحب والتواصل نقترب شيئًا فشيئًا من المثل الأعلى الخاص بالله، فنصبح أكثر قربًا منه لا ابتعادًا عنه. وليس هنا ما يمنع، يقول فروم من أن يكون الدين، أي دين، تسلطيًّا وإنسانيًّا في الوقت نفسه. لكنه عندما يكون أكثر إنسانية يكون أفضل، وهذا هو جوهر الدين الحقيقي، أن يقوم بإسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة، لا أن يسبب له الشقاء والحرمان والتعاسة، كما يعتقد البعض وكما يفعلون أيضًا[٣٣].

الخصائص العامة للتسلطية

يتبين لنا من دراسات آدورنو وغيره من العلماء الذين استعرضنا أفكارهم ودراساتهم عبر هذا الكتاب أن هناك عددًا من الخصائص المميزة للاتجاه التسلطي والشخصية التسلطية، وكذلك البنية المميزة لأي تسلط بشكل عام. وتتفق هذه الخصائص في كثير منها مع تلك الخصائص المميزة للتطرف، والتي ذكرناها خلال الفصل السابق وغيره، وهذه الخصائص هي ما يلي:

١- التقليدية (التمسك بالجامد والقديم وقيم الماضي والعائلة ومقاومة الجديد).

٢- الخضوع للسلطة (السمع والطاعة).

٣- العدوان التسلطي (على من ينتهك قيم الجماعة ومعاييرها وأهدافها).

٤- التفكير الخرافي المتصلب النمطي الجاهز وغير الإبداعي.

٥- معارضة التأمل والتفرد والخيال والمرونة والإبداع.

٦- الميل إلى العنف والعدوان تجاه المغايرين والمختلفين معهم، والسيطرة والخضوع بالنسبة لقادتهم أو زعمائهم.

٧- النزعة التدميرية والسخرية (إهانة الآخرين عن طريق النت وبرامج التليفزيون وتكوين جماعات ذات تسميات عدائية؛ مثل مولوتوف... إلخ. والسخرية فيها نوع زائف من التحقير للآخرين وشعور زائف بالتفوق لدى هذه الجماعات أيضًا.

(٣٣) المرجع السابق: ٢٠٦.

٨- الإسقاط والإنكار: ويظهر ذلك في إسقاطهم لعيوبهم على الآخرين، وإنكارهم أيضًا وجود عيوب وسقطات وأخطاء لهم.

٩- الشكلية والمظهرية فالبعض يعتقد أنه لمجرد أنه ارتدى زيًّا معينًا يستطيع أن يتحدث في كل شيء، ويوجه، الناس ويكون عليهم السمع والطاعة.

١٠- الاهتمام بالأمور والتعبيرات الجنسية.

١١- الميل إلى الإغلاق المعرفي في مقابل الانفتاح المعرفي (رفض الجديد والاحتمالي والنسبي) والانغلاق الاجتماعي (الأهل والعشيرة) في مقابل الانفتاح الاجتماعي (البشر جميعًا).

١٢- الأحادية في النظر إلى الأمور والظواهر في مقابل تعدد الرؤى ووجهات النظر.

١٣- الميل إلى القطعية والحسم بدلاً من القول: ربما، وأظن، ويحتمل، وغير ذلك من التعبيرات الدالة على التفكير الاحتمالي النسبي الترجيحي.

١٤- عدوى الغباء والجمود وسرعة انتقالها من مستوى أعلى إلى مستوى أدنى أو بالعكس.

١٥- الاهتمام باللفظي والسمعي في مقابل البصري والخيالي، وبالثابت في مقابل المتحول.

١٦- التفكير الاجتراري التكراري في مقابل التفكير الحواري الابتكاري الإبداعي.

١٧- التمركز حول الذات والجماعة بدلاً من التمركز حول الآخر والوطن والإنسان.
تأكيد التشابه والاتفاق والنمطية بدلاً من التركيز على الاختلاف والتفرد (موضوعات الكلام، والأزياء، والنظرة للمرأة والمغايرين في الدين، والصور النمطية عن ذاتهم وعن الآخرين، والفرق الناجية والفرق التي في النار... إلخ).

١٨- التفضيل لنمط القيادة الاستبدادية لا الديمقراطية، والقيادة الصلبة الجامدة بدلاً من القيادة اللينة المتسامحة.

١٩- الحاجة إلى الإغلاق المعرفي، وهي حاجة تشبه واقع النفور من الغموض وتجنب غير الواضح وغير اليقيني؛ وذلك لأن سمة تحمل الغموض ترتبط بالفضول والاستكشاف، وهي صفة إبداعية.

٢٠- اللجوء إلى الضغوط على الآخرين وتهديدهم من أجل الوصول إلى الاتفاق معهم والتجانس والميل إلى المحافظة على الوضع الراهن ما دام في صالحهم.

٢١- استخدام العلم والتكنولوجيا (النت - التليفزيونات - الموبايلات) لأغراض غريزية

بدائية سابقة على الحضارة (السخرية – السباب – التسجيل للآخرين وتهديدهم – تدبير عمليات انتحارية... إلخ).

٢٢- الانكفاء على الذات، فالمجال الخاص بالسلطة والمصالح، بالنسبة إليهم، مغلق عليهم، مع شعور دائم بالتهديد عبر مسارهم التاريخي. وهو شعور يتفاقم بذلك خلال الظروف غير المستقرة (أوقات الحروب – الكساد الاقتصادي – السجن – الثورات... إلخ) مما يدفعهم للبحث عن الأمن، غير المهدِّد، الثابت الجامد المغلق بصرف النظر عن ما قد يحدث للآخرين بسبب ذلك الاتجاه.

٢٣- الافتقار إلى ما يسمى بالتركيب المعرفي التكاملي أي النظر إلى أية ظاهرة على أنها متعددة الأبعاد تحتوي على الذات والآخر والتاريخ والبشر الذين يختلفون ويأتلفون... إلخ، ومن ثم نجد أن ما يميزهم هنا هو التبسيط المعرفي للمواقف والظواهر والعلاقات وبما يناسب رؤيتهم الضيقة أو المحدودة أو المغلقة.

٢٤- استخدام الدين والذي ينبغي أن يكون لصالح الإنسان من أجل التخويف والترهيب والتعذيب والتدمير أي من أجل غايات عكس أهدافه الحقيقية. الافتقار إلى ما يسمى يقظة الضمير (الخداع والكذب وإثارة الفوضى والغموض والسرية والضغط العدائي والعدواني على الآخرين).

٢٥- نسبة الإخلاص، والتفاني، والدافعية للإنجاز، والقوة، والانتماء، والمثل العليا، والتدين الحقيقي إلى أنفسهم، ونكرانها على الآخرين.

٢٦- الشعور شبه الفصامي (كلية القدرة وكلية الحضور) مع قدرٍ من الفقدان للوعي قد يتحول إلى ما يشبه المرض الجماعي المنتشر.

٢٧- المحاولة الدائمة للعودة إلى الماضي، وإعادة ذلك المخزون، أو محاولة إعادة ذلك المكبوت الذي يريد دائمًا أن يهز استقرار البيت أو الوطن من خلال أشباحه وظلاله؛ وذلك لأنه لم يُدفن بعد بشكل كافٍ.

٢٨- النمط المحافظ (في مقابل الراديكالي) في التفكير والشعور والسلوك، وكذلك عمليات التفضيل لنوع معين من الفنون ونوع معين من الأدب.

من فحصنا، عبر الفصول السابقة للخصائص المميزة للتطرف والتسلط والاتجاه المحافظ، يمكننا أن نلاحظ أن هذه العوامل تسهم مجتمعة معًا في تكوين بنية سيكولوجية واجتماعية عامة

تتمثل في اتجاهات وقيم تدفع في اتجاه العنف والعدوان والإرهاب. هكذا لا يمكن الفصل بين التطرف والتسلط، ولا بين التسلط والاتجاه المحافظ. فهذه العوامل كلها تتسم بالمقاومة الواضحة للتغيير، وكذلك الرغبة في الحفاظ على كل ما هو قديم أو راسخ أو مألوف أو متفق عليه.

خاتمة

ثقافة الإبداع في مواجهة ثقافة التطرف والإرهاب

في مواجهة التطرف والإرهاب والتزايد المتواصل للعنف السياسي وغير السياسي في العالم بشكل عام؛ نطرح الآن بعض الملاحظات الختامية التي قد تكون ذات فائدة في هذا السياق:

ضرورة تعديل الخطط والبرامج الدراسية مع التركيز على موضوعات متعلقة بالقيم الإنسانية والتربية عن طريق الفن وتنمية الخيال... إلخ، وتنمية أساليب التفكير ومهاراته (الناقد/ الإبداعي/ اتخاذ القرارات – حل المشكلات – الذكاء العاطفي)، وتشجيع الاستخدام للاستراتيجيات الإيجابية، وإعادة صياغة المشكلة بطريقة إيجابية، وليس الإنكار أو الانفصال أو التركيز على عوامل خارجية فقط. فالتركيز على المشكلة لمحاولة حلها هو المهم، وكذلك المواجهة الاستباقية للأزمات قبل استفحالها، والانتباه للمخاطر، وعدم دفن الرءوس في الرمال، وعدم تجنب التهديدات أو تجاهلها، والتركيز على الهروب منها أو تأجيلها والتسامح والعفو عند المقدرة، وضرورة تطبيق جميع معايير العدالة الاجتماعية، وأيضًا البحث عن وسائل تبعد الأفراد، من خلال التربية والتعليم وغيرهما، من الوقوع في براثن النمطية والتكرار والاجترار والتشابه والتفكير الدائري، مع التأكيد على أهمية الاهتمام بالتعدد والقنوع والكثرة والاختلاف.

لكن المفتاح الأساس في هذه المواجهة، في رأينا، هو الإبداع. وهناك أكثر من ثمانين تعريفًا للإبداع، نختصرها في ثلاث كلمات؛ هي: إنتاج جديد مفيد، أو سلوك جديد مفيد، أو تفكير جديد مفيد، ويمكن أن تضاف كلمة رابعة؛ هي «وأخلاقي أيضًا».

هكذا يمكن القول إن ثقافة الإبداع هي الجديرة أكثر من غيرها بمواجهة ثقافة الإرهاب، فهل هناك فروق بين هاتين الثقافتين؟ هناك فروق كثيرة تتجاوز الأربعين فرقًا، لكننا سنذكر منها هذه الفروق فقط، تمثيلاً لا حصرًا:

١- الإبداع تفكير في نسق مفتوح Open System يهتم بالتعدد والتنوع والكثرة والاختلاف، ووجود أكثر من إجابة عن السؤال الواحد، وأكثر من حل للمشكلة الواحدة. بينما الإرهاب تفكير في نسق مغلق يقوم على أساس النمطية والتكرار والتفكير الدائري المتقبل الجاهز، والاجابة الواحدة والقطعية، فالعالم مغلق، قد اكتمل، ومتى اكتمل؟ هناك في الماضي.

٢- بينما يقوم الإبداع بالتركيز على المستقبل (ولا يهمل دور الماضي أو الحاضر وإنه في الإمكان أبدع مما كان)، تهتم ثقافة الإرهاب بالتركيز على الماضي، وعلى أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، كما أنها تعارض التأمل والتفرد والخيال ومرونة التفكير.

٣- يشجع الإبداع على التمرد الإيجابي الفعال لصالح المجتمع والإنسان، بالخيال والتفكير الاحتمالي النسبي الترجيحي، بينما تشجع ثقافة الإرهاب السمع والطاعة، والتنفيذ الجامد للأوامر، كما أنها تمارس العدوان التسلطي (العدوان اللفظي والبدني) على كل مَن يهدد معاييرها أو قيمها أو أهدافها.

٤- تقوم ثقافة الإبداع على أساس المصارحة والمكاشفة والاعتراف بالأخطاء والتصحيح الذاتي، بينما تقوم ثقافة الإرهاب على أساس الإسقاط والإنكار، ويتجلى الإسقاط في نسبة عيوبها ومثالبها إلى الآخرين، بينما يظهر الإنكار في النفي؛ لوجود أيه أخطاء في أفكارها وممارساتها (فهم ملائكة مبعوثو العناية الإلهية لإصلاح العالم).

ويرتبط الإسقاط والإنكار مع ما يسمى في دراسات الإبداع بالميل إلى الغلق المعرفي، ويتجلى ذلك في عدم رغبة أتباع ثقافة الإرهاب في تغيير أفكارهم ومعتقداتهم، والرفض لكل ما هو جديد واحتمالي. وهكذا فإن ثقافة الإرهاب ثقافة منغلقة حول ذاتها Egocentric، وليس ثقافة منفتحة على الآخر، والإبداع هو رسالة موجهة إلى الآخر؛ من أجل صالحه. بينما التطرف – أو الإرهاب – رسالة موجهة إلى الآخر ؛ من أجل تهديده وتخويفه وإبادته.

٥- كانت ثقافة الإبداع وما تزال هي الدافع الذي أدى إلى تطور الانسانية، وظهر ذلك عبر الاختراعات العلمية الكثيرة المتتالية التي جعلت الحياة أيسر والتواصل بين البشر أعمق. هكذا قدم الإبداع العلمي، تمثيلاً لا حصرًا، الميكروسكوب (١٥٩٠م)، والتليسكوب (١٦٠٩م)، التصوير الفوتوغرافي (١٨٣٩م)، السينما (١٨٩٥م)، التليفزيون (١٩٢٦م)، الكمبيوتر (١٩٤١م)، الإنترنت (١٩٦٩م)... وغيرها.

فماذا قدمت ثقافة الإرهاب؟ لا شيء، بل إنها، على العكس من ذلك، تستخدم التكنولوجيا والعلم (الإنترنت – الموبايل – التليفزيون... إلخ)، لأغراض بربرية

بدائية تعمل ضد الحضارة (التدمير –العمليات – الانتحارية والتفجيرات – البرامج التليفزيونية بالحقد والتشفي والعدوان... إلخ).

٦- نرى ثقافة الإبداع أن الدين هو طاقة إيجابية بناءة تساعد على التكيف مع الحياة، والتوافق مع الآخرين، وكذلك تحقيق السعادة، والهدوء، والأمل والسكينة، والخير في الدنيا والآخرة، وهذه كلها جوانب إيجابية وطيبة. وحالة الرضا حالة تقوي جهاز المناعة الفردية والجماعية، على عكس ثقافة الإرهاب التي تحاول أن تدمر هذه الحالة من المناعة عن طريق إثارة الخوف، وكذلك إشاعة الشعور بعدم الأمن والأمان، وتهدد الحياة الإنسانية نفسها.

٧- وهناك فروق كثيرة أخرى، لكننا نختم كلامنا هنا بالقول إن ثقافة الإرهاب قد أساءت اختيار الزمان والمكان والإنسان، وعلى النحو التالي:

(أ) فمن الناحية العامة، وبالنسبة للإنسانية: أساءت ثقافة الإرهاب اختيار الزمن الذي قام فيه الإنسان بغزو الفضاء، وابتكر أيضًا التكنولوجيا المتطورة، وبحوث الوراثة، وتجارب الخلايا الجذعية، وغيرها وكل ما هو في صالح الإنسان، وأرادت أن تعود به إلى زمن غابر ماضٍ تجاوزته البشرية، ومن ثم فهي ثقافة خارج الزمن.

(ب) على المستوى المحلي أو المصري أو العربي، نسيت هذه الثقافة أو تناست أن مصر، وبعد ثورتين، لم تعد هي مصر قبلهما، ونسيت أيضًا، أو تناست أن مصر كانت دائمًا مقبرة للغزاة، وأنها هي التي هزمت الصلبيين في معركة حطين عام ١١٨٧م، على يد القائد صلاح الدين الأيوبي، وهزمت المغول في معركة عين جالوت على يد القائد قطز عام ١٢٦٠م، وأنها أيضًا صاحبة انتصار أكتوبر العظيم عام ١٩٧٣م.

(ج) كذلك أساءت ثقافة الإرهاب اختيار المكان «مصر» بتاريخها، وحضارتها، وثقافتها، وفنونها، واعتزازها بهويتها، ووحدتها الوطنية، وجيشها، وأمتها العربية والإسلامية، ودورها الماضي والمأمول في ثقافة العالم وحضارته.

(د) كذلك أيضًا أساءت ثقافة الإرهاب اختيار الإنسان المصري المبدع والمثقف بطبيعته والفنان بسجاياه، المحب لحياة الوسطية، الصريح المرح، والنكتة المصرية نوع من الإبداع.

٨- تعد المرونة هي القدرة وكذلك البعد السيكولوجي والاجتماعي والتربوي والسياسي الأساسي في مواجهة التطرف والتصلب والجمود. والمرونة، في أبسط تعريفاتها، قدرة إبداعية تتطلب تغيرًا في التفكير والسلوك يناسب التغيرات في الظروف والمواقف. تعمل المرونة ضد الإغلاق والانغلاق، وتسعى نحو الانفتاح، وهي تجاوز لتنظيم قائم نحو تنظيم جديد. كما أن المرونة تغير في مسار التفكير، وهروب من التصلب والاجترار والعود الأبدي والدوائر المغلقة؛ وهي كسر للنمطي والسائد والمستقر، وقفزة ووثبة عقلية مناسبة وتكيفية في اتجاه إنتاج جديد مفيد، وإدراك للنقض والنقائص، واندفاع موجه، وبحث عن مسالك جديدة للفكر والفعل، واستبصار وتأمل، ووعي، وخروج من أسر القوالب الصامتة المصمتة، ووقوف فى حضرة الآفاق الجديدة والمتجددة والخصبة التي لا تلبث بدورها أن تصبح قديمة، المرونة ليست مشاركة في حروب اليوم بأسلحة الأمس، بل هي سعي للهروب من أسر الضرورة إلى رحابة الحرية. وهي تجاوز واجتياز للظروف المعاكسة، وغير المشجعة، وغير المدعمة. كما أنها بحث عن البدائل، ونظر إلى الموضوع، أو الفكرة، من أكثر من زاوية، والتفاف ودوران. ولا يحدث إبداع بدون المرونة، وفي غيابها تتوفر الفرص كلها لظهور التصلب والتطرف والإرهاب.

قائمة المراجع

المراجع العربية

- إبراهيم، عبد الستار. **البحث عن القوة: الاتجاه التسلطي في الشخصية والمجتمع**. القاهرة: المركز العربي للبحث، ١٩٨٤.
- إبراهيم، ماجد موريس. **الإرهاب: الظاهرة وأبعادها النفسية**. بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٥.
- برجسون، هنري. **الضحك: بحث في دلالة المضحك**. ترجمة سامي الدروبي، وعبد الله عبد الدايم. ط. ٣. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣.
- تيليغا، كريستيان. **علم النفس السياسي: رؤية نقدية**. ترجمة أسامة الغزولي. سلسلة عالم المعرفة ٤٣٦. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٦.
- حبيب، كمال. «المقدمة». **في العنف بتأويل ديني: الحالة المصرية**، مراصد ٢٦. الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية، ٢٠١٤: ٨.
- الخطيب، معتز. **الإسلام والإرهاب في الفكر الغربي: النماذج التفسيرية وخلفياتها**. الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية، ٢٠١٢.
- خليفة، عبد اللطيف محمد. **ارتقاء القيم: دراسة نفسية**. عالم المعرفة ١٦٠. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢.
- زايد، أحمد، وسميحة نصر، وصفية عبد العزيز. **العنف بين طلاب المدارس: بعض المتغيرات النفسية: الارتباطات والمنبئات**. القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ٢٠٠٤.
- سايمنتن، دين كيث. **العبقرية والإبداع والقيادة: دراسات في القياس التاريخي**. ترجمة شاكر عبد الحميد. عالم المعرفة ١٧٦. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣.
- سويف، مصطفى. **التطرف كأسلوب للاستجابة**. دراسات في الشخصية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨.
- الشوبكي، عمرو، وآخرون. **الشباب وجماعات العنف.. رؤى شبابية: أوراق مؤتمر بيروت ٢٢ – ٢٣ ديسمبر/كانون أول ٢٠١٥**. ترجمة سونيا فريد. مراجعة أيمن عبد المعطي. القاهرة: منتدى البدائل العربي للدراسات؛ رام الله: منظمة روزا لوكسمبروغ، ٢٠١٥.

- عبد الحميد، شاكر. **التفضيل الجمالي: دراسة في سيكولوجية التذوق الفني**. عالم المعرفة ٢٦٧. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠١.
- عبد الحميد، شاكر. **الطفولة والإبداع**. مج. ٢. سلسلة الدراسات العلمية الموسمية المتخصصة ١٠. الكويت: الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، ١٩٨٩.
- عبد الحميد، شاكر. **الغرابة: المفهوم وتجلياته في الأدب**. عالم المعرفة ٣٨٤. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٢.
- عبد الحميد، شاكر. **الفكاهة والضحك: رؤية جديدة**. عالم المعرفة ٢٨٩. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٣.
- عبد الحميد، شاكر. **الفن والغرابة: مقدمة في تجليات الغريب في الفن والحياة**. القاهرة: دار ميريت، ٢٠١٠.
- عبد الله، معتز سيد. **الاتجاهات التعصبية**. عالم المعرفة ١٣٧. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩.
- عبد الله، معتز سيد. **العنف في الحياة الجامعية: أسبابه ومظاهره والحلول المقترحة لمعالجته**. القاهرة: جامعة القاهرة. كلية الآداب. مركز البحوث والدراسات النفسية، ٢٠٠٥.
- عبد الخالق، أحمد محمد. **قلق الموت**. عالم المعرفة ١١١. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٧.
- فورنهام، أدريان. «مركز التحكم وأسلوب العزو». في **المرجع في الفروق الفردية في السلوك الاجتماعي**، ترجمة عبد اللطيف خليفة، وعبد المنعم شحاته محمود. تحت النشر.
- فيرمان، جي ر.، وآخرون. **بيولوجيا السلوك الديني: الجذور التطورية للإيمان والدين**. ترجمة شاكر عبد الحميد. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥.
- كاجان، جيروم. **ثلاث أفكار مغرية**. ترجمة شاكر عبد الحميد. تحت النشر.
- لال، زكريا يحيى. **العنف في عالم متغير**. مكة المكرمة، ٢٠٠٧.

المراجع الأجنبية

- "Extremism". *Wikipedia*. https://en.wikipedia.org/wiki/Extremism [accessed 13 Nov 2016].
- "Hatred". *Wikipedia*. https://en.wikipedia.org/wiki/Hatred [accessed 13 Nov 2016].
- Clawson, Josef, and Donald Vinson. "Human Values: A Historical and Interdisciplinary Analysis". *Advances in Consumer Research* 5 (1978): 396-402.
- Cottam, Martha L., *et al. Introduction to Political Psychology*. New York: Taylor and Francis, 2010.
- Cudd, Ann E. *Analyzing Oppression*. New York: Oxford University Press, 2006.
- Eco, Umberto. *On Ugliness*. Translated by Alastair McEwen. New York: Rizzoli, 2007.
- Fuller, Andrew Reid. *Psychology and Religion: Classical Theorists and Contemporary Developments*. 4th ed. Lanham: Rowman and Littelfield, 2008.
- Gampel, Yolanda. "Reflection on the Prevalence of the Uncanny in Social Violence". *Cultures under Siege: Collective Violence and Trauma,* Publications of the Society for Psychological Anthropology 11. Cambridge: Cambridge University Press, 2000: 48-69.
- Glemore, David D. *Monsters: Evil Beings, Mythical Beasts and All Manners of Imaginary Terrors*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2003.

- Kimble, Gregory A., Norman Garmezy, and Edward Zigler. *Principles of General Psychology*. 5th ed. New York: Wiley, 1980.
- Langer, Lawrence L. *Holocaust Testimonies*: *The Ruins of Memories*. London: Yale University Press, 1993.
- Malthaner, Stefan. "Fighting for the Community of Believers: Dynamics of Control in the Relationship between Militant Islamist Movements and Their Constituencies". *Historical and International Perspectives on Violence in Modern Societies*. New York: Springer, 2011: 445-466.
- Neidhardt, Friedhelm. "Terrorism: Conditions and Limits of Control". *Historical and International Perspectives on Violence in Modern Societies*. New York: Springer, 2011: 431-444.
- Ray, John J. "Conservatism, Authoritarianism, and Related Variables: A Review and Empirical Study". *The Psychology of Conservatism*. London: Academic Press, 1973: 17-35.
- Reber, Arthur S. *The Penguin Dictionary of Psychology*. Middlesex, England: Penguin Books, 1987.
- Robben, Antonius C.G.M., and Marcelo Suárez-Orozco, eds. *Cultures under Siege: Collective Violence and Trauma*. Publications of the Society for Psychological Anthropology 11. Cambridge: Cambridge University Press, 2000.

- Rogers, Carl R. “Towards a Theory of Creativity”. *Creativity.* London: Penguin Books, 1973: 137-152.
- Rokeach, Milton. “Some Unresolved Issues in the Theories of Beliefs, Attitudes and Values”. *Nebraska Symposium on Motivation* 27 (1980): 261-304.
- Simmel, Georg. “The Stranger”. *The Sociology of Georg Simmel*. Translated and edited by Kurt H, Wolff. Free Press Paperback 92892. New York: The Free Press, 1908: 402-408.
- Stenner, Karen. *The Authoritarian Dynamic*. Cambridge Studies in Public Opinion and Political Psychology. New York: Cambridge University Press, 2005.
- Webster, Alan C., and Robert A.C. Stewart. “Theological Conservatism”. *The Psychology of Conservatism.* London: Academic Press, 1973: 129-147.
- Wilcox Laird. “Extremist Traits”. *The Hoaxer Project Report.* Online e-book. http://www.lairdwilcox.com/news/hoaxerproject.html [accessed 13 Nov 2016].
- Wilson, Glenn Daniel. *The Psychology of Conservatism*. London: Academic Press, 1973.
- Zimbardo, Philip G. *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil.* New York: Random House, 2007.